النفاق مرض العصر

كل الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إليكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول علىٰ إذن خطي من المؤلف والناشر.

الطبعة الأولي

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

النفاق

مرض العصر

تأليف

إسماعيل العضامي

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار،

أما بعد:

فإن المؤمن في سيره إلى الله تبارك وتعالى كالطائر له جناحان، جناح الخوف وجناح الرجاء، فالخوف سوط يلهب ظهره عند انتكاسة النفس

وخنوعها ودعتها وتكاسلها عن العمل، وغفلتها وانجرافها في وحل السيئات والخطايا، والرجاء بساط خير يركب المؤمن متنه عند هجمة القنوط واليأس من رحمة الله، ولما كان الغالب على النفس الدعة والجنوح إلى شهواتها كانت الحاجة إلى الخوف أشد في غالب حياة المؤمن؛ لتقويم عوج النفس وهواها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠ـ٤١].

وسلامة القلب من الشرك والنفاق من أشد ما ينبغي على المؤمن اجتنابه والحذر منه، وينبغي أن يكون الخوف من النفاق مما لا يخلو منه مؤمن، فعن أبي أيوب الأنصاري أنه كان يقول: « ليأتين على الرجل أحايين وما في جلده موضع إبرة من نفاق، وإنه ليأتي عليه أحايين وما في قلبه موضع إبرة من إيمان»(١)

والله إن هذا الكلام من هذا الصحابي الجليل ليُخيف قلبَ المؤمن الصادق؛ فمن يأمن على نفسه ؟ ومن يثق بقلبه ؟ نسألك اللهم ستراً وغَفْراً !.

واعلم أنه لا نجاة للعبد يوم القيامة إلا بسلامة قلبه منهما ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

وكما أن الشرك يخلد صاحبه في النار، فكذلك النفاق يُذهِبُ إيمانَ العبد، فيبقى في الظاهر مسلماً وفي الباطن على غير ذلك.

إن المرء ليعجب من الكم الزاخر من الآيــات والأحاديث التي وردت في

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي [ص ٧٤]

شأن النفاق وأهله، مع قلة حديث الدعاة وتحذيرهم المجتمعات من خطورة النفاق(١)؛ فإنك ترى الاهتمام البالغ من العلماء والدعاة بقضية الشرك وبيان أنواعه وبيان التوحيد والدعوة إلى ذلك بكل الوسائل المرئية والمكتوبة والمسموعة والمؤلفات والمسابقات وغير ذلك ـ وهذا كله حق ـ لكن أين الاهتمام بشأن النفاق؛ لماذا لم يوضح للناس كما يوضح أمر الشرك ؟ خاصة أن المجتمعات المسلمة المعاصرة ـ في أغلبها ـ لم تؤت من قبل الشرك وأهله؛ بالقدر الذي تحارب به من قبل المنافقين الخُلَّص وأتباعهم وأذنابهم؛ فنكايتهم على أهل الإسلام أشد من نكاية أهل الشرك والكفران !

« فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه ! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه ! وكم من علم له قد طمسوه ! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه ! وكم ضربوا بمعاول الشبه فى أصول غراسه ليقلعوها ! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها ! فلا يزال الإسلام وأهله منهم فى محنة وبلية ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية ويزعمون أنهم بذلك مصلحون﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨]»(٢).

---

(١) نعم هناك جهود دعوية فردية للحديث عن النفاق، لكن لا ترقى لتغطية هذا الكم الرهيب من مكائد المنافقين ودسائسهم ومؤسسات النفاق ؛ إن قضية النفاق والمنافقين ينبغي أن تأخذ حيزا ضخما من التعليم والتأليف والتثقيف والنشرات والمطويات وغيرها من وسائل التعليم والتثقيف ؛ بل إنني أتمنى أن تخصص مادة من المواد الدراسية المقررة تختص بدراسة النفاق وصفات أهله ؛ حتى تخرج الأجيال نظيفة طاهرة من هذا المرض العضال الذي لا يقل خطورة عن الشرك والكفر .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٨).

إن القرآن الكريم أولى هذا المرض الخبيث عناية كبيرة جداً؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن أطال في ذكر صفات المنافقين:« لا تستطل أوصاف القوم فالمتروك والله أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم؛ لكثرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور فلا خلت بقاع الأرض منهم؛ لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات ، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات، سمع حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلا يقول: « اللهم أهلك المنافقين ! فقال: يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك!».(١)

والنفاق أرأس أمراض القلب الذي تجتاح قلب المسلم، وهو شديد الخفاء على من لا يعلمه، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

« فالنفاق هو الداء العضال الباطن الذى يكون الرجل ممتلئا منه وهو لا يشعر؛ فإنه أمر خفي على الناس، وكثيرا ما يخفى على من تلبس به فيزعم أنه مصلح وهو مفسد ».(٢)

وقد كان خير القرون من الصحابة والتابعين يخافون النفاق.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٨)
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٧)

قال ابن أبي مُليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل. ذكره البخاري(١).

وعن معاوية بن قرة قال:« أن لا يكون فيّ نفاق أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ كان عمر يخشاه وآمنه أنا ؟ » (٢)

وعن جعفر بن حيان، قال: قيل للحسن:« إنهم يقولون: لا نفاق فقال الحسن: لأن أعلم أني بريء من النفاق أحب إلي من طلاع الأرض ذهبا»(٣)

وعن جبير بن نفير قال: دخلت على أبي الدرداء منزله بحمص فإذا هو قائم يصلي في مسجده فلما جلس يتشهد جعل يتعوذ بالله من النفاق فلما انصرف قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء ما أنت والنفاق؟ قال: « اللهم غفرا – ثلاثا – من يأمن البلاء؟ من يأمن البلاء؟ والله إن الرجل ليفتتن في ساعة فينقلب عن دينه»(٤)

والنصوص في هذا كثيرة، ستراها ـ إن شاء الله ـ في هذا المصنف.

---

(١) قال : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه .
قال الحافظ بن حجر (الفتح ١/ ١١١) (والصحابة الذين أدركوا ابن أبي مليكة من أجلهم : عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة وأبو هريرة .. فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة من أجل من هؤلاء، كعلي، وسعد بن أبي وقاص)
(٢) رواه الفريابي في "صفة النفاق " (٨٦)
(٣) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي [ص ٦٩]
(٤) البيهقي في الشعب (٢/ ٢٥٩)، و الفريابي في "صفة النفاق " (٧٤)، وصحح إسناده المحقق.

ولذلك وجب التنبيه عليه حتى نحذره، وتعلمُ رسمه ووسمه حتى نجتنبه، ومعرفة أهله وصفاتهم حتى لا ننخدع، والاطلاع على أسراره وخفاياه حتى تتجلى لكل ذي عينين وتسطع، والله أسأل أن يجعل هذا العمل صالحـًا، ولوجهه خالصـًا، وأن يجعله زاداً إلى حسن المسير إليه، وعتاداً إلى يمن القدوم عليه، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه: حامداً لربه شاكراً ، مصليـًا على نبيه مسلمـًا

إسماعيل العضامي

الباب الأول

تعريف النفاق

أساس النفاق

خطورة النفاق

أعداء المسلم

كثرة المنافقين

أنواع النفاق

الخوف من النفاق

أين ظهر النفاق أولاً ؟

سبب ظهور النفاق

تعريف النفاق

النفاق: تدور معاني هذه الكلمة في اللغة حول: جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه.

النفاق لغةً:

النفاق اسم مأخوذ من مادة (ن ف ق) التي تدل على الخروج، فالنفق سرب في الأرض له مخلص إلى مكان.

قال ابن منظور:(والنَّفَقُ سَرَبٌ في الأَرض مشتق إلى موضع آخر.

وفي التهذيب له مَخْلَصٌ إلى مكان آخر.

وفي التنزيل ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥].

والجمع: أَنْفَاق.

والنُّفَقةُ والنَّافِقاء: جُحْر الضَّبّ واليَرْبوع.وقيل النُّفقةُ والنافِقاء: موضع يرققه اليربوع من جُحره، فإذا أُتِيَ من قبل القاصِعاء ضرب النافِقاء برأْسه فخرج ونَفِقَ اليربوع)[١]

(١) لسان العرب (١٠/ ٣٥٧) بتصرف

تعريف النفاق شرعـًا:

هو: إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد.

قال ابن رجب الحنبلي: (والذي فسره به أهلُ العلم المعتبرون أنَّ النفاقَ في اللغة هو من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير، وإبطان خلافه)(١).

« والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه، وهو مأخوذ من "نافق اليربوع" وهو جحر من جحرته يخرج منه إذا أخذ عليه الجحر الذي فيه دخل، فيقال: قد نفق ونافق ومنافق، يدخل في الإسلام باللفظ ويخرج منه بالعقد، شبيه بفعل اليربوع، لأنه يدخل من باب ويخرج من باب، فما كان من الأحاديث فيها ذكر النفاق، وليس معناها أن من فعل شيئا مما ذكر فيها فهو منافق كنفاق من يظهر الإسلام ويسر الكفر، إنما معناها أن هذه الأفعال والأخلاق من أخلاق المنافقين وشيمهم وطرائقهم.

هذا ومثله يدلك على ذلك: « **أَنَّ رَجَلاً أَتَى النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسولَ اللهِ، إِنِّي قَرأتُ البَارحةَ بَراءةَ فَخَشيتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ نَافَقتُ، فَقَالَ: أَتَشهدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَني رَسولُ اللهِ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ تُحدِّثُ بِذلكَ نَفسَكَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أنتَ مُؤمِنٌ**»)(٢)



(١) جامع العلوم والحكم (٣/ ١٢٥٠)
(٢) أصول السنة لابن أبي زمنين (ص: ٣٨٨)

أساس النفاق

وأساس النفاق الذي بُني عليه: أن المنافق لابد وأن تختلف سريرته وعلانيته، وظاهره وباطنه؛ ولهذا يصفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق، قال تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

وأمثال هذا كثير.

قال ابن القيم: «وَأَسَاسُ النِّفَاقِ وَأَصْلُهُ: هُوَ التَّزَيُّنُ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِي البَاطِنِ مِنَ الإِيمَانِ»(١).

إذن: أخصُّ وأهمُّ ما يميز المنافقين الاختلاف بين الظاهر والباطن، وبين الدعوى والحقيقة كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: « أجمع جميعُ أهل التأويل على أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ من أهلِ النِّفاقِ، وأنَّ هذه الصفة صفتُهم» (٢).

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٦٩).
(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٦٨)

وَقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ يُقَالُ: «النِّفَاقُ اخْتِلافُ السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ، وَالقَولِ وَالعَمَلِ»(١).

وروي عنه أنَّه قال على المنبر: « إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم المنافقُ العليم، قالوا: كيف يكون المنافق عليماً ؟ قال: يتكلم بالحكمةِ، ويعمل بالجور، أو قال: المنكر ».

وسُئل حذيفة عن المنافق، فقال: «الذي يَصفُ الإيمانَ ولا يعملُ به ».

وفي صحيح البخاري: قَالَ أُنَاسٌ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سُلْطَانِنَا، فَنَقُولُ لَهُمْ خِلاَفَ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ، قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّهَا نِفَاقًا»(٢)وفي المسند عن حُذيفة، قال: « إنكم لتكلِّمون كلاماً إن كنّا لنعدُّه على عهد رسول الله ﷺ النفاق، وفي رواية قال: إنْ كان الرجلُ ليتكلَمُ بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ، فيصير بها منافقاً، وإنِّي لأسمعها من أحدِكم في اليوم في المجلس عشر مرارٍ »(٣).

قال بلالُ بنُ سعد: «المنافق يقولُ ما يعرفُ، ويعمل ما ينكرُ »

قال ابن رجب الحنبلي:

«ومن أعظم خصال النفاق العملي: أن يعمل الإنسان عملاً، ويظهر أنه قصد به الخير، وإنما عمله ليتوصل به إلى غرض له سيئ فيتم له ذلك، ويتوصل بهذه

---

(١) رواه الفريابي في "صفة النفاق " (٥٠)، وصحح إسناده المحقق.
(٢) البخاري (٩/ ٧١ رقم ٧١٧٨)
(٣) البخاري (٩/ ٧١رقم ٧١٧٨)

الخديعة إلى غرضه، ويفرح بمكره وخداعه وحمد الناس له على ما أظهره، وتوصل به إلى غرضه السيئ الذي أبطنه، وهذا قد حكاه الله ﷻ في القرآن عن المنافقين واليهود، فحكى عن المنافقين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ [التوبة: ١٠٧].

وأنزل في اليهود: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾ [آل عمران: ١٨٨].

وهذه الآية نزلت في اليهود، سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه، وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنهم قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم وما سئلوا عنه، قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما وحديثه مخرج في " الصحيحين ".

وفيهما أيضا عن أبي سعيد أنها « نزلت في رجال من المنافقين كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلافه فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا.» »[1].

(١) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٤٩٣)

خطورة النفاق

إن المرء ليعجب من الكم الزاخر من الآيات والأحاديث التي وردت في شأن النفاق وأهله، مع قلة حديث الدعاة وتحذيرهم المجتمعات من خطورة النفاق(١)؛ فإنك ترى الاهتمام البالغ من العلماء والدعاة بقضية الشرك وبيان أنواعه وبيان التوحيد والدعوة إلى ذلك بكل الوسائل المرئية والمكتوبة والمسموعة والمؤلفات والمسابقات وغير ذلك ـ وهذا كله حق ـ لكن أين الاهتمام بشأن النفاق؛ لماذا لم يوضح للناس كما يوضح أمر الشرك ؟ خاصة أن المجتمعات المسلمة ـ في أغلبها ـ لم تؤت من قبل الشرك وأهله؛ بالقدر الذي تحارب به من قبل المنافقين الخُلَّص وأتباعهم وأذنابهم؛ فنكايتهم على أهل الإسلام أشد من نكاية أهل الشرك والكفران؛ إنني أرى أن يوسع نطاق الحديث عن النفاق وبيان أسبابه ومداخله وصفات أهله وخطورتهم؛ وبيان مكرهم ومخططاتهم في حرب الإسلام وحرب السنة وأهلها والتواطؤ مع أعداء الدين والتحالف معهم والمسارعة في محاربة الشريعة.

---

(١) نعم هناك جهود دعوية فردية للحديث عن النفاق ، لكن لا ترقى لتغطية هذا الكم الرهيب من مكائد المنافقين ودسائسهم ومؤسسات النفاق ؛ إن قضية النفاق والمنافقين ينبغي أن تأخذ حيزا ضخما من التعليم والتأليف والتثقيف والنشرات والمطويات وغيرها من وسائل التعليم والتثقيف ؛ بل إنني أتمنى أن تخصص مادة من المواد الدراسية المقررة تختص بدراسة النفاق وصفات أهله ؛ حتى تخرج الأجيال نظيفة طاهرة من هذا المرض العضال الذي لا يقل خطورة عن الشرك والكفر .

« فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه ! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه ! وكم من علم له قد طمسوه ! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه ! وكم ضربوا بمعاول الشبه فى أصول غراسه ليقلعوها ! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها ! فلا يزال الإسلام وأهله منهم فى محنة وبلية ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية ويزعمون أنهم بذلك مصلحون﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف:٨] (١).

ويمكننا ـ مع ضخامة وتفاقم شأن النفاق ـ الوقوف في بعض نقاط محددة على خطورته فيما يلي:

١ ـ استطالة القرآن في ذكر المنافقين وصفاتهم:

وهل ثمة تنبيه إلى خطورة النفاق والمنافقين أكثر من أن يسمي الله سورة باسم " المنافقون "

« ذكر الله طوائف العالم الثلاثة فى أول سورة البقرة: المؤمنين والكفار والمنافقين؛ فذكر في المؤمنين أربع آيات ، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية؛ لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله؛ فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة »(٢)

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٨).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٧).

إن القرآن الكريم أولى هذا المريض الخبيث عناية كبيرة جداً؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن أطال في ذكر صفات المنافقين:« لا تستطل أوصاف القوم فالمتروك والله أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم؛ لكثرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور فلا خلت بقاع الأرض منهم؛ لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات ، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات، سمع حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلا يقول: « اللهم أهلك المنافقين ! فقال: يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك!»(١)

٢ ـ ذوبان المنافق في المجتمع بحيث لا يتميز عن غيره وهنا مكمن الخطر؛ فالطعنة إذا جاءت ممن لا يتصور منه الأذى كانت أشد نكاية وقسوة من طعنة العدو

وَظلـمُ ذَوي القُربَـى أَشـدُّ مَضَاضـةٍ عَلى النَّفسِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهنـدِ

والمنافق يستخفي عن الناس فلا يتعرف عليه إلا للمؤمن العالم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه لا يخفى عليه حال المنافقين بل وأشخاصهم؛ إنما يعرفهم بما علمه الله عَزَّ وَجَلَّ من صفاتهم في كتابه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: ٣٠].

٣ ـ لم يتحدث القرآن الكريم عن المنافقين إلا في العهد المدني، وهو عهد قيام الدولة الإسلامية، وهذا يعني أن العهد المكي لم تكن به ظاهرة النفاق(٢)،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٨)

(٢) وقد فصلت هذا في فصل " ظهور المنافقين في العهد المدني ".

فالمنافقون يظهرون بكل قوتهم وبوجههم القبيح في وقت قيام الدول الإسلامية ، ومن هنا تظهر خطورة النفاق، فالمنافقون لا يزالون مستخفين متسترين في المجتمع المسلم طالما أن الدولة قائمة للظلم، وأن شأن الإسلام والسنة محاربون، أما إذا بدأت شوكة الدين تقوى ويظهر أهل الإيمان وينادى بتطبيق شرع الله تعالى وإظهار دينه وحدوده، حين ذاك ينتفض المنافقون ويظهرون ويخرجون من جحورهم كما تظهر الفئران؛ وقد رأى المجتمع المصري كيف ظهر إعلاميون وصحفيون وناشطون سياسيون واتحادات ومؤسسات وغيرها بعد ثورة ٢٥يناير المصرية، كلها قائمة على حرب الدين وتشويه صورته وصورة العاملين في التيارات الإسلامية السياسة وغيرها (١)، فشاهد العالم كله الهجمة الشرسة من شراذم المنافقين بكل طوائفهم، وكيف اتحدوا مع النصارى وغيرهم على حرب الإسلاميين تحت مسميات الإرهاب والتطرف ونبذ العنف والتشدد الديني وغير ذلك من التهم المعلبة الجاهزة؛ وقد رأى العالم كله الحرب الصارخة على الإسلام والشعائر الإسلامية من حرق للمساجد والمصاحف، والقتل الشنيع وحرق الجثث، وقتل الأطفال وانتهاك أعراض النساء على مرأى ومسمع من العالم كله، وبمباركة واضحة من أرباب الديموقراطية والتيارات العلمانية والليبرالية في مصر.

٤ ـ إن ظاهرة النفاق إنما تخص المجتمع المسلم فحسب لا غيره، فهي لا تخص الدول الكافرة التي أعلنت الكفر صراحة، إنما تخص الصف المسلم من

---

(١) خاصة لما حاز الإسلاميون على أغلبية ساحقة في مجلسي الشعب والشورى وكان الرئيس المنتخب ينتمي إلى تيار إسلامي .

الداخل؛ قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون: ٣].

ولأجل هذا لا تجد واقعا للديموقراطية ولا للحرية المنشودة في البلاد الإسلامية، مع صراخ أصحابها بوجوب تطبيق الديمقراطية والحرية للشعوب؛ لكنها كصنم العجوة التي يعبدها صاحبها حتى إذا جاع أكلها، فما تلقاه الشعوب المسلمة في كل بلاد العرب وغيرها من التعذيب والنكال والتشريد والقتل وغير ذلك كل ذلك بسبب سعيها في حرية رقبتها من يد المنافقين الذين يسيطرون على الشعوب؛ فإلى الله المشتكى.

٥ ـ سمى القرآن الكريم النفاق مرضـًا، لكنه مرض ليس كباقي الأمراض؛ إنه مرض مميت قاتل ، كل الناس يجدون شؤمه ويشعرون بسُمِّه إلا المنافق نفسه؛ « فالنفاق هو الداء العضال الباطن الذى يكون الرجل ممتلئا منه وهو لا يشعر؛ فإنه أمر خفي على الناس، وكثيرا ما يخفى على من تلبس به فيزعم أنه مصلح وهو مفسد »(١)

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن بضعة عشرة مرة يدور معناها في أغلبها حول النفاق

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٧)

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ۚ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿* لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾ [محمد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١﴾ [المدثر: ٣١].

فالنفاق ظاهرة خبيثة تضعف المجتمع المسلم، وتفت في عضده وقوته، فالنفاق كالسوسة التي تنخر في جسد المجتمع المسلم، وليت المنافق حين أصابه ذاك المرض جلس في بيته لكنه يسعى في الأرض سعيا حثيثاً، ينشر أفكاره ويرمي بفيروسه صحاح المؤمنين.

٦ ـ وأيضا فإن القرآن سمى النفاق إفساداً، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ ﴾ [البقرة: ١١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ ﴾ [القصص: ٧٧] فالمنافق مفسد في الحقيقة وإن أظهر للناس الوجه الجميل ، إن كل مساحيق الوجه، وماسكات التجميل لسقط يوما ما لتظهر تجاعيد النفاق التي تكسو وجوه هؤلاء المفسدين

٧ ـ وهو أيضا فتنة وخيانة قال تعالى: ﴿ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٤٨﴾ [التوبة: ٤٨].

فهم خونة غير مؤتمنين على شيء، يسعون سعيـًا حثيثـًا لتفريق الصف، وتشتيت الشمل، وشرذمة المجتمع من خلال بث الأراجيف والفتن والشائعات والشبهات المغرضة

٨ ـ المنافق جاسوس:

فهو غير مؤتمن على حديث ولا يحفظ سرًّا خاصة تلك الأحاديث التي توقع البغضاء والتي يكون فيها تجسس على المؤمنين فهذا " نبتل بن الحارث وهو الذي قال له رسول الله ﷺ فيما: من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث، وكان رجلاً جسيمـًا أدلم ثائر شعر الرأس أحمر العينين أسفع الخدين ، وكان يأتي رسول الله ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين وهو الذي قال: إنما محمد أذن من حدثه شيئا صدقه. فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٦١](١).

فالمنافق لا يؤتمن على أسرار وطنه؛ فهو يبغض المجتمع المسلم فيتجسس عليه وينقل كل أخباره لعدوه قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

(١) الروض الأنف (٢/ ٣٨٠) وغيره

فالمنافقون إذن جاوسيس لعملائهم من الأعداء على اختلاف أشكالهم وألوانهم ومن هنا تفهم السرَّ في اتهام عمر ﷺ لحاطب بن أبي بلتعة ﷺ بالنفاق(١) لما أرسل كتابا لقريش يخبرهم فيه بمقدم رسول الله ﷺ فعن علي ﷺ قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ:« **انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ** ». فَخَرَجْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا فَإِذَا نَحْنُ بِظَعِينَةٍ فَقُلْنَا أَخْرِجِى الْكِتَابَ فَقَالَتْ مَا مَعِىَ كِتَابٌ فَقُلْنَا لَهَا لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِى بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِىِّ ﷺ فَقَالَ:« مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟ ». قَالَ: لاَ تَعْجَلْ عَلَىَّ إِنِّى كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِى قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَاتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لِى بِمَكَّةَ قَرَابَةٌ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِى ذَلِكَ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا وَاللهِ مَا فَعَلْتُهُ شَكًّا فِى دِينِى وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:« إِنَّهُ قَدْ صَدَقَ ». فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِى أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ:« **إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهُ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». وَنَزَلَتْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ

(١) وحاطب ﷺ ليس منافقًا ؛ فإن رسول الله ﷺ برأه منه، وقد فعل ما فعل متأولاً، والتأويل من الأعذار الصارفة لتهمة النفاق، لكن موضع الشاهد أن عمر اتهمه بالنفاق بمجرد ثبوت الخيانة عليه، قبل أن يعرف عمر ﷺ تأوله، فالخيانة من لوازم النفاق، والمؤمن لا يكون خائنا أبدا .

أعداء المسلم

للمسلم أعداء كثر، يمكن تقسيم أعداء المسلم إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: الشيطان وشجرته وأعوانه:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠ ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال في عداوة شياطين الجن والإنس للرسل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ففي بعض الآيات يعبّر الله سبحانه وتعالى عن العداء والحقد الواضحين للشيطان تجاه الناس لا سيما المؤمنين ونتيجةً لخطورة أساليب حِيَل الشيطان المؤدّية إلى انحراف الناس، فإنّ الله تعالى أراد من المؤمنين أن لا يقتفوا خطوات الشيطان، وأن يستعيذوا بالله من شره ومكره وهمزه ونفثه ولمزه.

المجموعة الثانية: الأعداء من الكفار بجميع طوائفهم من المجوس والصائبة وعباد الشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرهم؛ فإنّ القرآن عدَّهم أعداءً حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

وقال تعالى على لسانه خليله إبراهيم ﷺ: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة: ٤].

المجموعة الثالثة: الأعداء من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا شك أن اليهود أخطر وأشد عداوة وعناداً من النصارى ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢].

المجموعة الرابعة: هم المنافقون، فإنّ القرآن الكريم اهتمّ بتعريف ملامح المنافقين وخصوصياتهم، والذين يعدّون من أخطر الأعداء. كما أنّه عمد في أكثر من ثلاثمائة آية إلى إفشاء أحابيل المنافقين وبيان طرق مجابهتهم؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥] فالمنافقون أعظم جرمًا من الكافرين، وذلك لتدارك درجاتهم في النار عن الكافرين، فهم في حقيقة أمرهم يجمعون بين الكفر والكذب، فهم كافرون

في الباطن، كاذبون في الظاهر، لذا كان كفرهم أشد من كفر الكافر المعلن لكفره، وهم أخطر على المسلمين أيضاً، فالكافر ضرره ظاهر واضح، على خلاف المنافق فهو ولي للمسلمين ظاهراً، وفي الباطن عدو لدود، ومن هنا كان عذاب المنافق يوم القيامة أعظم من عذاب الكافر.

يقول الإمام عليّ: «**كُن لِلعَدُوِّ المُكاتِم أَشَدُّ حَذَراً مِنك لِلعَدُوِّ المُبارِز**».

كثرة المنافقين

ومما يوجب مزيد الخوف من النفاق والحذر من المنافقين: أنهم كثيرون منتشرون في بقاع الأرض كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لولا المنافقون لاستوحشتم في الطرقات».

قال ابن القيم:« لا تَسْتَطِل أوصاف القوم، فالمتروك - والله - أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور. فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتتعطل بهم أسباب المعايش وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات».

سمع حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً يقول: « اللهم أَهْلِك المنافقين. فقال: يا ابن أخي.. لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك ».

ولا يعني ذلك تعميم الحكم بالنفاق على الأكثرية والأغلبية من الناس فيُتَّهمُ الناس بالنفاق ، فإن النفاق شعب وأنواع منه ما هو أكبر ومنه ما هو أصغر وأكثر الناس يقعون في خصال النفاق العملي أي الأصغر، وعلى مثل هذا التأويل تحمل هذه الآثار فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كان النفاق غريبا في الإيمان ويوشك أن يكون الإيمان غريبا في النفاق»[١]

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي [ص ٧٦]

وقال أيضا: «ليأتين على الناس زمان يجتمعون في المساجد وما فيهم مؤمن»

وقال الحسن:« إنما الناس بين ثلاثة نفر: مؤمن ومنافق وكافر، فأما المؤمن فعامل بطاعة الله عز وجل ، وأما الكافر فقد أذله الله تعالى كما رأيتم وأما المنافق فههنا وههنا في الحُجَرِ والبيوت والطُّرُقِ نعوذ بالله ! والله ما عرفوا ربهم؛ بل عرفوا إنكارهم لربهم بأعمالهم الخبيثة ظهر الجفا وقلَّ العلم وتُركت السنةُ وإنا لله وإنا إليه راجعون، حيارى سكارى ليسوا بيهودٍ ولا نصارى ولا مجوسٍ فيعذروا !»

وقال: « إن المؤمن لم يأخذ دينه عن الناس ولكن أتاه من قبل الله ﷻ فأخذه، وإن المنافق أعطى الناس لسانه ومنع الله قلبه وعمله. فحدثان أحدثا في الإسلام رجل ذو رأي سوء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه فسلَّ سيفَه وسفك دماء المسلمين واستحل حرمتهم، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب وعليها يقاتل ولها يطلب !

وقال: يا سبحان الله ما لقيت هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها ومارقٍ مرق من الدين فخرج عليها. صنفان خبيثان قد غَمَّا كل مسلم.

يا ابن آدم دينَك دينَك فإنما هو لحمك ودمك ! فإن تسلم بها فيالها من راحة ويا لها من نعمة وإن تكن الأخرى فنعوذ بالله؛ فإنما هي نار لا تطفأ وحجر لا يبرد ونفس لا تموت »(١)

(١) صفة النفاق ص

أنواع النفاق

النفاق على نوعين اثنين

❐ النوع الأول: النفاق الأكبر

وهو النفاق الاعتقادي الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر - « بأن يظهر تكذيب الرسول ﷺ أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه أو المساءة بظهور دينه. ونحو ذلك: مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله ﷺ. وهذا القدر كان موجودا في زمن رسول الله ﷺ وما زال بعده؛ بل هو بعده أكثر منه على عهده؛ لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى. فإذا كانت مع قوتها وكان النفاق معها موجوداً فوجوده فيما دون ذلك أولى.»(١)

« وهذا النوع مخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار - وقد وصف اللّه ﷻ أهله بصفات الشر كلها: من الكفر وعدم الإيمان، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية منهم ، والميل بالكلية إلى أعداء الدين لمشاركتهم في عداوة الإسلام - وهؤلاء موجودون في كل زمان.

ولا سيما عندما تظهر قوة الإسلام ولا يستطيعون مقاومته في الظاهر، فإنهم

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٤)

يظهرون الدخول فيه لأجل الكيد له ولأهله في الباطن؛ ولأجل أن يعيشوا مع المسلمين ويأمنوا على دمائهم وأموالهم. فيُظهِر المنافق إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به »(١).

وقال ابن رجب الحنبلي: « وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين: أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كلَّه أو بعضَه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد النبي ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار »(٢)ا.هـ.

قلت: إن قَصْر تعريف النفاق الاعتقادي على إظهار الإسلام وإخفاء الكفر غيرُ جامعٍ مانعٍ؛ فلا شك أن أصحاب هذا النوع شديدي النكاية على الإسلام؛ لتمام بغضهم وشدة عداوتهم، واستحكام كفرهم وزندقتهم، فهم يعلمون ذلك من أنفسهم، ويشهدون على أنفسهم بالكفر الصراح كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: ١٧].

ولكن ينبغي أن يُضمَّ إلى هذا النوع من المنافقين نوعٌ آخرُ : وهو المسلم الذي تلبَّس بنوع من أنواع النفاق الأكبر كبغض شرع اللهﷻ ، أو إنكار شريعته وحكمه، أو بغض سنة النبي ﷺ أو شيئا منها إلى آخر ذلك من أنواع النفاق الاعتقادي، وإن كان لا يشعر بذلك، فلا يلزم ـ إذن ـ أن يكون شاهداً على نفسه

(١) التوحيد – للفوزان (ص: ٢٢)
(٢) في جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٨١)

بالكفر والنفاق وبغض الإسلام ومحاربته ـ كالنوع الأول ـ؛ بل ربما يكون مصليًّا مزكيًّا ً، وقد يكون منفقـًا قد بنى مسجداً أو قدَّم أعمالاً خيريةً؛ لكنه في الوقت ذاته ينكر الحدود ويبغض الشريعة، ولا يحب السنة فهو يحاربها ويسعى في هدمها ومحاربة أهلها، ومدافعة شرع الله تعالى؛ وهذا النوع الأخير أشدُّ خطرًا وأكثر شيوعـًا وعدداً من النوع الأول بلا شك.

إن تستَّر هذا النوع من المنافقين ببعض الأعمال الخيرية[1] ليس شيئا جديداً قد استحدثوه؛ بل هو أمر قديم جداً؛ فقد قام المنافقون في زمان النبوة ببناء مسجد !!، نعم ببناء مسجد؛ لحرب الإسلام والتفريق بين المؤمنين وتدشين حملات التشويه والإشاعات للصفِّ المسلم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: ١٠٧ – ١٠٨].

ونعم آيضـًا، كان المنافقون في زمان النبوة يصلون ويزكون ويحجون ويجاهدون، ويظهرون الموالاة والطاعة لله ولرسوله ﷺ؛ فقد كان رأس المنـافقين عبد الله بن أبي بن سلـول يقف أمـام المنبر وينصح قومه بطـاعة النبي ﷺ، وهذا قزمان المنافق يقاتل يوم أُحُدٍ حتى يموت !

---

(١) كإنشاء الجمعيات الخيرية، أو بناء مسجد، أو إقامة موائد لإفطار الصائمين ، أو توزيع الصدقات بصورة علنية ، أو إنشاء مسابقات رمضانية أو جوائز لحفظة القرآن إلى غير ذلك من أعمال البر والتي يكون الهدف من ورائها واحد وهو الشهرة واسترضاء طبقات المجتمع عنهم والتستر تحت هذه الأعمال بإخفاء الحرب الحقيقية للإسلام .

يقول عاصم بن عمر بن قتادة: كان فينا رجل أتى لا يدرى ممن هو يقال له قزمان وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر له: إنه لمن أهل النار !

قال: فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة فاحتُمل إلى دار بني ظفر. قال: فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليتَ اليوم يا قزمان فابشر ! قال: بماذا أبشر فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. قال: فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه »(١)

وأنا أريد أن أؤكد على هذا القيد الأخير في النوع الثاني : وهو كونهم لا يشعرون بأنهم منافقون، ولا بأنهم متلبسون بنوع من أنواع النفاق الاعتقادي ولا بناقض من نواقض الإيمان وهذا واضح في آيات كثيرة كما قال تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣].

ففي هاتين الآيتين يشير سبحانه وتعالى إلى كونهم لا يعلمون أنهم مفسدون في الأرض ولا بكونهم سفهاء العقول والقلوب، وأنَّ ما يقومون به من جهد وتعب هو في حقيقته إفساد في الأرض؛ فهم غافلون جاهلون بحالهم؛ والذي يؤسفني ويؤسف كلَّ مؤمن أن تنشأ مؤسسات ووزارات وهيئات ونقابات ونوادٍ واتحادات وغيرها كلها قائمة على أساس النفاق؛ فهي تكرِّس كل جهودها

(١) السيرة النبوية (٤/ ٣٧)

وتربي أبناءها وموظفيها على القواعد الخالصة للنفاق، من ترك للصلاة وتضييعها والتهاون في شأنها وجعلها في موضع هوانٍ ومحطة اختيار وحرية، من شاء فعلها ومن شاء تركها، وكذا تُنشِّئهم على بغض للشريعة والمناصرين لها، وتصويرهم لهؤلاء بأنهم إرهاب وأنهم مخربون للأوطان، وعلى تبغييض الدين ومظاهره لهم، وعلى هدم عقيدة الولاء والبراء في قلوبهم، فالنصراني أحبُّ إلى أحدهم من المسلم الصادق الملتزم بدينه، وفصل السياسة عند هؤلاء عن الدين تمامـًا، مع تهوين الحرمات في نظرهم وتدريبهم وتمرينهم على استباحة وانتهاك حرمات المعارضين والمخالفين لهم تحت شعارات حماية الوطن و حفظه وغير ذلك، ومن إطلاق الحريات بلا زمام ولا خطام في بعض الأجهزة لأهلها والعاملين فيها، فلا سقف لحرمة طالما أنه ينفذ الأوامر ويفعل ما يؤمر به وطالما أنه متسربل بحلة (أنا عبد مأمور!)؛ فهي في الحقيقية مصانع ومفارخ للمنافقين؛ نعم يبذلون فيها من المجهود والسهر والتعب والحرب على الإرهاب وأهله (استغفر الله! أقصد: الإسلام وأهله) وتذوب فيها طاقات رهيبة من أبناء المسلمين المغرر بهم، وفي الحقيقة لا يحاربون شيئا سوى الإسلام والسنة؛ وإذا كان الله تعالى قد نهى نبيه عن الصلاة في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون بل و أمره بهدمه ـ وإن كان مسجدا ومكانـًا للعبادة ـ لأنه كان مأوىً وملجأً للمنافقين، فما الظن بتلك المؤسسات التي ليس لها عمل إلا محاربة دين الله تعالى وسنة النبي ﷺ، وهذا المؤسسات إنما وضعها أعداؤنا في بلاد المسلمين حتى لا يقوم لدين الله قائمة في بلاد الإسلام؛ فيبقى اسم الإسلام في هذا البلاد قائمـًا ولا حقيقة واقعية ولا وجود له في دنيا الناس ولا محاكمهم ولا قوانينهم ولا حياتهم، فالنظم علمانية وشيوعية وليبرالية والقوانين وضعية غربية، والمعاملات ربوية ، والأخلاق مستوردة مشريَّة، والتعليم لا يلائم بني جلدتنا

بل هو مغرب لا معرب، وكلما أراد أبناء بلد الرجوع إلى حظيرة الإسلام والالتزام بتعاليمه والتحاكم إليه وتطبيق حدوده؛ قامت هذه المؤسسات وتلك الوزارات وغيرها بدورها في حرب هذه الصحوة بكل ما أُوتيت من قوة وبطش وقمع بلا رحمة ولا هوادة، مستعملة في ذلك كل أنواع الأسلحة:المسلحة والقمعية والإعلامية والصحفية و الاقتصادية و القضائية.. الخ

فالحرب الآن حقيقةً ليست مع الكفار الأصليين من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم[١] فحسب، إنما الحرب الحقيقية مع هذه الفئة المنافقة ، وتلك المؤسسات الخبيثة التي تقوم مقام أعداء الله تعالى في قمع الإسلام وقتل الصحوة في مهدها، ولاشك أن أعداءنا في أشد حالات السعادة والانبهار بما يفعله المنافقون، وما يُسْدونه لهم من امتلاك رقاب شعوب ومقدرات أمم وثروات بلاد بلا طلقة واحدة يطلقونها ، ولا خسارة دولار واحد ، ولا قتل لجندي واحد من جنودهم.

هذه هي حقيقة الحرب التي يعيشها المسلمون؛ إنها حرب المنافقين والتي لم تهدأ أبداً منذ أن ظهرت هذه الفرقة الخبيثة كالمرض الخبيث في جسد هذه الأمة المباركة.

---

(١) نعم هم الذين يديرون تلك الحرب من وراء وراء ، لكن لا يباشرها إلا صبيانهم من المنافقين (في أغلب الدول الإسلامية) من داخل الصف المسلم ؛ فإلى الله المشتكى .

النوع الثاني: النفاق الأصغر:

والنوع الثاني من أنواع النفاق هو ا لنفاق الأصغر

" وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها: مثل أن يكذب إذا حدَّث ويُخلف إذا وعد، ويخون إذا اؤتمن، أو يفجر إذا خاصم. ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا وَعْدَ أَخْلَفَ** ».وفي رواية صحيحة « **وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ** ».وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: « **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ** ». ومن هذا الباب: الإعراض عن الجهاد. فإنه من خصال المنافقين. قال النبي ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**» رواه مسلم"(١)

خصال النفاق العملي:

يقول ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى : «وأصولُ هذا النفاق ترجع إلى الخصال المذكورة في هذه الأحاديث، وهي خمسة:

أحدها: أن يُحدِّث بحديث لمن يصدِّقه به وهو كاذب له، وفي المسند عن النَّبيِّ ﷺ قال: « **كَبُرَتْ خِيَانَةً تُحَدِّثُ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ بِهِ كَاذِبٌ**»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٥)

(٢)أحمد (٢٩/ ١٨٣رقم ١٧٦٣٥)

قال الحسنُ: كان يقال: النفاقُ اختلاف السِّرِّ والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج، وكان يقالُ: أُسُّ النفاق الذي بني عليه النفاق الكذبُ.

الثاني: إذا وَعَدَ أخلف، وهو على نوعين:

أحدُهُما: أنْ يَعِدَ ومِنْ نيته أنْ لا يفي بوعده، وهذا أشرُّ الخلف، ولو قال: أفعل كذا إنْ شاء الله تعالى ومن نيته أنْ لا يفعل، كان كذبًا وخُلفًا، قاله الأوزاعيُّ.

الثاني: أنْ يَعِدَ ومن نيته أنْ يفي، ثم يبدو له، فيُخلِفُ من غير عذرٍ له في الخلف.

وخرَّج أبو داود ، والترمذي من حديث زيد بنِ أرقم، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إذا وعَد الرَّجُلُ ونَوى أنْ يفي به، فلم يَفِ، فلا جُناحَ عليه**». وقال الترمذي : ليس إسنادُه بالقوي.

وخرّجه الإسماعيلي وغيره من حديث سلمان أنَّ عليًا لقي أبا بكر وعمر فقال: ما لي أراكما ثقيلين؟ قالا: حديثٌ سمعناه من النَّبيِّ ﷺ ذكر خلالَ المنافق: «**إذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا اؤتُمِنَ خَانَ**» فأيُّنا ينجو من هذه الخصالِ؟ فدخل عليٌّ على النَّبيِّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال: « قد حدَّثتهما، ولم أضعه على الموضع الذي تضعونَه، ولكن المنافق إذا حدَّث وهو يحدِّث نفسه أنْ يكذبَ، وإذا وَعَدَ وهو يحدِّث نفسه أنْ يُخلِفَ، وإذا اؤتمِنَ وهو يُحدث نفسه أنْ يخونَ»(١).

(١) جامع العلوم والحكم (٣/ ١٢٥٠)

النفاق الأصغر مرقاة للنفاق الأكبر:

تكمن خطورة النفاق الأصغر في كونه مِرقَاة وسلمٌ يصل بصاحبه إلى النفاق الأكبر والانسلاخ من دين الإسلام إذا مات صاحبه عليه ولم يتب منه، سيظهر ذلك لك جليًّا ـ أيها القارئ الكريم ـ عند قراءة النوع الثالث: نفاق المعاصي والذنوب

قال ابن القيم:« النفاق نفاقان نفاق اعتقاد ونفاق عمل

فنفاق الاعتقاد: هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن، وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار

ونفاق العمل: كقوله في الحديث الصحيح:« **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا وَعْدَ أَخْلَفَ** ».البخاري ومسلم

وفي الصحيح أيضا « **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ** ». البخاري ومسلم

فهذا نفاق عمل قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكم وكَمُلَ فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم؛ فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال فإذا كَمُلَت في العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها فهذا لا يكون إلا منافقًا خالصًا

وقول الإمام أحمد يدل على هذا فإن إسماعيل بن سعيد الشالنجي قال: سألت أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم، وهل يكون مُصرًّا من كانت هذه حاله ؟ قال: هو مُصِرٌّ،

مثل قوله «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن** ». يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام ونحو قوله «**لا يشرب الخمر حين بشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن**». ونحو قول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المائدة: ٤٤

قال إسماعيل فقلت له: ما هذا الكفر ؟ قال: كفر لا ينقل عن الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يُختلف فيه"(١)

❐ النوع الثالث: نفاق المعاصي والذنوب(٢):

إن المعاصي والذنوب تزرع في القلب النفاق " **فمن أصر على نفاق المعصية خشي عليه أن يفضى به إلى نفاق الكفر**"(٣)

---

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص: ٧٧)

(٢) أخذت هذا الاسم من كلام ابن حجر عليه رحمة الله تعالى ، وأفردته ببحث وحده (وإن كان ضمن النوع الثاني : النفاق العملي ، لكني أردت تخصيصه والاهتمام به كنوع وحده من باب قول النبي ﷺ " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقام الصلاة و..." الحديث فعدها أصنافاً وأركاناً مع كونها ضمن الشهادتين وداخلة فيهما وما ذاك إلا لتشديد الاهتمام والتنويه على آكدية فرضها وعظيم شأنها) وجمعتُ له من الأدلة عليه لأهميته العظيمة فقلما تجده مجموعاً في كتاب ، فاشدُد يديك عليه وعَضَّ عليه بالنواجذ ، وتأمله فإنه ينفع كثيرا في ترك الصغائر المستعصية ، طهرَّني الله وإياك من صغائر الذنوب وكبائرها ، وجعلني وإياك من المخلصين .

(٣) فتح الباري (١/ ١١٢)

هذه حقيقة شرعية لابد أن يقف عندها العصاة أصحاب الكبائر والصغائر المصرِّين عليها وقفة تأمل، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الروم: ١٠].

فكثرة الذنوب والمعاصي والإصرار عليها من غير توبة موجب ـ غالبًا ـ للتكذيب والاستهزاء بآيات الله تعالى، ولعلَّ هذا المعنى قد أشارت إليه الآيات عن أهل السعير ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢ – ٤٧].

فقد قدَّم سبحانه فعلَهم لكبائر وذنوبٍ من ترك الصلاة والزكاة وغيرها أوجبت لهم التكذيب بيوم الدين.

وعن عبد الله بن مسعود أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:« **إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا** »(١)

وعن عائشة أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:« **يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّ لَهَا مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ طَالِبًا**»(٢)

---

(١) أحمد (٦/ ٣٦٧رقم ٣٨١٨) ، وأبو الشيخ في الأمثال (ص: ١٣٢رقم ٢٨٦) ، والطبراني في الأوسط (٣/ ٣١رقم ٢٣٧٧)

(٢) أحمد (٤٠/ ٤٧٧رقم ٢٤٤١٥) ، والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٥٤رقم ٧٢٦١)

قال الإمام الطحاوي:" فتأملنا هذا الحديث فوجدنا فيه تحذير رسول الله ﷺ أهلَ الإيمان من محقرات الذنوب فدل ذلك أنهم مأخوذون بها مع إيمانهم معاقبون عليها إلا أن يعفو الله عز وجل عنهم، وفي ذلك ما قد دلَّ على أن الإيمان لا يرفع عقوبات صغار الذنوب، وإذا كان لا يرفع عقوبات صغارها كان بأن لا يرفع عقوبات كبارها أولى "(١)

وعن سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنبا فاستصغره، فأتاه آت في منامه فقال له: يا سليمان:

لا تَحْقِرنَّ مِنَ الذنوب صَغِيرا إن الصَّغير غدًا يعود كبيرا
إن الصغيرَ ولو تقادم عهدُه عند الإله مُسَطَّرٌ تسطيرا
فازجرْ هواك عن البطالةِ لا تكن صعبَ القيادِ وشَمِّرَنْ تشميرا
إن المُحِبَّ إذا أحبَّ إلهه طار الفؤادُ وأُلْهِم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإلهَ بنيَّةٍ فَكَفَى بِرَبّكَ هاديًا ونصيرا

ومن هنا قال السلف: المعاصي بريد الكفر !

ولعله السر أيضا في لعن النبي ﷺ سارق البيضة والحبل فعن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:« **لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ** »متفق عليه.

واللعن هو الطرد من الرحمة؛ فكيف يلعن السارق على فعل صغيرة لا توجب حدًّا ولا قطعاً ؟!.

---

(١) شرح مشكل الاثار (١٠/ ١٧٢) يشير رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك إلى الرد على المرجئة الذين يقولون : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله ! .

والذنب في نفسه ـ وإن كان صغيراً ـ ينبغي للمؤمن أن يحذره؛ فلعله يحتقر شيئا يظنه صغيرًا وهو كبير عظيم عند الله تعالى؛ قال تعالى في ذنب حقره بعض المؤمنين ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥].

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه للتابعين: « إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا لَهِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ» رواه أحمد وغيره.

فيا أصحاب النظرات والكذبات البيضاء والمصائف والشواطىء والجلوس على المقاهي، ويا أصحاب المسلسلات والأفلام والمواقع الإباحية وغير ذلك مما يسول لكم الشيطان أنها صغائر وأنكم أحسن حالاً من أصحاب الخمور والزنا والسرقة !! وقد رضي كلٌّ منكم بعمله واستصغر معصيته وحقرها؛ فأصحاب الصغائر والملمات يقولون: نحن أحسن من أصحاب الكبيرة ! وصاحب الكبيرة يقول: أنا أحسن من أصحاب الكبائر ! وصاحب الكبائر يقول: أنا أحسن من المجاهرين بها ! وهكذا غدا كل فريق بحاله راضٍ؛ فلا يكاد أحد يعضُّ أصابع الندم على معصيته، بل هو راضٍ بها مستحسن لها غير عازم على توبة أو رجوع أو تركٍ ! فيالسكرةِ هذه العقول، ويالغفلةِ هذه الأفئدة، ويالعمى هذه القلوب !!

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ قَرَضٍ – أَوْ قَرَظٍ – قَالَ: « إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ الْيَوْمَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ. قَالَ حُمَيْدٌ: فَقُلْتُ لِأَبِي قَتَادَةَ: فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ زَمَانَنَا هَذَا ؟ قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: لَكَانَ لِذَلِكَ أَقْوَلَ"رواه أحمد والطبراني.

وهاك مثلاً ممن فعل فعلا فحقره فكان سبب عطبه وهلاكه قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سمعت النَّبِيِّ ﷺ يقول: « **دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**»(١)

وكلما زاد النفاق في القلب قلَّ خوف العبد من الله وزاد احتقاره لذنبه، وكلما قوي توحيد العبد قوي خوفه وخشيته لله تعالى فعن عَنْ أَبِى ذَرٍّ رَضِىَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ قال رسول الله ﷺ:« **إِنِّى لأَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا قَدْرُ مَوْضِعِ إِصْبَعٍ إِلاَّ مَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى** »

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: " وكل ذلك يدل على أن كل من كان بالله عز وجل أعرف كان منه أخوف، وبشارة من بشر منهم بالمغفرة ودخول الجنة لا تمنع من الخوف عند ذكر الآيات فقد ينسيه الله تعالى تلك البشارة في ذلك الوقت لتكميل أحواله في العبودية، وقد يطمئن لها في العاقبة بخبر الصادق به، ثم لا يأمن حدوث ما يستحق عليه العقاب إلى أن يدرك بالرحمة، والمغفرة في العاقبة، وقد يكون خوف النبي ﷺ بعد أن أومن على أمته، وبالله التوفيق "

ولهذا كان السلف الكرام يرهبون من الذنب وإن كان صغيرا فعن عبد الله مغفل:أَنَّ رَجُلًا لَقِيَ امْرَأَةً كَانَتْ بَغِيًّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَعَلَ يُلَاعِبُهَا حَتَّى بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ: مَهْ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ الشِّرْكَ وَجَاءَ بِالْإِسْلَامِ، فَوَلَّى الرَّجُلُ فَأَصَابَ وَجْهَهُ الْحَائِطُ فَشَجَّهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: « **أَنْتَ عَبْدٌ أَرَادَ اللهُ**

(١) البخاري (٤/ ١٣٠ رقم ٣٣١٨)

بِكَ خَيْرًا، إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا أَمْسَكَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ عَيْرٌ »(١)

وهذا المعنى(٢) تأملته فوجدت أدلته كثيرة متواترة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وأقوال السلف

وفيما يلي ـ مع ما سبق ذكره ـ الأدلة على هذا المعنى من الكتاب والسنة:

١ ـ قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾[البقرة: ٨١].

" عن ابن عباس: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره فما له من حسنة.وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه.

وقال الحسن -أيضًا-والسدي: السيئة: الكبيرة من الكبائر.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ قال: بقلبه.

وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾

---

(١) أحمد - الرسالة (٢٧/ ٣٦٠رقم ١٦٨٠٦)، وابن حبان (٧/ ١٧٣رقم ٢٩١١) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٨رقم ١٢٩١)

(٢) أي قول ابن حجر :" فمن أصر على نفاق المعصية خُشي عليه أن يفضى به إلى نفاق الكفر ".

قالوا: أحاط به شركه.

وقال الأعمش، عن أبي رزين، عن الربيع بن خُثَيم: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب. وعن السدي، وأبي رزين، نحوه.

وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، في رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ الكبيرة الموجبة.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم "(١).

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ففي هذه الآية " ينهى عباده تعالى لطفا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذى ففيه أن المنّ والأذى يبطل الصدقة، **ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة**، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: ٢].

فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٥)

وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ [محمد: ٣٣].

حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سدى "(١)

وقفة تأمل:

وتأمل ـ أيها الحبيب ـ كيف ابتدأ الله ﷻ الآية بالنهي عن المنِّ والأذى لأنه موجب لحبوط أجر الصدقة، وختمها بالإشارة إلى حبوط عمل الكافر بالكلية ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ في إشارة واضحة إلى أن المن والأذى يستوي والرياء في أصل العمل المحبط له بالكلية فكأنه لم يكن أصلا؛ كالحجر الأملس الصفوان يصيبه بعض الغبار ثم لا يلبث أن يزول عنه بمجرد نزول المطر عليه؛ وعليه فالذنوب كلها إن كثرت على العبد قد تأتي على إيمانه بالكلية فتسلُبَه قبل موته فيموت على نفاق أو كفر؛ ومن هنا تفهم سرَّ خوف سفيان الثوري من سلب التوحيد فعن محسن بن موسى قال: كنت عديل سفيان الثوري إلى مكة فرأيته يكثر البكاء فقلت له: يا أبا عبد الله، بكاؤك هذا خوفا من الذنوب؟ قال: " فأخذ عودا من المحمل فرمى به فقال: إن ذنوبي أهون علي من هذا، ولكني أخاف أن أسلب التوحيد! "(٢)

٣ ـ قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١١٣)
(٢) شعب الإيمان (٢/ ٢٦١رقم ٨٣٩)

وعدم الإصرار على الصغائر وصف لازم دائم للمتقين، فمن خالفهم في وصفهم فليس منهم، ومن هنا كان التشديد والوعيد للمصرين على الذنوب من غير توبة فعن عبدالله بن عمرو بن العاص عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: « **ارْحَمُوا تُرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يَغْفِرْ اللهُ لَكُمْ وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** »(١)

وكان عبد العزيز بن أبي رواد يقول: « أعوذ بالله من الغِرَّة بالله، ومن المقام على معاصي الله »(٢)

قال عمر بن الخطاب: « إلى كم تزجرون كما تزجر البهائم، قد أعييتم الواعظين »(٣)

وعن عبد الله بن مسعود قال:« لو تعلمون ذنوبي ما وطىء عقبي رجلان ولحثيتم على رأسي التراب ولوددت أن الله غفر لي ذنبا من ذنوبي وإني دعيت عبد الله بن روثة »

وقال عمر رضي الله عنه:« يا ليتني كنت كبش أهلي ، سمنوني ما بدا لهم حتى إذا كنت كأسمن ما يكون زارهم بعض من يحبون فذبحوني لهم فجعلوا بعضي شواء وبعضه قديدا، ثم أكلوني ولم أكن بشرا »

وقال أبو الدرداء: «يا ليتني كنت شجرة تعضد وتؤكل ثمرتي ولم أكن بشرا»

---

(١) أحمد (١١/ ٩٩رقم ٦٥٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٨٩رقم ٦٨٤٤)
(٢) شعب الإيمان (٩/ ٣٨٨)
(٣) السابق (٩/ ٣٩٠)

قال أبو عبيدة بن الجراح: « لوددت أني كنت كبشا فيذبحني أهلي، فيأكلون لحمي ويشربون مرقي. قال: وقال عمران بن حصين وددت أني رماد على أكمة تنسفني الرياح في يوم عاصف ».

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « يا ليتني كنت نسيا منسيا» (١)

وعن الحسن بن سعيد الباهلي قال: « سمعت زهيرا البابي يقول لرجل: كيف كنت بعدي؟، قال: في عافية، قال: " إن كنت سلمت من المعاصي فإنك كنت في عافية، وإلا فلا داء أدوى من الذنوب »(٢)

٤ ـ وقال تعالى عن اليهود: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

وهذه الآية الكريمة تدل على المعنى بوضوح؛ فالذنوب السالفات والمعاصي توجب للعبد فسقًا وخروجًا عن طاعة الله تعالى بالكلية، كما هو الحال في اليهود لعنهم الله.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾[المائدة: ٤١].

فهؤلاء اليهود والمنافقون لما كانت لهم أوزار وذنوب وفسق امتلأت به قلوبهم ، من غير إحداث توبة لها = صار هذا عائقا وسببًا في فتنتهم وزيغهم

(١) هذا الأثر وما قبله في الشعب (٢/ ٢٢٩)
(٢) السابق (٩/ ٣٩٥)

تحكيم شرع الله والرضا به والتسليم له.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

" أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا من عدل الله، وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبا لأحوالهم "(١).

٧ ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣].

فطاعة الله ورسوله ﷺ موجبة للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، ومعصية الله ورسوله ﷺ موجبة لحبوط العمل؛ فالمنافق والكافر لما تتامت معصيتهما لله ورسوله ﷺ في عدم الإيمان والتصديق تتام كفرهما وحبوط عملهم، والمؤمن لم تتامت طاعته لله ورسوله ﷺ بتحقيق الإيمان والتصديق والطاعة تتام له حفظ عمله وثوابه فالحمد لله رب العالمين.

٨ ـ ومن أجل هذا نهى الله تعالى المؤمنين وزجرهم عن معصيته ومعصية رسوله ﷺ؛ لأنها الباب المؤدي إلى الانسلاخ الكامل من الإيمان وحبوط

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٦٩)

الأعمال بالكلية.

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ ﴾ [الحجرات: ٢].

عن أنس بن مالك قال:« لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ ﴾ وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَبِطَ عَمَلِي أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينًا؛ فَتَفَقَّدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَانْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ: تَفَقَّدَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺمَا لَكَ ؟ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَجْهَرُ بِالْقَوْلِ حَبِطَ عَمَلِي وَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ فَقَالَ: « **لَا بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ** »

قَالَ أَنَسٌ:" وَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ "(١)

وفعل ثابت بن قيس رضي الله عنه فيه إشارة واضحة إلى خوفه من حبوط عمله بمجرد الصغيرة(٢)، وهذا فهم معتبر من صحابي جليل رضي الله عنهم جميعاً.

---

(١) مسلم (١/ ١١٠رقم ١١٩)، وأحمد (١٩/ ٣٩١رقم ١٢٣٩٩)

(٢) فإن رفعه لصوته لم يكن اعتراضا منه أو رفضاً أو مغالبة أو مجادلة لرسول الله ﷺ فيحبط عمله بذلك ، إنما كان رفعه لصوته جبلة جُبل عليها ، يفهم هذا من قول أنس في وصفه " رفيع الصوت ".

وقفة تأمل:

ثم تأمل ـ بارك في علمك وعقلك ـ كيف ختم الله تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢].

فعدم الشعور بحبوط العمل دليل على عدم التفات صاحبه إلى عظيم جُرم ما فعله، وكبير ما صنعه، وهذا في عموم الخلق لا يكون إلا في فعل صغائر الذنوب، فإن من شأنها ألا يلتفت صاحبُها إلى جريرتها وعظيم إصرها عند الله تعالى، بخلاف كبائر الذنوب فإن العبد لا يزال خائفا من جريرتها وتبعة فعلها وشؤم مخالفتها.

وهذا فيه تنبيه على أن العبد قد يفعل من كبائر وعظائم الذنوب والأوزار ما يحبط به عمله وهو لا يشعر بذلك عياذاً بالله تعالى، وهذا من شؤم التهاون بأمر الصغائر ومحقرات الأعمال.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: ٥].

" ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ ﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ عقوبةً لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى؛ لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفا لهم، لا لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلما منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما

عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلا منه بهم "(١)

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

ذكر الله تبارك وتعالى هذه الآية في سياق الحديث عن الكفار الذين يكذبون بيوم القيامة والبعث و النشور والمجازاة، ولا يرضى بالوحي ولا بالشرع بل يكذب به ويزعم أنه افتراء وكذب، ثم ختم الله كل ذلك بهذه الآية في إشارة واضحة إلى كونها السبب الأعظم في ركوبهم متن تلك العظائم وذينك البلايا ، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٠ – ١٤].

عن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:« **إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّيْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**»(٢)

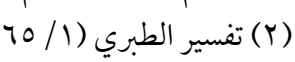
وعن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ:« **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عَرْضَ الْحَصِيرِ فَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَبْشَرَ بِهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ أَبْيَضُ مِثْلُ الصَّفَا لَا يَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا**

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٥٨)
(٢) أحمد (١٣/ ٣٣٣رقم ٧٩٥٢) والترمذي .

دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَدٌّ كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا وَأَمَالَ كَفَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ »(١)

١١ ـ قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: ٧].

فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فضِّ خاتمه وحَلّه رباطه عنها»(٢).



(١) مسلم (١/ ١٢٨رقم ١٤٤)، وأحمد (٣٨/ ٤٣٢رقم ٢٣٤٤٠) .
(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٦٥).

الفروق بين النفاق الأصغر والنفاق الأكبر

ثمة فروق بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر نجملها فيما يلي:

١ـ النفاق الأكبر يكون في جانب الاعتقاد، والنفاق الأصغر يكون في جانب العمل.

٢ ـ النفاق الأكبر يخرج صاحبه من الملة، والنفاق الأصغر لا يخرج صاحبه من الملة.

٣ـ النفاق الأكبر يخلد صاحبه في النار إذا مات عليه من غير توبة، والنفاق الأصغر لا يخلد صاحبه في النار إذا مات عليه من غير توبه منه فصاحبه تحت المشيئة إن شاء الله عفا عنه وغفره له، وإن شاء عامله بعدله عذبه به ثم كان عاقبة العبد للجنة والمغفرة إذا مات على التوحيد.

٤ ـ صاحب النفاق الأكبر إذا أظهره وأعلنه أوجب له القتل والتنكيل؛ قال تعالى ﴿* لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦١].

وأما صاحب النفاق الأصغر فإنه لا يقتل وإن أظهره، لكنه يعذر به؛ إلا أن يرتكب به ما يوجب به الحدَّ.

٥ ـ التوبة محجوبة وبعيدة ـ غالبـًا ـ عن صاحب النفاق الأكبر؛ قال تعالى

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾ [آل عمران: ٩٠].

٦ـ المغفرة محجوبة عن صاحب النفاق الأكبر وكذا الهداية إلى الصراط المستقيم؛وإن قام ببعض أفعال البر والخير؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾ [النساء: ١٣٧].

٧ ـ كل ما يقوم به صاحب النفاق الأكبر من الطاعات والأعمال الصالحة مردود عليه، فعمله محبط في الآخر، إنما يكافئ ويجازى به الدنيا؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التوبة: ٥٣ – ٥٤].

وأما صاحب النفاق الأصغر فإن نفاقه يغفر كباقي السيئات الصغائر؛ قال ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: ٣١].

٨ ـ توبة صاحب النفاق الأكبر لا تصح إلا بتعيين التوبة مما كان سببًا في نفاقه؛ وبيانه والإصلاح بعده؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النساء: ١٤٥ – ١٤٦].

وأما صاحب النفاق الأصغر فإنه لا يلزمه تعيين ما يتوب منه بل يكفر إثم

نفاقه الحسنات الماحيات من صلاة وزكاة وغيرها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

٩ ـ ما يفعله صاحب النفاق الأكبر من حسنات ماحيات كالحج والعمرة وصلاة الجمعة وصيام رمضان وغيرها؛ لا يكفر عنه ما وقع فيه من نفاق أكبر حتى يتوب منه؛ بل إن فعل هذه الحسنات على وجهها الصحيح فإنها من الطيبات التي يأكل ويستمتع بها في دار الدنيا من الخير والعافية والسلامة والرزق وغير ذلك؛ لكنه ليس له منها في الآخرة من أجر أو ثواب؛ قال تعالى:﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وعلى هذا فلا يغتر أصحاب النفاق الأكبر بما يقومون به من أعمال بر كالصدقة وبناء المساجد والمسابقات الخيرية والحج كل عام وإنشاء جمعيات خيرية يتسترون وراءها؛ فإن كل هذا لا يغني عنهم من العذاب شيئا حتى يتوبوا إلى الله تعالى من موجبات النفاق الأكبر.

وأما صاحب النفاق الأصغر فإن الحسنات الماحيات تكفر عنه سيئات نفاقه كما في الحديث:« **الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُمَا إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ** » رواه مسلم.

١٠ ـ صاحب النفاق الأكبر إذا عُرف به فإنه يُهجر ويُغلظ عليه، ولا يُولَّى إمارة ولا منصبًا رفيعًا، ولا يؤتمن على مصالح المسلمين؛ لأنه خائن عميل جاسوس، وإذا مات فإنه لا يصلى عليه ولا يقام على قبره بالدعاء؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟

وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤].

وأما صاحب النفاق الأصغر فإنه يُبغض على قدر معصيته ويُنصح عليها وإذا مات يُصلى عليه ويُدعى له فإن معصيته يُرجى له مغفرتُها ومحوهُا.



أنواع المنافقين في المجتمع الإسلامي

ذكر القرآن الكريم والسنة والنبوية للمنافقين أنواعـًا مختلفة، فجعل منهم أئمة وأتباعـًا، وهكذا في الكفار جميعا ذكر منهم أتباعا ومتبوعين في كثير من الآيات

تأمل في قوله تعالى:، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ ﴾ ﴿ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب ٦٦ ـ ٦٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧].

في آيات كثيرة أشارت إلى أن الكفار أتباع ومتبوعون، وكذا المنافقون أتباع ومتبوعون

❐ النوع الأول: أئمة النفاق:

الأول: أئمة النفاق وساداته والداعين إليه، ومن يؤصل له ويقعد قواعده ويضع مناهجه، وينظر للنظرياته، ويبني مؤسساته وقلاعه

قال تعالى في النوع الأول وهم أئمة النفاق قال تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة:١٧ـ١٨]

« فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين مثلا ناريا ومثلا مائيا؛ لما في الماء والنار من الإضاءة والإشراق والحياة؛ فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة.

وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزل من السماء متضمنا لحياة القلوب واستنارتها؛ ولهذا سماه روحا ونورا وجعل قابليه أحياء في النور، ومن لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي أنهم بمنزلة من استوقد نارا؛ لتضئ له وينتفع بها وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام، فاستضاءوا به وانتفعوا به، تشبيه الكفار بالمطر المصاحب للظلمة والرعد والبرق وآمنوا به وخالطوا المسلمين ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طغى عنهم وذهب الله بنورهم.

ولم يقل نارهم فإن النار فيها الإضاءة والإحراق فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وتركهم في ظلمات لا يبصرون فهذا حال من أبصر ثم عمي وعرف ثم أنكر ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه لا يرجع إليه ولهذا قال: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾»(١).

لا فرق:

ولا فارق بين نفاق اليوم ونفاق الأمس من حيث الجوهر أما الظروف فقد

(١) الأمثال في القرآن (ص: ٩)

اختلفت، فالنفاق بالأمس البعيد أيام تمكين الدين كان ذلا يستخفي وضعفاً يتواري، وخضوعاً مصنوعاً يمثله عمالقةٌ أقزام، ورؤوس أزلام، حيات وعقارب موطوءة تكاد لا تنفث السم إلا وهي تلفظ الحياة.

كان تمكين الدين وقتها يمكن للمؤمنين من جهاد أولئك الأسافل باللسان واليد والقلب وإقامة الحدود، فلا يري احدهم إلا وهو محاصر مكدور أو محدود مجلود.

أما اليوم فالنفاق من صرح ممرد وقَواعد تتحرك، وقلاع تُشيد، أنه اليوم دولة بل دول ذات هيئات وأركان، أنه أحلاف وتكتلات وكيانات بل معسكرات ذات قوة وسلطان، سلطان سياسي واقتصادي وإعلامي وثقافي يمارس الضرار في كل مضمار

إن النفاق اليوم له قيادة وهي التي تخطط وتنظم وتحرك وسمي القرآن هذه القيادة بالشياطين.قال تعالي : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ﴾ وقد تكون القيادة من المسلمين أو من غير المسلمين » منقول.

❑ النوع الثاني: الأتباع والخدام:

وهم من ذكرهم الله في هذا المثل ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾ [البقرة ١٩ـ ٢٠]

النوع الثالث: نفاق الأمراء والقادة:

قال عمر بن الخطاب: «يهدم الإسلام ثلاثة: زلة عالم، وجدال المنافق بالقرآن، وأئمة مضلون»(١)

وقال آيضـًا رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاثة: منافق يقرأ القرآن لا يخطئ فيه واوا ولا ألفا يجادل الناس أنه أعلم منهم ليضلهم عن الهدى، وزلة عالم، وأئمة مضلون»

عن عروة بن الزبير، قال: «أتيت عبد الله بن عمر فقلت له: يا أبا عبد الرحمن إنا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون بالكلام نعلم أن الحق غيره فنصدقهم فيقضون بغير الحق فنقر به عليهم ونحسنه لهم فكيف ترى في ذلك ؟ قال: يا ابن أخي كنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نعد هذا النفاق ولا أدري كيف هو عندكم»(٢)

عن عبد الله بن سلمة، عن حذيفة، قال:« إنكم اليوم تستعينون في غزوكم بالمنافقين»(٣)

وقد كان السلف رضوان الله عليهم يعدون مداهنة الأمراء ومداراتهم من النفاق فعن عن عبد الله بن عمر، أنه رأى الناس يدخلون المسجد فقال: « من أين جاء هؤلاء ؟ فقالوا: من عند الأمير فقال: إن رأوا منكرا أنكروه وإن رأوا معروفا أو أمروا به قالوا: لا، قال: فما يصنعون قالوا: يمدحونه ويسبونه إذا

(١) صفة النفاق للفريابي.
(٢) صفة النفاق للفريابي .
(٣) صفة النفاق [ص ٥٥]

خرجوا من عنده فقال ابن عمر: إن كنا لنعد النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما دون هذا»(١)

بل تأمل في هذا الخبر العجيب:

خبر المجوس كيف تحولوا عن دينهم وقد كان لهم كتاب يقرؤنه ثم حادوا عنه وضلوا عن سبيله وأحلوا الحرام وحرموا الحلال بسبب فساد ملوكهم وتواطؤ علمائهم معهم.

فعَنْ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ: قَالَ فَرْوَةُ بْنُ نَوْفَلٍ الأَشْجَعِيُّ: عَلامَ تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنَ الْمَجُوسِ، وَلَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ، فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسْتَوْرِدُ، فَأَخَذَ بِلَبَّتِهِ، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللهِ، تَطْعَنُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي: عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ أَخَذُوا مِنْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى الْقَصْرِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: اتَّئِدَا، فَجَلَسَا فِي ظِلِّ الْقَصْرِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْمَجُوسِ، كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ يَعْلَمُونَهُ، وَكِتَابٌ يَدْرُسُونَهُ، وَإِنَّ مَلِكَهُمْ سَكِرَ، فَوَقَعَ عَلَى ابْنَتِهِ أَوْ أُخْتِهِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، فَلَمَّا صَحَا جَاءُوا يُقِيمُونَ عَلَيْهِ الْحَدَّ، فَامْتَنَعَ مِنْهُمْ فَدَعَا أَهْلَ مَمْلَكَتِهِ، فَقَالَ: تَعْلَمُونَ دِينًا خَيْرًا مِنْ دِينِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، قَدْ كَانَ آدَمُ يُنْكِحُ بَنِيهِ مِنْ بَنَاتِهِ فَأَنَا عَلَى دِينِ آدَمَ، مَا يَرْغَبُ بِكُمْ عَنْ دِينِهِ، **فَتَابَعُوهُ وَقَاتَلُوا الَّذِينَ خَالَفُوهُمْ، حَتَّى قَتَلُوهُمْ فَأَصْبَحُوا وَقَدْ أُسْرِيَ عَلَى كِتَابِهِمْ، فَرُفِعَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وَذَهَبَ الْعِلْمُ الَّذِي فِي صُدُورِهِمْ وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ**، وَقَدْ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْجِزْيَةَ »(٢)

---

(١) صفة النفاق [ص ٦٣]

(٢) مسند الشافعي (٤/ ٥١رقم ١٧٧٥)

فتأمل: كيف استطاع هذا الملك الفاجر أن يغير دين أمة بأكملها، ثم تأمل فيمن تواطأ معه من العلماء في زمانه كيف حرفوا الملة وغيروا الشريعة، وكفروا بعد إيمانهم، كل هذا طمعاً في الرئاسة والمال والدنيا.

❑ النوع الرابع: نفاق العلماء والدعاة:

وهو من أخطر هذه الأنواع على الإطلاق، فإن العلماء إذا فسدوا ضيعوا الأمة وهدموا الدين، وحرموا على الناس ما أحل الله لهم، وأحلوا ما حرم الله عليهم، ومع تطاول الزمان ينسى العلم ويهدم الدين

الآيات في ذم علماء السوء

ولقد كان علماء السوء من أهل الكتاب هم قدوة علماء السوء من هذه الأمة، قال تعالى عن أولئك: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة:٧٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة:١٤٦]..

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران:٧٨].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران:٧١].

الله يبين الحق للناس ويأمر ببيانه، وهم يلبسونه بالباطل ويكتمونه، كما قال

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة:١٧٤].

قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: « أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ فَقَالَ لِي: " يَا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ: «**أَلْقِ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ**». وَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٍ حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَمْ نَتَّخِذْهُمْ أَرْبَابًا، قَالَ: «**بَلَى، أَلَيْسَ يُحِلُّونَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْكُمْ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ فَتُحَرِّمُونَهُ؟**» فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(١)

فعن عقبة بن عامر، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:« **أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا** »(٢)

قال الإمام الصنعاني:

« وليس المراد هنا نفاق الشرك بل نفاق العمل وهو التصنع ببعض الأعمال الدينية لنيل الدنيا وهذا واقع في القراء المتصلين بأهل الدنيا وملوكها الطالبين

(١) سنن الترمذي – الرسالة (٥/ ٣٢٧رقم ٣٠٩٥)
(٢) أحمد – الرسالة [١١ / ٢٠٩رقم ٦٦٣٣] وكذا رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ب ، وحسنه البوصيري في الإتحاف [٦ / ٣٥١رقم ٦٠٠٥]

لما في أيديهم والوعيد في الأحاديث على ذلك كثير وليس المراد كل القراء »(١)

وقال الإمام الطيبي: « وهم الذين يحفظون القرآن نفيـًا للتهمة عن أنفسهم ويعتقدون تضييعه، وكان المنافقون في عصر النبي صلى الله عليه وسل بهذه الصفة »(٢).

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **" مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا "**(٣)

وعن حذيفة، قال:« يا معشر القراء! استقيموا، فقد سبقتم سبقـًا بعيداً، وإن أخذتم يمينـًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً » رواه البخاري.

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ لِإِنْسَانٍ:« إِنَّكَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ فُقَهَاؤُهُ، قَلِيلٍ قُرَّاؤُهُ، تُحْفَظُ فِيهِ حُدُودُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُرُوفُهُ. قَلِيلٌ مَنْ يَسْأَلُ. كَثِيرٌ مَنْ يُعْطِي. يُطِيلُونَ فِيهِ الصَّلاَةَ، وَيَقْصُرُونَ الْخُطْبَةَ. يُبَدُّونَ أَعْمَالَهُمْ قَبْلَ أَهْوَائِهِمْ»(٤)

قال ابن بطال: « فذم من حفظ الحروف وضيع العمل، ولم يقف عند الحدود، ومدح من عمل بمعاني القرآن، وإن لم يحفظ الحروف، فدل هذا على

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير (٣/ ٤٥)
(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٢/ ٧١٨)
(٣) البخاري [٧ / ٧٧رقم ٥٤٢٧] ، ومسلم [١ / ٥٤٩رقم ٧٩٧]
(٤) موطأ مالك ت الأعظمي (٢/ ٢٤٢رقم ٥٩٧)

أن الحفظ والإحصاء المندوب إليه هو العمل، ويوضح هذا أيضًا ما كتب به عمر رضي الله عنه إلى عماله: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه. ولم يرد عمر رضي الله عنه بحفظها إلا المبالغة في إتقان العمل بها من إتمام ركوعها وسجودها وإكمال حدودها، لا حفظ أحكامها وتضييع العمل بها »(١)

وأخرج هذا الأثر ابن بطة كاملاً بسنده أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ أَتَى ابْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ: عَلِّمْنِي الْقُرْآنَ فَأَمَرَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ فَمَرَّ بِقَوْمٍ سَمِعُوا كَلَامَهُ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّ هَذَا تَعَلَّمَ الْكَلَامَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ: « إِنَّكَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٌ فُقَهَاؤُهُ ، قَلِيلٌ خُطَبَاؤُهُ كَثِيرٌ مُعْطُوهُ قَلِيلٌ سُؤَّالُهُ الْعَمَلُ فِيهِ قَائِدٌ لِلْهَوَى، وَيُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْكَ زَمَانٌ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ، قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ، قَلِيلٌ مُعْطُوهُ، كَثِيرٌ سُؤَّالُهُ، الْهَوَى فِيهِ قَائِدٌ لِلْعَمَلِ، فَإِذَا رَأَيْتَهُمْ شَرَّفُوا الْبِنَاءَ، وَجَارُوا فِي الْحُكْمِ، وَقَبِلُوا الرُّشَا، فَالنَّجَاةَ النَّجَاةَ قَالَ: فَمَاذَا يُنْجِينِي يَا ابْنَ مَسْعُودٍ؟ قَالَ: تَأْخُذُ حِلْسًا مِنْ أَحْلَاسِ بَيْتِكَ فَتَلْبَسُهُ، وَتَكُفُّ لِسَانَكَ وَيَدَكَ قَالَ: فَإِنْ لَمْ أُتْرَكْ قَالَ: وَمَا أُرَاكَ تُتْرَكُ، فَإِنْ طَلَبُوا دَمَكَ وَدِينَكَ فَابْذُلْ دَمَكَ، وَاحْرُزْ دِينَكَ » قَالَ الْيَمَانِيُّ: قُتِلْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ!

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ هِيَ أَوِ النَّارُ، هِيَ هِيَ أَوِ النَّارُ »(٢)

وكان عمر رضي الله عنه كثيرا ما يقول:

« ثَلَاثٌ يَهْدِمْنَ الدِّينَ: **زَيْغَةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ،** وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ»(٣)

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٣/ ٢٣٢)
(٢) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٩١رقم ٧٥١)
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٠رقم ١٨٦٩)

وعن ابن شهاب، أن معاذ بن جبل كان يقول في مجلسه كل يوم، قل ما يخطئه أن يقول ذلك: « اللهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ إِنَّ وَرَاءَكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهِ الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ وَالْمَرْأَةُ وَالصَّبِيُّ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَحْمَرُ، فَيُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَمَا أَظُنُّ أَنْ تَتَّبِعُونِي، حَتَّى ابْتَدَعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، **وَإِيَّاكَ وَزَيْغَةَ الْحَكِيمِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ بِكَلِمَةِ الضَّلَالَةِ**، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ فَتَلَقَّوَا الْحَقَّ عَمَّنْ جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا.

قَالُوا: وَكَيْفَ زَيْغَةُ الْحَكِيمِ؟ قَالَ: هِيَ الْكَلِمَةُ تُرَوِّعُكُمْ وَتُنْكِرُونَهَا وَتَقُولُونَ: مَا هَذِهِ؟ فَاحْذَرُوا زَيْغَتَهُ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَفِيءَ وَأَنْ يُرَاجِعَ الْحَقَّ، وَإِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مَكَانَهُمَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنِ ابْتَغَاهُمَا وَجَدَهُمَا »(١)

وقال أبو الدرداء: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ زَلَّةَ الْعَالِمِ، وَجِدَالَ الْمُنَافِقِ بِالْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ حَقٌّ، وَعَلَى الْقُرْآنِ مَنَارٌ كَأَعْلَامِ الطَّرِيقِ »(٢)

قال حذيفة: « إن من أقرأ الناس المنافق الذي لا يترك واوا ولا ألفا يلفته كما تلفت البقرة الخلا بلسانها »

وذهاب العلماء العاملين المصلحين من علامات الساعة، فإن الساعة إذا اقتربت قلَّ العلماء الصالحون وكثر علماء النفاق والزيغ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ**

(١) السابق (٢/ ٩٨١ رقم ١٨٧١)
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٠رقم ١٨٦٨)

النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » البخاري.

وفي رواية: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْزِعُ العِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ العُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ، يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ»

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: « **يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ كَيْفَ تَصْنَعُونَ بِثَلَاثٍ؟ دُنْيَا تَقْطَعُ أَعْنَاقَكُمْ، وَزَلَّةِ عَالِمٍ وَجِدَالِ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ ؟**

فَسَكَتُوا فَقَالَ: أَمَّا الْعَالِمُ فَإِنِ اهْتَدَى فَلَا تُقَلِّدُوهُ دِينَكُمْ، وَإِنِ افْتُتِنَ فَلَا تَقْطَعُوا مِنْهُ أَنَاتَكُمْ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يُفْتَتَنُ ثُمَّ يَتُوبُ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَلَهُ مَنَارٌ كَمَنَارِ الطَّرِيقِ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهُ، وَمَا شَكَكْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ، وَأَمَّا الدُّنْيَا فَمَنْ جَعَلَ اللهُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ لَا فَلَيْسَ بِنَافِعَتِهِ دُنْيَاهُ »(١)

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

« وشبَّه العلماء زلة العالم بانكسار السفينة؛ لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير، وإذا ثبت وصح أن العالم يخطئ ويزل لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه »(٢)

- وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِكُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ النَّخَعِيِّ وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ يُسْتَغْنَى عَنِ الْإِسْنَادِ لِشُهْرَتِهِ عِنْدَهُمْ: « يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٢رقم ١٨٧٢)
(٢) السابق (٢/ ٩٨٢)

إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلْخَيْرِ، وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، **وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ**، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَا هُنَا لَعِلْمًا، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ، لَوْ أَصَبْتَ لَهُ حَمَلَةً، بَلَى لَقَدْ أَصَبْتَ لَقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ يَسْتَعْمِلُ الدُّنْيَا لِلدِّينِ وَيَسْتَظْهِرُ بِحُجَجِ اللهِ تَعَالَى عَلَى كِتَابِهِ وَبِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ أُفٍّ لِحَامِلِ حَقٍّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا يَدْرِي أَيْنَ الْحَقُّ؟ إِنْ قَالَ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ لَمْ يَدْرِ، مَشْغُوفٌ بِمَا لَا يَدْرِي حَقِيقَتَهُ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ فُتِنَ بِهِ، وَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ مَنْ عَرَّفَهُ اللهُ دِينَهُ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ لَا يَعْرِفَ دِينَهُ »(١)

و عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **قَالَ**: «إِيَّاكُمْ وَالِاسْتِنَانَ بِالرِّجَالِ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ يَنْقَلِبُ لَعِلْمِ اللهِ فِيهِ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَمُوتُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَنْقَلِبُ لَعِلْمِ اللهِ فِيهِ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَمُوتُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ فَاعِلِينَ فَبِالْأَمْوَاتِ لَا بِالْأَحْيَاءِ»(٢)

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: « أَلَا لَا يُقَلِّدَنَّ أَحَدُكُمْ دِينَهُ رَجُلًا إِنْ آمَنَ آمَنَ وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ، فَإِنَّهُ لَا أُسْوَةَ فِي الشَّرِّ »

وتأمل في هذا التشبيه الرائع الذي ضربه ربيعة بن مالك رَحِمَهُ اللهُ لمكانة العلماء عند الناس، وكيف فتنة الناس بالعلماء فعن سفيان بن عيينة قَالَ:« اضْطَجَعَ رَبِيعَةُ مُقَنِّعًا رَأْسَهُ وَبَكَى فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: «رِيَاءٌ ظَاهِرٌ وَشَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٤رقم ١٨٧٨)
(٢) السابق (٢/ ٩٨٧رقم ١٨٨١)

وَالنَّاسُ عِنْدَ عُلَمَائِهِمْ كَالصِّبْيَانِ فِي حُجُورِ أُمَّهَاتِهِمْ، مَا نَهَوْهُمْ عَنْهُ انْتَهَوْا وَمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ ائْتَمَرُوا »(١)

والعامة لابد لها من تقليد العلماء، ولكن ينبغي لهم ألا يقلدوهم في زلاتهم، وينبغي عليهم أيضا أن يقلدوا العالم الرباني.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: « وقال عبد الله بن المعتز: «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد» وهذا كله لغير العامة؛ فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك؛ لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة، والله أعلم، ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها وأنهم المرادون بقول الله عز وجل: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل: ٤٣] وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا، وذلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم »(٢)

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٨رقم ١٨٨٥)
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٩)

من قلد العلماء في زلاتهم اجتمع فيه الشر كله

قال سليمان التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: « لَوْ أَخَذْتَ بِرُخْصَةِ كُلِّ عَالِمٍ اجْتَمَعَ فِيكَ الشَّرُّ كُلُّهُ »(١)

قال ابن عبد البر في قول سليمان التيمي السابق: « هَذَا إِجْمَاعٌ لَا أَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ».

ومن أجل هذا حرم العلماء اتباع زلات العلماء، كما حرموا تقليد العالم في هفواته وما ينكر عليه.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** « وَيْلٌ لِلْأَتْبَاعِ مِنْ عَثَرَاتِ الْعَالِمِ، قِيلَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَقُولُ الْعَالِمُ شَيْئًا بِرَأْيِهِ ثُمَّ يَجِدُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْهُ فَيَتْرُكُ قَوْلَهُ ذَلِكَ ثُمَّ يَمْضِي الْأَتْبَاعُ »(٢)

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ **تعالى:**

يَا سَائِلِي عَنْ مَوْضِعِ التَّقْلِيدِ خُذْ ... عَنِّي الْجَوَابَ بِفَهْمِ لُبٍّ حَاضِرِ
وَاصْغِ إِلَى قَوْلِي وَدِنْ بِنَصِيحَتِي ... وَاحْفَظْ عَلَيَّ بَوَادِرِي وَنَوَادِرِي
لَا فَرْقَ بَيْنَ مُقَلِّدٍ وَبَهِيمَةٍ ... تَنْقَادُ بَيْنَ جَنَادِلَ وَدَعَاثِرِ
تَبًّا لِقَاضٍ أَوْ لِمُفْتٍ لَا يَرَى ... عِلَلًا وَمَعْنًى لِلْمَقَالِ السَّائِرِ
فَإِذَا اقْتَدَيْتَ فَبِالْكِتَابِ وَسُنَّةٍ ... الْمَبْعُوثِ بِالدِّينِ الْحَنِيفِ الطَّاهِرِ
ثُمَّ الصَّحَابَةِ عِنْدَ عُدْمِكَ سُنَّةً ... فَأُولَاكَ أَهْلُ نَهًى وَأَهْلُ بَصَائِرِ
وَكَذَاكَ إِجْمَاعُ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ... مِنْ تَابِعِيهِمْ كَابِرًا عَنْ كَابِرِ

---

(١) الجامع (٢/ ٩٢٧)
(٢) السابق (٢/ ٩٨٤ رقم ١٨٧٧)

إِجْمَـــاعُ أُمَّتِنَـــا وَقَـــوْلُ نَبِيِّنَـــا مِثْـلُ النُّصُـوصِ لِـذِي الْكِتَـابِ الزَّاهِـرِ
وَكَـذَا الْمَدِينَـةُ حُجَّـةٌ إِنْ أَجْمَعُـوا مُتَتَـابِعِينَ أَوَائِـلًا بِـأَوَاخِرِ
وَإِذَا الْخِـلَافُ أَتَـى فَـدُونَكَ فَاجْتَهِـدْ وَمَـعَ الـدَّلِيلِ فَمِـلْ بِهَـمٍّ وَافِـرِ
وَعَلَى الْأُصُولِ فَقِسْ فُرُوعَكَ لَا تَقِسْ فَرْعًـا بِفَـرْعٍ كَـالْجَهُولِ الْحَـائِرِ
وَالشَّـرُّ مَـا فِيـهِ فَـدَيْتُكَ أُسْـوَةٌ فَـانْظُرْ وَلَا تَحْفِـلْ بِزَلَّـةِ مَـاهِرِ(١)

علماء السوء أخطر على الإسلام من اليهود والنصارى.. لماذا ؟!

الأول: قدرتهم على إظهار الحق في صورة الباطل، والعكس، ذلك أنهم قد يعتمدون على عمومات مخصصة، أو مطلقات مقيدة، أو مجملات مفسرة، أو أقوال شاذة، وهم يعلمون ذلك. ولكن عامة الناس لا يعلمون، فيضللون الناس في فهم أحكام الله وينصرون الظالم، ويخذلون المظلوم.

وهؤلاء يدخلون في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ ﴾ [آل عمران: ٧١].

الأمر الثاني: أن هؤلاء العلماء هم الذين يمكَن لهم فيظهرون أمام الأمة في الفتوى، والقضاء، وغيرهما، فيفتتن الجهال بفتاواهم، ويغترون بقضائهم، وتمجدهم وسائل الإعلام، وبخاصة في هذا العصر الذي تقلب فيه تلك الوسائل الحقائق، فتؤكد للناس لبس الحق بالباطل الذي يصدر من علماء السوء.

الأمر الثالث: تصدي علماء السوء لكل من أراد تنبيه الناس على باطلهم،

(١) السابق (٢/ ٩٩٠)

حرصاً منهم على بروزهم وحدهم، وعدم ظهور غيرهم، حتى يتسنى لهم الاستمرار في امتلاك الجاه، والمنصب الذين يدران عليهم الأموال التي يأخذونها في مقابل تحريفهم لكتاب الله، وأحكامه.

الأمر الرابع: ويعتبر علماء السوء من أخطر فئات المجتمع المسلم على الإسلام؛ ذلك لأن العالم موقع عن الله، وينظر عامة الناس إليه أنه الشرع، وعنده القول الفصل، ولديه حسم لما قد يحير العباد في أمور دينهم التعبدية، سواء في ميادين التعبد الفردية أو الجماعية.

من صفات علماء السوء

ولعلماء النفاق علامات يعرفون بها نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر ما يلي:

١ ـ عدم الخشية والخوف من الله، بل التجرؤ على حدوده، فمن لم يخش الله فليس بعالم، مهما حوى من العلم. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨].

٢ـ عالم السوء تزل به القدم في اتباع المتشابه بسبب الزيغ الذي حل في قلبه.فتراه داعية فتن وقلاقل. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧].

٣ـ كتمان العلم. إما تحقيقاً لمصلحة شخصية، أو خوفاً وجبناً، أو غير ذلك. ولهذا ذمّ الله أحبار السوء من اليهود: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٧]. وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا

يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة:١٤٦].

٤ ـ يؤثرون الدنيا على الآخرة، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

٥ ـ كثرة الدخول على السلاطين بغية الحصول على فتات أقواتهم ومعايشهم، والتزلف إلى الحكام من غير قيام بواجب النصح لولاة الأمر وفق ما يـ رضي الله عنهم في حق رعيتهم

٦ ـ ومن صفات علماء السوء: الاشتغال بالجدل والخصومات والتوسع في العلوم الفارغات فيدخلوا الأمة في قضايا جانبية، وخلافات فلسفية مما يوسع الهوة ويزيد الفرقة في الأمة

٧ ـ الانغماس في الشبه والمعاصي وعدم التورع من البدع.

٨ ـ يخالف عملهم قولهم، فأقوالهم تدعو إلى الدين، وأفعالهم تنفر منه.

٩ ـ ليس لهم شغل إلا البحث والتفتيش عن الزلات وتتبع الهفوات، وتجريح الأشخاص والهيئات.

١٠ ـ الاستكبار والتعالي على الناس.

الخوف من النفاق

سئل الإمام أحمد: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق ؟ قال: ومن يأمن على نفسه النفاق؟!

ولأجل هذا خاف عباد الله تعالى الصالحون على قلوبهم، وبكوا عليها وصرفوا عناياتهم إليهم؛ كي لا يسكنها مرض النفاق وغيره وهم لا يشعرون.

خوف المؤمن من أن يحبط عمله

إن المؤمن في سيره إلى الله تبارك وتعالى كالطائر له جناحان، جناح الخوف وجناح الرجاء، فالخوف سوطٌ يُلهب ظهرَه عند انتكاسةِ النفس وخنوعِها ودعتِها وتكاسلِها عن العمل، وغفلتِها وانجرافِها في وحل السيئات والخطايا، والرجاءُ بساطُ خيرٍ يركب المؤمن متنَه عند هجمةِ القنوطِ واليأسِ من رحمة الله تعالى ، ولما كان الغالب على النفس الدعة والجنوح إلى شهواتها كانت الحاجة إلى الخوف أشد في غالب حياة المؤمن؛ لتقويم عوج النفس وهواها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ – ٤١].

والخوف سوطٌ معلق في جدار حياة المؤمن لا يزال يؤدب به نفسه حتى يلقى الله تعالى فيؤمنه يوم الفزع الأكبر، فعن أبي هريرة قال قال النَّبِيُّ ﷺ فيما يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».(١)

(١) صحيح ابن حبان (٢/ ٤٠٦ رقم ٦٤٠) وصححه الألباني في الصحيحة

وعن عائشة – أَنَّهَا قَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ يَا رَسُولَ اللهِ هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللهَ قَالَ لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ "(١)

وقال الفضيل بن عياض: يا سفيه ما أجهلك، لا ترضى أن تقول: أنا مؤمن حتى تقول: أنا مستكمل الإيمان، لا والله، لا يستكمل العبد الإيمان حتى يؤدى ما افترض الله عليه، ويجتنب ما حرم الله عليه، ويرضى بما قسم الله له، ثم يخاف مع ذلك ألا يتقبل منه "(٢).

قال بعض السلف فى قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧].

قال: « أعمال كانوا يحسبونها حسنات بدت لهم سيئات »

حقيقة النفاق الذي خافه السلف الكرام:

قبل أن أتحدث عن خوف السلف من النفاق لابد من أن تعرف ما هو النفاق الذي كانوا يخشونه، وما هو حقيقته عندهم:

النفاق نوعان: أكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يُظهِر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

---

(١) أحمد (٤٢/ ١٥٦رقم ٢٥٢٦٣)، و الترمذي (٥/ ٣٢٧رقم ٣١٧٥)
(٢) شرح صحيح البخارى ـ لابن بطال (١/ ١١٠)

وهذا النوع هو الذي قال فيه حذيفة كما أخرج ذلك البخاري عن حذيفة بن اليمان قال: إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي ﷺ كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون !

والأصغر: وهو النفاق العملي، وهو طريقٌ موصل إلى الأول وأصوله مذكورةٌ في قوله ﷺ:« **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ** » متفقٌ عَلَيْهِ.

والنوعان يشتركان في: مخالفة الظاهر للباطن، والسر للعلانية، لكن المنافق نفاقا أكوبر: يُضمر الكفر ويظهر الإسلام، أو يكون مسلما يضمر الإسلام لكنه متلبس بشعبة من شعب النفاق الأكبر وهو لا يشعر، وأما المنافق نفاقا أصغر: فإنه يضمر المعصية ويظهر الطاعة، تختلف علانيته عن سره، وظاهره عن باطنه، يظهر للناس بوجه غير الذي ينطوي عليه سره.

والذي يعنينا هو النوع الثاني، وهذا ما يتنزل عليه غالب كلام السلف رضوان الله عليهم أجمعين، فهو الأشبه بحالهم وبتواضعهم وتحقيرهم لأنفسهم وشدة خوفهم من الله تعالى ، وتعظيمهم حق الله تعالى؛ ولا شك أن كلا النوعين خطير؛ لكن التحذير من النوع الثاني ـ أي: النفاق العملي ـ فإنه المرقاة للنوع الأول، وبإهماله وعدم علاجه يستقر في القلب فلا يزال بصاحبه حتى يخرجه من دائرة الإيمان بالكلية ويدخله في زمرة المنافقين الخُلَّص؛ ولأن التوبة من هذا النوع ـ أعني النفاق العملي ـ قريبة يسيرة بخلاف النوع الأول؛ فإن من تلبس به ـ عياذا بالله تعالى ـ لا يكاد ينجو منه، وهو محتاج إلى تصحيح إيمانه؛ بله الدخول في الإسلام من جديد !.

والحاصل أن ما أورده من كلمات للسلف في الخوف على أنفسهم من النفاق والتحذير منه؛ كلها دائرة ـ غالبـًا ـ حول النفاق العملي لا الاعتقادي.

فعن أبي رِبعِي حنظلة بنِ الربيعِ الأُسَيِّدِيِّ الكاتب أحدِ كتّاب رَسُول الله ﷺ، قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكر رضي الله عنه، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حنْظَلَةُ ؟ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ ! قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ ؟! قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بالجَنَّةِ وَالنَّارِ كأَنَّا رَأيَ عَيْنٍ فإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْواجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسينَا كَثِيراً، قَالَ أَبُو بكر رضي الله عنه: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فانْطَلَقْتُ أَنَا وأَبُو بَكْر حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُول الله ﷺ. فقُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُول اللهِ ! فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: "وَمَا ذَاكَ ؟ " قُلْتُ: يَا رَسُول اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ والجَنَّةِ كأَنَّا رَأيَ العَيْن فإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْواجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسينَا كَثِيراً. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْر، لَصَافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، لَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وسَاعَةً**» ثَلاَثَ مَرَات(١).

وقول حنظلة " نافق حنظلة ": معناه: أنه خاف أن يكون قد وقع في النفاق؛ حيث كان يحصل له الخوف في مجلس النبي صلى الله عليه و سلم، ويظهر عليه ذلك مع المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة؛ فإذا خرج اشتغل بالزوجة والأولاد، ومعاش الدنيا. وأصل النفاق: إظهار ما يكتم خلافه من الشر، فخاف

---

(١) أخرجه : مسلم (٨/ ٩٤ رقم :٢٧٥٠) قوله " كأنا رأي عين " أي : كأنا نراهما.
عافسنا : أي مارسنا عنه وعالجنا .
والضيعات : جمع ضيعة، وهو معاش الرجل من مال أو حرفة أو صناعة .

أن يكون ذلك نفاقا، فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق، وأنهم لا يكلفون الدوام على ذلك، بل ساعة وساعة أي ساعة كذا وساعة كذا "(١)"

" يعني ساعة للرب عز وجل، وساعة مع الأهل والأولاد، وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها، ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم. وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها أن الله عز وجل له حق فيعطى حقه عز وجل، وكذلك للنفس حق فتعطى حقها، وللأهل حق فيعطون حقوقهم، وللزوار والضيوف حق فيعطون حقوقهم حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة، ويتعبد لله عز وجل براحة؛ لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه، وشدد عليها ملَّ وتعب وأضاع حقوقًا كثيرة "(٢)

وعن أبي عثمان النهدي، قال: سمعت عمر بن الخطاب، وهو على منبر رسول الله ﷺ أكثر من عدد أصابعي هذه وهو يقول:« إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم، قيل: وكيف يكون المنافق العليم ؟ قال: عالم اللسان جاهل القلب والعمل »

وقال عمر أيضًا: ما أخاف عليكم أحد رجلين: رجل مؤمن قد تبين إيمانه، ورجل كافر قد تبين كفره، ولكن أخاف عليكم منافقا يتعوذ بالإيمان ويعمل غيره".

وعن الأحنف بن قيس، قال: قدمت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاحتبسني عنده حولا فقال: يا أحنف إني قد بلوتك(٣) وخبرتك فرأيت علانيتك حسنة،

---

(١) تحفة الأحوذي (٧/ ١٨٤) ط. دار الكتب العلمية .
(٢) شرح رياض الصالحين (ص: ١٦٩)
(٣) أي : اختبرتك وامتحنتك .

وأنا أرجو أن تكون سريرتك على مثل علانيتك، وإنا كنا نتحدث: إنما يُهلِكُ هذه الأمةَ كلُّ منافقٍ عليمٍ"

وعن أبي يحيى، قال: سئل حذيفة: من المنافق ؟ قال: الذي يصف الإسلام، ولا يعمل به»(١)

وقال الحسن: من النفاق: اختلاف اللسان والقلب، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج"(٢)

وعنه قال: «كان يقال: النفاق اختلاف السر والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج.

وكان يقال: أُسُّ النفاق الذي يبنى عليه النفاق: الكذب»(٣)

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: « وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئًا منه وهو لا يشعر؛ فإنه أمر خفي على الناس، وكثيرًا ما يخفى على من تلبِّس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد » (٤)

لقد سمع أسلافنا قول النبي ﷺ كما عند أحمد وغيره عن عمر بن الخطاب أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ**»(٥) فعند ذلك خافوا على أن أنفسهم أن يكون فيهم شيء من نفاق.

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي [ص ٦٧]
(٢) صفة النفاق :
(٣) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي [ص ٥٠]
(٤) انظر: «مدارج السالكين» الجزء الأول من صحيفة رقم (٣١٣) إلى رقم (٣٢٣).
(٥) أحمد (١/ ٢٨٨رقم ١٤٣) .

قال ابن أبي مُليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل. ذكره البخاري(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ **تعالى:**(وقد جزم ـ يعني: أبا العالية ـ بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم؛ بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقال ابن بطال: إنما خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه ولم يقدروا على إنكاره فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت)(٢)

وعن عمر بن الخطاب أنه قال لحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا حذيفة! نشدتك بالله، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ منهم؟.. قال: لا، ولا أزكِّي بعدك أحدًا».

وسئل أبو رجاء العطاردي: « هل أدركتَ من أدركتَ من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق ؟ فقال: نعم إني أدركتُ منهم بحمد الله صدراً حسنًا، نعم شديداً، نعم شديداً » أي: كان يخافونه خوفًا شديداً، وأكدَّ هذا تنبيهًا على يقظتهم وعدم غفلتهم عن هذا الأمر.

---

(١) قال : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه .
قال الحافظ بن حجر (الفتح ١/ ١١١) (والصحابة الذين أدركوا ابن أبي مليكة من أجلهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة وأبو هريرة .. فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة من أجل من هؤلاء، كعلي، وسعد بن أبي وقاص)
(٢) فتح الباري (١/ ١١١)

وعن معاوية بن قرة قال:« أن لا يكون فيّ نفاق أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ كان عمر يخشاه وآمنه أنا ؟ » (١)

وعن جعفر بن حيان، قال: قيل للحسن:« إنهم يقولون: لا نفاق فقال الحسن: لأن أعلم أني بريء من النفاق أحب إلي من طلاع الأرض ذهبا»(٢)

وعن جبير بن نفير قال: دخلت على أبي الدرداء منزله بحمص فإذا هو قائم يصلي في مسجده فلما جلس يتشهد جعل يتعوذ بالله من النفاق فلما انصرف قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء ما أنت والنفاق؟ قال: « اللهم غفرا – ثلاثا – من يأمن البلاء؟ من يأمن البلاء؟ والله إن الرجل ليفتتن في ساعة فينقلب عن دينه»(٣)

وعن أم الدرداء، أن أبا الدرداء، كان إذا رأى الميت قد مات على حال صالحة قال: هنيئا له ليتني بذلك فقالت له أم الدرداء: لم تقول ذلك ؟ فقال: «هل تعلمين يا حمقاء أن الرجل يصبح مؤمنا ويمسي منافقا ؟ قالت: وكيف ؟ قال: يسلب إيمانه ولا يشعر لأنا لهذا بالموت أغبط مني لهذا بالبقاء في الصلاة والصيام»(٤)

---

(١) رواه الفريابي في "صفة النفاق " (٨٦)

(٢) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي [ص ٦٩]

(٣) البيهقي في الشعب (٢/ ٢٥٩)، و الفريابي في "صفة النفاق " (٧٤)، وصحح إسناده المحقق.

(٤) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي [ص ١١٠]

وعن أبي أيوب الأنصاري أنه كان يقول: « ليأتين على الرجل أحايين وما في جلده موضع إبرة من نفاق، وإنه ليأتي عليه أحايين وما في قلبه موضع إبرة من إيمان»(١)

والله إن هذا الكلام من هذا الصحابي الجليل ليُخيف قلبَ المؤمن الصادق؛ فمن يأمن على نفسه ؟ ومن يثق بقلبه ؟ نسألك اللهم ستراً وغَفْراً !.

وذُكر عن الحسن البصري أنه ذكر النفاق فقال: «ما أَمِنَه إلا منافق، ولا خافه إلا مؤمن !»

ولقد ذُكر عن بعض أصحابه أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق.. قيل: وما خشوع النفاق؟.. قال: أن يُرى البدنُ خاشعًا، والقلب ليس بخاشع ».

وقال: « ما مضى مؤمن قطُّ ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن. وكان يقول: من لم يخفِ النفاق، فهو منافق ».

عن أبي إدريس الخولاني، أنه قال: «ما على ظهرها من بشر لا يخاف على إيمانه أن يذهب إلا ذهب »

وقال بلال بن سعد: «لا تكن وليا لله عز وجل في العلانية وعدوه في السر»(٢).

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي [ص ٧٤]
(٢) رواه الفريابي في "صفة النفاق " (٩١)

وعن عبد الله بن عمرو، لما حضرته الوفاة قال: « انظروا فلانا – لرجل من قريش – فإني كنت قلتُ له في ابنتي قولاً كشبيهِ العِدَةِ(١) وما أحب أن ألقى الله عز وجل بثلث النفاق وأشهدكم أني قد زوجته » (٢)

والخوف من النفاق هو من جملة الخوف من مكر الله تعالى:

قال عبد اللّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنّه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإنّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا »

قال الحسن البصريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمن يعمل بالطّاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن »(٣)

وقال أحمد بن حنبل في كتاب الإيمان: « حدثنا روح بن عبادة حدثنا هشام سمعت الحسن يقول : والله ما مضى مؤمن ولا بقي إلا وهو يخاف النفاق وما أمنه إلا منافق انتهى

قال الشّوكانيّ عند قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾، قيل: مكر اللّه هنا هو استدراجه بالنّعمة والصّحّة، والأولى حمله على ما هو أعمّ من ذلك»(٤)

---

(١) أي : كشبيه الوعد، والمعنى : أنه يخيل له أن أعطاه وعداً بأن يزوجه ابنته، ولكنه وفَّى له بذلك، مع كونه غير متحقق من الوعد، كل ذلك خشية أن يقع في خُلف الوعد، فيكون قد وقع في شعبة من النفاق .

(٢) "صفة النفاق "ص

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٤).

(٤) فتح القدير (٢/ ٢٢٨).

تنبيه:

ومما يؤكد خطر النفاق: أن الكثير من شعب النفاق الأصغر قد عَمَّت وطَمَّت في مجتمعات المسلمين، كالكذب وخلف الوعد والرياء والخيانة، والجبن وترك الجهاد في سبيل الله تعالى وعدم تحديث النفس بذلك ومع أن هذا الخصال من النفاق الأصغر، لكنها قد تؤول إلى النفاق الأكبر المخرج من الملة.

بل استفحل الأمر وعظم النفاق حتى صرنا نشاهد صورًا وأنواعًا من النفاق الأكبر في بلاد المسلمين، ومن ذلك الاستهزاء بدين الله تعالى والفرح والسرور بانخفاض دين الإسلام وهزيمة المسلمين وكذا العكس...، والإعراض التام عن حكم الله تعالى ومظاهرة الكفار ضد المسلمين.

أين ظهر النفاق أولاً ؟ وما هو سبب ظهور النفاق ؟

يظن كثير من الناس أن النفاق ظهر مع بزوغ فجر الإسلام، والحقيقة على غير ذلك:

« أما قبل الهجرة فلم يكن الناس إلا مؤمن أو كافر لم يكن هناك منافق؛ فإن المسلمين كانوا مستضعفين فكان من آمن آمن باطنا وظاهرا، ومن لم يؤمن فهو كافر.

فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وصار للمؤمنين بها عزٌّ وأنصارٌ ودخل جمهور أهلها في الإسلام طوعا واختيارا: كان بينهم من أقاربهم ومن غير أقاربهم من أظهر الإسلام موافقةً رهبةً أو رغبةً وهو في الباطن كافرٌ.

وكان رأس هؤلاء عبد الله بن أبي ابن سلول وقد نزل فيه وفي أمثاله من المنافقين آياتٌ والقرآن يذكر المؤمنين والمنافقين في غير موضع كما ذكرهم في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وسورة العنكبوت والأحزاب. وكان هؤلاء في أهل المدينة والبادية كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[التوبة: ١٠١].

وكان في المنافقين من هو في الأصل من المشركين، وفيهم من هو في الأصل

مـن أهـل الكتـاب. وسـورة الفـتح والقتـال والحديـد والمجادلـة والحشـر والمنافقين. بل عامة السور المدنية: يذكر فيها المنافقين »(١).

« وإنما نزلت صفات المنافقين في السّور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَها، وهو في الباطن مؤمن، فلمَّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَة حلفاء الأوس، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سَلام رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وَادَعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان رأسا في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمّ وُجِد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرَهًا، بل يهاجر

(١) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز) (٧/ ٤٦٣)

ويترك ماله وولده وأرضه رغبةً فيما عند الله في الدار الآخرة »(١).

فنبتة النفاق إذن بذرتها بالمدينة حين قامت للمسلمين دولة إسلامية له شوكة ومنَعَةٌ وبأس، وسُقيت بماء الحسد والحب للدنيا والمناصب والملك، نعم دخل المنافقون في الإسلام ظاهراً، وكفر به باطناً، دخلوا فيه رغبة في جمع الدنيا وطلبا للشرف والمناصب فيه، لا رغبة فيما عند الله تعالى.

قد يقول قائل: ماذا عن قول الله تعالى:

﴿ * فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [النساء: ٨٨].

فقد اختلف في المقصود بالمنافقين في هذه الآية على قولين:

الأول: أنها نزلت في المنافقين حين رجع بهم عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد

فعن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحُد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا !

فأنزل الله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: « **إنها طَيْبة، وإنها تنفي الخَبَث كما تنفي النار خبث الفضة** » متفق عليه.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يَسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش، رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٦)

القول الثاني: أنها نزلت في قوم أسلموا في مكة سراً ولم يهاجروا فلما جاءت غزوة بدر خرجوا مع المشركين يظاهرونهم على المسلمين

« فعن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام، كانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم.

وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله! أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمِنْ أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم ؟

فكانوا كذلك فئتين، والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فأنزل الله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾»(١)

والذي يظهر أن القول الثاني هو الصواب؛ وذلك لسياق الآيات بعدُ؛ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿* فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝٨٨ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٨٩﴾ [النساء: ٨٨ – ٨٩].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وقد رُوي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا.انظر : ابن كثير (٢/ ٣٧١)

فقد نهى الله عن توليهم حتى يهاجروا؛ فجعل الهجرة شرطا لحصول ولايتهم ومحبتهم وهذا يدل أنهم مسلمون؛ وإلا لو كانوا كفارًا ما حصلت الولاية أصلا؛ لانقطاع الولاية بالكفر.

وعلى هذا يكون معنى النفاق في الآية يكون على معناه اللغوي فإنهم أظهروا للمشركين ما يبطنوه من الإسلام؛ وإنما نافقوا في أقوالهم ومشايعتهم المشركين في قتالهم النبي ﷺ والمؤمنين.

الموضع الثاني: قول الله تعالى:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٩].

فإن هذه الآيات نزلت ضمن الآيات التي نزلت في شأن غزوة بدر الكبرى؛ فكيف يقال: إن النفاق إنما ظهر بعدها ؟!

فالجواب:

« **قال ابن جُرَيْج في قوله:** ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر.

وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

وقال مجاهد في قوله، ﷻ: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ قال: فئة من قريش: أبوقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على

الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ ﴾ حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار، سواء.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين -قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ ﴾ »(١)

وحاصل هذا أن النفاق ظهر أول ما ظهر في المدينة بعد غزوة بدر الكبرى، وكانت أول طعناته يوم أحد، حين رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٦)

الباب الثاني
صفات المنافقين

تنبيهات

وصف جامع للمنافقين.

سرد صفات المنافقين مرتبة حسب وردوها في القرآن

صفات المنافقين

استفاضت بعض سور القرآن في ذكر صفات المنافقين، بينما جاءت صفاتهم مفرقة في سور أخرى، قال ابن كثير:« ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتُجتنب، ويُجتنب من تلبس بها أيضًا »"(١)

تنبيهات:

١ـ لا يلزم أن تتوفر كل هذه الصفات في شخص واحد، بل إن وجود صفة واحدة كاف في نسبة صاحبها للمنافقين؛ إن لم يتب منها قبل موته، ويدل على ذلك قوله تعالى:ومنهم.

٢ـ إنما تبدو عوارت المنافق وتظهر صفاته القبيحة إذا حان وقت ظهورها، فتهيأت لها الأسباب وسنحت لها الفرصة؛ فالمنافق لا يزال مستور الحال حتى يأتي الموعد الذي يُمحَّص فيه ويُبتلى فيه حين ذاك يظهر نفاقه وتبدو عوراته ويفضح أمره للناس جميعا؛ كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[العنكبوت: ١ – ٣].

---

(١) تفسير ابن كثير [١ / ١٧٦]

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٠].

٣ ـ من هذه الصفات صفات لازمة للمنافق لا تنفك عنه، وهذه الصفات أمرها واضح بيّنٌ، ومنها ما هو عارض؛ يعرض حسب الوقائع والحوادث، وهذا لا يمنع تلبس المنافق به، كشارب الخمر الذي يشرب الخمر كل شهر مرة في أوله، إنه يسمى مدمنـًا ومعاقراً للخمر وصفـًا دائمـًا له، رغم أنه لا يشربها إلا مرة واحدة في الشهر؛ ذلك أنه يقبلها ولا يرفضها ويواظب على شربها، فلو عرضت عليه في منتصف الشهر مثلاً ما ردّها؛ فالمنافق هكذا قد لا يتلبس ببعض الصفات أحيانا، لكنها إذا عرضت عليه وحلت عليه الحوادث هاجت عليه صفة النفاق، وفاحت منه رائحتها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣].

«أي: فلذلك قَدَّرَ مِحَنًا وابتلاء، ليُظهر علمَه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده؛ لأنهم قد يحتجون على اللّه، أنهم لو ابتُلُوا لَثَبَتُوا»(١).

٤ـ ما أوردته من صفات النفاق ليس محض خيال أو ضربـًا من محال؛ إنما هو مسطور في كتاب الله تعالى، وقد بدأت كل صفة بآية من كتاب الله غالبـًا أو بحديث شريف؛ ليعلم القارئُ اهتمام القرآن بأمر المنافقين، وفضح أستارهم، وليعلم أيضا كثرة المنافقين واستحوازهم على المناصب والكراسي

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٢٧)ط. الرسالة .

والمؤسسات والإدارات وغيرها.

٥ ـ المقصود من ذكر صفات المنافقين: فضحهم وإظهارهم وتجلية حقيقتهم أمام أنفسهم أولاً، ثم أمام المجتمع المؤمن ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾

﴿وَمِنْهُمْ﴾ صار يُعرف نفاقُ ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك؛ فإن الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم، وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم، وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه، فلم يكن نفاقهم معلوما عند الجماعة بخلاف حالهم لما نزل القرآن، ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق، وما بقي يمكنهم من إظهاره أحيانا ما كان يمكنهم قبل ذلك »(١)

٦ ـ رأيت التفصيل أفضل من الإجمال في ذكر هذه الصفات؛ فهذا مقام بيان ودلالة؛ فالتفصيل فيه أحسن وأفضل، **وهذا الفصل من أهم فصول الكتاب على الإطلاق**؛ فلا تملّ أيها القارئ الكريم من مطالعة وقراءة وتعلم صفات هذه الطائفة الخبيثة؛ فالأمر جللٌ خطيرٌ، والمرض خفيٌّ حِسُّه، شديدٌ نكالُه، صعبٌ علاجُه، نجاني الله وإياك منه ومن شره.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٤)

وصف جامع للمنافقين

وبين يدي (صفات المنافقين) أقدم وصفـًا جامعـًا لهم ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى قال:

«ومن تأمل وصف قلوبهم بالمرض وهو مرض الشبهات والشكوك، ووصفهم بالإفساد في الأرض، وبالاستهزاء بدينه وبعباده، وبالطغيان واشتراء الضلالة بالهدى والصمم والبكم والعمى والحيرة ، والكسل عند عبادته والزنا، وقلة ذكره والحلف باسمه تعالى كذبا وباطلا، وبالكذب، وبغاية الجبن، وبعدم الفقه في الدين، وبعدم العلم، وبالبخل، وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالرب، وبأنهم مضرة على المؤمنين، ولا يحصل لهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال، و الإسراع بينهم بالشر، وإلقاء الفتنة وكراهتهم لظهور أمر الله ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراهتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم فيلمزون المتصدقين ويعيبون مزهدهم ويرمون بالرياء إرادة الثناء في لناس مكثرهم، وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا وإن منعوا سخطوا، وبأنهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه إليه ما برأه الله منه ويعيبونه بما هو من كماله وفضله.

وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين، وأنهم

يسخرون من المؤمنين، وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول اللهﷺ ويكرهون الجهاد في سبيل الله، وأنهم يتحيلون على تعطيل فرائض الله ليهم بأنواع الحيل، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله ورسوله ﷺ، وأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه، وأنهم أحلف الناس بالله قد اتخذوا أيمانهم جنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم وهذا شأن المنافق أحلف الناس بالله كاذبا قد اتخذ يمنه جنة ووقاية يتقي بها إنكار المسلمين عليه !

ووصفهم بأنهم رجس والرجس من جنس أخبثه وأقذره فهم أخبث بني آدم وأقذرهم وأرذلهم، وبأنهم فاسقون، وبأنهم مضرة على أهل الإيمان يقصدون التفريق بينهم، ويؤوون من حاربهم وحارب الله ورسوله ﷺ، وأنهم يتشبهون بهم ويضاهونهم في أعمالهم ليتوصلوا منها إلى الإضراب بهم وتفريق كلمتهم وهذا شأن المنافقين أبدا، وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله ﷺ وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء وهذه عادتهم في كل زمان، وارتابوا في الدين فلم يصدقوا به وغرتهم الأماني الباطلة وغرهم الشيطان، وأنهم أحسن الناس أجساما تعجب الرائي أجسامهم والسامع منطقهم فإذا جاوزت أجسامهم وقولهم رأيت خُشُباٌ مسندةٌ فلا إيمان ولا فقه ولا علم ولا صدق بل خُشُبٌ قد كسيت كسوة تروق الناظر وليس وراء ذلك شيء، وإذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها إما لأن ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة كحال كثير من الزنادقة، وإما احتقارا وازدراء بمن يدعوهم إلى ذلك.

ووصفهم سبحانه بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله ﷺ ، ووصفهم بأنهم رجس والرجس وبأنهم مجرمون، وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن

المعروف، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في مرضاته، ونسيان ذكره، وبأنهم يتولون الكفار ويدعون المؤمنين، وبأن الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه إلا قليلا، وأنهم حزب الشيطان، وأنهم يوادُّون من حاد الله ورسولهﷺ ، وبأنهم يتمنون ما يعنِّت المؤمنين ويشق عليهم، وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات ألسنتهم، وبأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

ومن صفاتهم التي وصفهم بها رسول الله ﷺ: الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخلف عند الوعد، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعا، وترك حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء.

ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها: الشُّحُّ على المؤمنين بالخير، والجبن عند الخوف فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنة حداد فهم أحد الناس ألسنة عليهم كما قيل:

جهلاً علينا وجبناً من عدوكم لبئست الخلتانِ الجهلُ والجبنُ

وأنهم عند المخاوف تظهر كمائن صدورهم ومخبآتها ، وأما عند الأمن فيجب ستره فإذا لحق المسلمين خوفٌ دبت عقارب قلوبهم وظهرت المخبآت وبدت الأسرارُ.

ومن صفاتهم: أنهم أعذب الناس ألسنة، وأمرهم قلوبا، وأعظم الناس خُلفا بين أعمالهم وأقوالهم ومن صفاتهم: أنهم لا يجتمع فيهم حسن صمت وفقه في دين أبدا.

ومن صفاتهم: أن أعمالهم تكذب أقوالهم، وباطنهم يكذب ظاهرهم،

وسرائرهم تناقض علانيتهم.

ومن صفاتهم: أن المؤمن لا يثق بهم في شيء؛ فإنهم قد أعدوا لكل أمر مخرجًا منه بحق أو بباطل بصدق أو بكذب؛ ولهذا سمي منافقًا أخذا من نافقاء اليربوع وهو بيت يحفره ويجعل له أسرابًا مختلفة، فكلما طلب من سرب خرج من سرب آخر فلا يتمكن طالبه من حصره في سرب واحد قال الشاعر:

ويستخرج اليربوع من نافقائه ومن جحره بالشيخة اليُتَقَصَّعُ

فأنت منه كقابضٍ على الماء ليس معك منه شيء !

ومن صفاتهم: كثرةُ التلون، وسرعةُ التقلب، وعدم الثبات على حال واحد بينا تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدى صالح أو صدق إذا انقلب إلى ضد ذلك كأنه لم يعرف غيره فهو أشد الناس تلونًا وتقلبًا وتنقلاً جيفة بالليل قطرب بالنهار.

ومن صفاتهم: أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسنة أبوا ذلك، وأعرضوا عنه ودعوك إلى التحاكم إلى طواغيتهم؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

ومن صفاتهم: معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وآرائهم ثم تقديمها على ما جاء به، فهم معرضون عنه معارضون له، زاعمون أن الهدى في آراء الرجال وعقولهم دون ما جاء به، فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين فكيف إذا جمعوا مع ذلك معارضته وزعموا أنه لا يستفاد منه هدى !

ومن صفاتهم: كتمان الحق والتلبيس على أهله ورميهم له بأدوائهم، فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى الله ورسوله ﷺ بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض، وقد علم الله ورسوله ﷺ والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعاهم ورثةُ الرسول إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع والضلال، وإذا رأوهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة متمسكين بطاعة الله ورسوله ﷺ رموهم بالزور كرَّةً والتلبيس والمحال، وإذا رأوا معهم حقا ألبسوه لباسَ الباطل وأخرجوه لضعفاء العقول في قالب شنيع لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق وأخرجوه في قالبه ليقبل منهم .

وجملة أمرهم: أنهم في المسلمين كالزغَل في النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد ويعرف حاله الناقد البصير من الناس وقليل ما هم، وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم، ولهذا جلَّى الله أمرهم في القرآن، وأوضح أوصافهم وبيَّن أحوالهم وكرَّر ذكرهم لشدة المؤنة على الأمة بهم وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم، وفرط حاجتهم إلى معرفتهم والتحرز من مشابهتهم والإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى وعدوهم ومنوَّهم ولكن وعدوهم الغرور ومنوَّهم الويل والثبور !

فكم من قتيلٍ ولكن في سبيل الشيطان ! وسليبٍ ولكن للباس التقوى والإيمان ! وأسيرٍ لا يرجى له الخلاص ! وفارٍّ من الله لا إليه وهيهات ولات حين مناصٍ !

صحبتهم توجب العارَ والشنارَ، ومودتهم تحل غضب الجبار، وتوجب

دخول النار، من علقت به كلاليبُ كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً، ويمشي على عقبيه القهقهرى إدبارا منه وهو يحسب ذلك إقبالا، فهم والله قطَّاعُ الطريق !

فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء حذارِ منهم حذارِ؛ إذ هم الجزارون ، ألسنتهم شفارُ البلايا ففراراً منهم أيها الغنم فراراً !

ومن البلية: أنهم الأعداءُ حقا وليس لنا بدٌّ من مصاحبتهم وخلطتهم أعظم الداء، وليس بدٌّ في مخالطتهم قد جعلوا على أبواب جهنم دعاة إليها فبعداً للمستجيبين ونصبوا شباكهم حواليها على ما حفت به من الشهوات فويل للمغترين !

نصبوا الشباك ومدوا الأشراك، وأذن مؤذنهم يا شياه الأنعام حي على الهلاك، حي عن التباب، فاستبقوا يهرعون إليهم فأوردوهم حياض العَذاب لا الموارد العِذاب، وساموهم من الخسف والبلاء أعظم خطةً وقالوا ادخلوا باب الهوان صاغرين ! ولا تقولوا حطة فليس بيوم حطة !

فواعجبًا لمن نجا من شراكهم لا من عَلَقٍ ! وأنى ينجو من غلبت عليه شقاوته ولها خلق، فحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلوا بالمحل الذي أحلهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا في أردأ منازل أهل العناد والكفران !

وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة؛ ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها على أنفسهم أن يكونوا منهم(١).

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٥٩٩ ـ ٦٠٤)

سرد صفات المنافقين مرتبة حسب وردوها في القرآن

وبعد هذا الوصف الماتع من ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه الطائفة الخبيثة؛ إليك أيها الحبيب الكريم تفصيل تلك الصفات وأدلتها وشواهدها، **وقد ذكرتها مرتبة حسب ورودها في المصحف الشريف:**

١ ـ إدعاء الإيمان ظاهراً.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

هذه أول صفة ذكرها الله للمنافقين الخلَّص: أنهم يدَّعون الإيمان ظاهراً، ويجهرون بذلك ويتبجحون به للمؤمنين، مع اطمئنان قلوبهم بالكفر والكراهية لدين الله تبارك وتعالى وبغض رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون: ١].

"أي: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا في نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون في الشهادة ب" إن" ولام التأكيد في خبرها؛ كما أكَّدوا قولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ وليس الأمر كذلك، كما أكْذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١]، وبقوله ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ "(١)

(١) تفسير ابن كثير [١ / ١٧٧]

وهذا حالهم دائما يظهرون شيئا ويخفون أشياء بأضدادها؛ قال ابن جريج: المنافق يخالف قَوْلُه فِعْلَهُ، وسِرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغِيبه.

وهذه الصفة ـ حقيقة ـ هي رأس كل الصفات؛ ومن خلالها يمرر المنافق كل خبثه، وينفث سمومه في جسد هذه الأمة، ويخدع المؤمنين، ويفعل كل شيء فيه نكاية للإسلام وأهله؛ كما قال الله فيهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

٢ ـ مخادعة الله ورسوله ﷺ والمؤمنين:

قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩].

المخادعة هي: الاحتيال والمراوغة بإظهار أمر جائز ليتوصل به إلى أمر محرم يبطنه،ولهذا يقال طريق خيدع إذا كان مخالفا للقصد لا يفطن له،ويقال للسراب: الخيدع؛ لأنه يخدع من يراه ويغره، وظاهره خلاف باطنه، ويقال للضب: خادع، وفي المثل: أخدع من ضب لمراوغته !

ويقال: سوق خادعة أي متلونة، وأصله: الاختفاء والستر، ومنه: المخدع في البيت.(١)

فالمنافقون يخادعون الله عز وجل أي: أنهم إنما يظهرون الإسلام، ويدَّعون الإيمان، وهذا خلاف ما في قلوبهم، ولذلك فإنهم إذا خلوا بإخوانهم من شياطين

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٦٠)

الإنس فإنهم يظهرون على حقيقتهم ويصرحون بما استبطنته قلوبهم من صريح الكفر.

فهذا الخداع في أصل الدين؛ في أصل إيمانهم عن ابن جُرَيْج، في قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ قال: يظهرون "لا إله إلا الله" يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك "(١)

وقال قتادة: نعت المنافق عند كثير: خَنِعُ الأخلاق، يصدّق بلسانه، وينكر بقلبه ويخالف بعمله، يصبح على حال، ويمسي على غيره، ويمسي على حال، ويصبح على غيره، ، ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هبَّت ريح هبّ معها"(٢).

والمنافق عقيم الجهل يظن أنه بإظهار ذلك أنه يخادع الله، ويخادع المؤمنين، ولكن الحقيقة أن الله قد طمس على قلبه وأمهله وزين له عمله الخبيث، وعاقبه بجنس عمله، قال تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ ﴾ [البقرة: ٩] " فأخبر سبحانه أن هؤلاء المخادعين مخدوعون وهم لا يشعرون بذلك، وأن الله خادع من يخادعه وأن المخدوع يكفيه الله شر من خدعه، والمخادعة هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه لتحصيل المقصود "(٣).

وقال تعالى في وصفهم ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٤٢].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٤٦).
(٢) تفسير ابن كثير [١ / ١٧٨]
(٣) بيان الدليل على بطلان التحليل (١/ ٢٨)

"ولا شك أن الله تعالى لا يُخادَعُ؛ فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم، يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجَرَت عليهم أحكامُ الشريعة ظاهرا، فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المجادلة: ١٨].

وقوله: ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ أي: هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك في يوم القيامة "(١)

قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعًا، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟

قيل: لا تمتنع العرب أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف: مخادعا، فكذلك المنافق، سمي مخادعا لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والسباء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر، مستبطن، وذلك من فعلِه -وإن كان خداعًا للمؤمنين في عاجل الدنيا-فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظْهِر لها بفعله ذلك بها أنَّه يعطيها أمنيّتها، ويُسقيها كأس سرورها، وهو موردها حياض عطبها، ومُجرّعها بها كأس عذابها، ومُزيرُها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبَلَ

(١) تفسير ابن كثير [٢ / ٤٣٧]

لها به، فذلك خديعته نفسه، ظنًا منه -مع إساءته إليها في أمر معادها-أنه إليها محسن، كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة: ٩] إعلامًا منه عِبَادَه المؤمنين أنّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسْخَاطهم عليها ربهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون"(١).

وأما مخادعة المنافقين للرسول ﷺ فبإظهار الإيمان والتصديق له مع إسرار التكذيب له والكفر به والجحود له ولسنته وشريعته، قال تعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون: ١].

ومخادعته أيضا تكون بإظهار الطاعة والموافقة له مع إسرار العقوق والمخالفة؛ قال تعالى﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء: ٨١].

ومخادعته أيضا تكون بالحلف الكاذب بين يديه وإشهاد الله على ما في قلوبهم مع استيقانهم بالكذب؛ قال تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المنافقون: ٢].

أي: يتسترون خلف أيمانهم؛ فيكذبون على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين؛ ليرضوهم وهم في الحقيقة كاذبون ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩٦].

---

(١) تفسير ابن كثير [١ / ١٧٨]

وكما يخادع المنافق ربه ورسوله ﷺ من جهة أصل الدين والإيمان، فإنه يخادعهما أيضا في جهة العمل ﴾يؤيد ذلك من الأثر ما روي، عن ابن عباس، أنه جاءه رجل فقال: إن عمي طلق امرأته ثلاثا أيحلها له رجل ؟ فقال: من يخادع الله يخدعه. رواه سعيد، و عن ابن عباس، وأنس أن كلا منهما سئل عن العينة فقال: إن الله لا يخدع، هذا مما حرم الله ورسوله، وما روي مرفوعا وموقوفا، عن عثمان، وابن عمر، وغيرهما أنهم قالوا: (لا نكاح إلا نكاح رغبة لا نكاح دُلْسَة).

وقد قال أهل السنة: المدالسة المخادعة. وقال أيوب السختياني، وناهيك به في هؤلاء المحتالين: يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان، فلو أتوا الأمر عيانا كان أهون علي.

وقال شريك بن عبد الله القاضي في كتاب الحيل هو كتاب المخادعة، وكذلك المعاهدون إذا أظهروا للرسول ﷺ أنهم يريدون سلمه ومقصودهم بذلك المكر به من حيث لا يشعر بأن يظهروا له أمانا، وهم يعتقدون أنه ليس بأمان فقد أبطنوا خلاف مقصود المعاهدة[١] وأما مخادعة المؤمنين فمخادعة من ناحية العمل؛ وصور مخادعة المنافقين للمؤمنين صورة كثيرة لا تكاد تحصى.

٣ ـ التشكك والتذبذب

قال تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(١) بيان الدليل على بطلان التحليل (١/ ٣٠)

[البقرة: ١٠] والمرض هو: الشك(١)، الذي يجعلهم لا يستقرون على حال

فالمنافقون مرضى القلوب بالشبهات والشهوات؛ فأما مرض الشبهات: فبالشك والتذبذب والتردد في دينهم؛ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد، وهم المنافقون"(٢).، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣] يعني: المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك "(٣)

ويدل على هذا المعنى أيضا حديث ابن عمر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **" مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ(٤) بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً لَا تَدْرِي أَهَذِهِ تَتْبَعُ أَمْ هَذِهِ ؟ "**(٥)

وإنما المذبذب المذموم الذي لا يكون مع المؤمنين ولا مع الكفار بل يأتي المؤمنين بوجه ويأتي الكافرين بوجه قال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

(١) وهو قول ابن عباس مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وأبو العالية، والرّبيع بن أنس، وقتادة.

(٢) تفسير ابن كثير [١ / ١٧٩]

(٣) تفسير ابن كثير [٢ / ٤٣٩]

(٤) العائرة : عارت الشاة تعير، إذا ذهبت كذا وكذا مترددة.

(٥) مسلم [٤ / ٢١٤٦رقم ٢٧٨٤]،وأحمد [٩ / ٩٩رقم ٥٠٧٩] والنسائي [٨ / ١٢٤رقم ٥٠٣٧]

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٢ – ١٤٣].

وقال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ(١) بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً**». فهؤلاء المنافقون المذبذبون هم الذين ذمهم الله ورسوله ﷺ وقال حقهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۗ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١] وقال تعالى في حقهم: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمٗا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ١٤] فهؤلاء المنافقون الذين يتولون اليهود الذين غضب الله عليهم، ما هم من اليهود ولا هم منا مثل من أظهر الإسلام من اليهود والنصارى والتتر وغيرهم وقلبه مع طائفته. فلا هو مؤمن محض ولا هو كافر ظاهرا وباطنا فهؤلاء هم المذبذبون الذين ذمهم الله ورسوله ﷺ وأوجب على عباده أن يكونوا مؤمنين لا كفارا ولا منافقين بل يحبون لله ويبغضون لله ويعطون لله ويمنعون لله. قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١] على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ – ٥٦] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١] وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي

(١) العائرة : عارت الشاة تعير، إذا ذهبت كذا وكذا مترددة.

قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢](١)

قال عبد الله ابن مسعود: مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فدفع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك. أين تذهب؟ إلى الهلكة؟ ارجع عودك على بدئك، وناداه الذي عبر: هَلُمّ إلى النجاة. فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاءه سيل فأغرقه، فالذي عبر المؤمن، والذي غرق المنافق "

فهذا وصف المنافق متذبذب متردد في إيمانه، وكلما قوي نفاقه كلما اقترب من الكفر، وكلما شفي قلبه من النفاق والتردد والتشكك كلما اقترب من النجاة كما وصف ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال تعالى:﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٥].

وكما يكون المنافق متردداً في إيمانه في الدنيا؛ فإنه يكون متردداً متذبذبًا في القبر أيضًا، في الصحيح عن أسماء في قصة الكسوف فساقت الحديث ...«**فَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ أَوْ قَرِيبَ لا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ يُقَالُ مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُوقِنُ لا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلاثًا فَيُقَالُ نَمْ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ لا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ لا أَدْرِي سَمِعْتُ**

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)

النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ»(١).

وهذا المرض قد أكثر الله عز وجل وصف المنافقين به في القرآن حيث ذكره إحدى عشرة مرة هذا أول موضع منها.

وأما مرض الشهوات: فقد استحكم في قلوب المنافقين حتى الثمالة؛ فهم أرغب الناس بطونا، وأشدهم شهوة في حرام؛ فهم غارقون في شهوات بطونهم وفروجهم، يحبون الفاحشة ويحبون ظهورها وشيوعها في المجتمع المسلم؛ فهم إلى حياة البهائم أقرب منهم إلى حياة بني آدم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

وقد ذكر تعالى هذه الآية ضمن آيات براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من الإفك الذي افتراه عليها المنافقون؛ في دلالة واضحة على خبثهم وسعيهم الحثيث في نشر الفاحشة والحرص عليها بكل سبيل.

و قال تعالى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

والمرض هنا: هو مرض الشهوة، ولا يبعد أن يكون مرض النفاق الذي يصيب صاحبه بسعار الشهوة.

٤ـ كثرة الكذب

قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ

(١) البخاري (١/ ٢٨رقم ٨٦)

﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠] المنافق كثير الكذب، جريء عليه، فهو سيء الأدب مع الله ومع رسوله ﷺ ومع المؤمنين، فهو لا يستحي أن يكذب، بل يستمرئ تغيير الحق، وقلب الحقائق، حتى يصير أكثر كلامه كذبًا ودجلاً، كما قال عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** "(١)

وأنت ترى أن أول صفة الكذب، وبقية الصفات فرع عليه، فإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة كلها راجعة إلى الكذب.

وذكر سبحانه بأنهم استباحوا الحلف باسمه تعالى كذبا وباطلا، وأنهم أحلف الناس بالله قد اتخذوا أيمانهم جنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم وهذا شأن المنافق أحلف الناس بالله كاذبا قد اتخذ يمنه جنة ووقاية يتقي بها إنكار المسلمين عليه !

قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦]

وقَالَ تعَالَىٰ:﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة: ١٤].

وقد أكذبهم جل وعلا في مواطن عدة وشهد عليهم بأنهم كاذبون وكفي بشهادته سبحانه عليهم قال تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٧].

---

(١) البخاري [١ / ١٦رقم ٣٣]، و مسلم - عبد الباقي [١ / ٧٨رقم ٥٩]

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

وأشار سبحانه إلى استخفافهم بحق اليمين بالله تعالى، وأنهم يبذلونه استرضاء للمخلوق ودفعًا عن أنفسهم اللوم والعتاب، ونسوا الخالق العظيم سبحانه ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

وإذا استحكم النفاق في القلب تبعه اللسان ملتويًا؛ فلا يكاد يصدق في شيء، حتى يكذب في أصل إيمانه؛ كما قال جل ذكره في شأنهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

وعن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ لأَصْحَابِهِ: لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ قَالُوا: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوا شِدَّةٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقِي فِي **(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ)** فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ"

وإذا أكثر العبد من الكذب كتب عند الله في ديوان الكذابين عياذا بالله تعالى فعن ابن مسعود قال قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ**

كَذَّابًا ».

وقال أحد المنافقين يدعى جُلَاس: لَئِنْ كَانَ هَذَا الرّجُلُ صَادِقًا لَنَحْنُ شَرّ مِنْ الْحُمُرِ !

فَقَالَ لَهُ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ: وَاَللّهِ يَا جُلَاسُ إنّك لَأَحَبّ النّاسِ إلَيّ وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي يَدًا، وَأَعَزّهُمْ عَلَيّ أَنْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ وَلَقَدْ قُلْت مَقَالَةً لَئِنْ رَفَعْتهَا عَلَيْك لَأَفْضَحَنّكَ وَلَئِنْ صَمَتّ عَلَيْهَا لَيَهْلِكَنّ دِينِي، وَلَإِحْدَاهُمَا أَيْسَرُ عَلَيّ مِنْ الْأُخْرَى. ثُمّ مَشَى إلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ جُلَاسٌ فَحَلَفَ جُلَاسٌ بِاَللّهِ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ لَقَدْ كَذَبَ عَلَيّ عُمَيْرٌ وَمَا قُلْت مَا قَالَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ. فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ فِيه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة: ٧٤][1].

والمنافق لا يستحي من الكذب؛ فلا تعجب أن ترى الكذب مستفحشًا في صاحب منصب رفيع أو وزير أو رئيس: لا تعجب أن تراه كذابا يكذب على شعبه ووطنه؛ فالكذب بضاعته وديدنه؛ فلا احترام لمكانته الاجتماعية ولا لمنصبه ولا لوزارته؛ ولذا فهؤلاء من أبعد الناس عن رحمة الله تعالى وعن نظره فعن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:« **ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ** ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ

(١) الروض الأنف (٢/ ٣٧٦)

٥ ـ الإفساد في الأرض:

قال تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة: ١١].

الإفساد في الأرض: العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنه، وتضييعُ ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد، كما قال جل ثناؤه في كتابه مخبراً عن قِيلِ ملائكته: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠].

يعنون بذلك: أتجعل في الأرض من يَعْصِيكَ ويُخالف أمرك؟ فكذلك صفة أهل النفاق: مُفسدون في الأرض بمعصِيَتهم فيها ربَّهم، وركوبهم فيها ما نَهاهم عن ركوبه، وتضييعِهم فرائضَه، وشكِّهم في دين الله الذي لا يقبَلُ من أحدٍ عملا إلا بالتَّصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبِهم المؤمنين بدَعواهم غير ما هم عليه مقيمُون من الشّك والرَيب، وبمظاهرتهم أهلَ التكذيب بالله وكُتُبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا. فذلك إفساد المنافقين في أرض الله، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها. "(١)

عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال: يعني: لا تعصُوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطَّاعة.وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة.

---

(١) تفسير الطبري [١ / ٢٨٩]

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: إذا ركبوا معصية الله، فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى، مصلحون"(١).

وقد نهى تعالى عن الإفساد في الأرض فقال تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

والنهي عن الإفساد في الأرض هي دعوى الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين في كل زمان؛ قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام وهو يحذر قومه : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

إن دعوة الرسل جميعًا جاءت لهذا المقصد العظيم إصلاح الأرض وعدم الإفساد فيها بالمعاصي والشرك وارتكاب الفواحش والموبقات قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا، بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ،**

(١) تفسير ابن كثير [١ / ١٨٠]

وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ "(١)

وعنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:« **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ** »(٢).

ورغم هذه التوجيهات الإلهية والتشديدات الشرعية في كل الأديان وعلى لسان كل الأنبياء إلا أن المنافق لا يسمع ذلك ولا يطيع؛ بل هو ساعٍ سعيًا حثيثًا في الإفساد في الأرض، ضاربًا بكل هذه الآيات عرض الحائط ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

٦، ٧ ـ الكبر والتعالي وازدراء المؤمنين:

قال تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣].

والكبر هو: بطر الحق، وغمط الناس. أي: رد الحق ودحضه والصد عنه وعدم قبوله، واحتقار الناس وازدراؤهم والاستهزاء بهم؛ لما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يدْخُلُ الجنةَ مَنّ كان في قلبه مثقالُ حبَّة من كِبْر، فقال رجل: إنَّ الرجلَ يحب أن يكون ثوبُه حَسَنا، ونعلُه حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبرْ: بطَرُ الحقِّ، وغمطُ الناس**».

---

(١) ابن ماجه (٢/ ١٣٣٢رقم ٤٠١٩) .

(٢) أبو داود (٣/ ٢٩١رقم ٣٤٦٤)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣١٦رقم: ١١٠١٧)

والكبر من أعظم الكبائر كما ذكر ذلك الذهبي والهيتمي لما عند أبي داود من حديث عبد الله بن مسعود قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ**».

فالمنافقون مستكبرون قد ملأ الكبر قلوبهم فإنهم إذا قيل لهم :" ﴿ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنَّة والنَّار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ ﴾ يعنون -لعنهم الله-أصحابَ رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم، قاله أبو العالية والسدي في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!!

والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم [والحلماء جمع حليم] والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرّأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى:﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء السلف: هم النساء والصبيان.

وقد تولى الله، سبحانه، جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم.

﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ ﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم

في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى "(١).

وهذه الدعوى دعوى ازدراء المؤمنين والتعالي عليهم واحتقارهم هي شأن كل الكفار مع الرسل وأتباعهم

كما قال قوم نوح عليه السلام له: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧]

وقال تعالى في جواب قوم صالح له : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٥].

وقال تعالى في جواب قوم شعيب عليه السلام له: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨]

وقال تعالى حكاية على لسان المشركين الذين استنكروا نزول القرآن والرسالة على النبي وكانوا يتمنون أن تكون في ساداتهم وكبرائهم ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف: ٣١].

يعنون بالرجل: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي.

وبالقريتين: مكة والطائف. وذلك لأنهم -قبحهم الله -كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا، كما قال

(١) تفسير ابن كثير [١ / ١٨١]

تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦] وقال تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠]. هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه. وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: "الأمين"(١).

وقد سخروا من أصحابه ﷺ ونابذوهم بالألقاب والشتم: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

والاستكبار عن قبول الحق من علامات أصحاب النار ففي حديث حارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **"أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مَتَضَعَّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ"** أخرجه البخاري

٨ ـ الاستهزاء بدين الله ورسوله ﷺ والمؤمنين:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤ - ١٥]

الاستهزاء: هو السخرية والاستخفاف؛ فهم لسخفهم يستهزؤن بأصحاب

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٢)

النبي ﷺ؛ بإظهار الإيمان لهم وهم في الحقيقة على غير ذلك، وهم في ذلك يرون أنفسهم أفضل من المؤمنين؛

يقول السفاريني: «المستهزئ بغيره يرى فضل نفسه بعين الرضا عنها، ويرى نقص غيره بعين الاحتقار، إذ لو لم يحتقر غيره لما سخر منه»(١).

وقال تعالى:﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [التوبة:٦٤-٦٥]

والاستهزاء بآيات الله تعالى أو برسول الله ﷺ أو بشيء مما جاء به كفر كما في الآية الكريمة.

يقول ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من سبَّ الله – تعالى – كفر سواء مازحًا أو جاداً، وكذلك من استهزأ بالله – تعالى – أو بآياته أو برسله أو كتبه(٢).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن عمد واستهزاء بالدين صريح (٣).

ونقل القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن القاضي ابن العربي – وهو يشرح موقف المستهزئين في غزوة تبوك – قوله**: لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جاداً أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر، فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة، فإن

---

(١) غذاء الألباب (١/ ١٣١)
(٢) المغني :(١٢/ ٢٩٨، ٢٩٩) دار هجر .
(٣) روضة الطالبين (١٠/ ٦٤) المكتب الإسلامي .

التحقيق أخو العلم والحق، والهزل أخو الباطل والجهل ﴾[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ﷺ كفر، يكفر به صاحبه بعد إيمانه[٢].

فمن الاستهزاء بالله تعالى[٣]:

يقول عبد العزيز المقالح: (صار الله رماداً، صمتاً رعباً في كف الجلادين. حقلاً ينبت سبحات وعمائم بين الرب ، الأغنية الثروة والرب القادم من هوليوود، كان الله قديماً حباً، وكان نهاراً في الليل أغنية تغسل بالأمطار الخضراء تجاعيد الأرض).

قول عبد الوهاب البياتي: (الله في مدينتي يبيعه اليهود، الله في مدينتي مشرد طريد، أراده الغزاة أن يكون لهم أجيراً شاعراً قواداً، يخدع في قيثارة المذهب العباد لكنه أصيب بالجنون، لأنه أراد أن يصون زنابق الحقول من جرادهم أراد أن يكون..)

ويقول بدر شاكر السياب: (فنحن جميعاً أموات. أنا ومحمد والله وهذا قبرنا أنقاض مئذنة معفرة، عليها يكتب اسم محمد والله). **ثم يقول**: (وإن الله باق في قرانا ما قتلناه، ولا من جوعنا يوماً أكلناه)

ويقول المأفون المفتون: نزار قباني في قصيدة (أصهار الله):

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٩٧).
(٢) مجموع الفتاوي(٧/ ٢٧٣)
(٣) الاستهزاء بالدين وأهله (ص١٨ ومابعدها) بتصرف واختصار .

(وهل غلاء الفول والحمص والطرشي والجرجير شأن من شؤون الله ؟!!).

(ياإلهي... إن تكن ربـًا حقيقيـًا فدعنا عاشقينا).

ويقول محمود درويش: (نامي فعين الله نائمة عنا وأسراب الشحارير).

ولا شك أن هذا كله داخل في الاستهزاء المخرج من الملة عياذا بالله تعالى !

كـم شـاعر جعـلَ الإلحـادَ منهجَـه تواثبـوا نحـوَه بالشـوق واعتنقـوا
سـاروا وفي دربهـم وحـلٌ فـإن وقفـوا غاصـوا وإن حرَّكـوا أقـدامَهم زَلقـوا
أبنـاءُ جلـدتنا لكـنهم هجـرُوا وأهـلُ ملتنِـا لكـنهم مَرقُـوا(١)

وأما استهزاء المنافقين بالرسول ﷺ فكثير جداً ومن ذلك: استهزاؤهم به وبأصحابه في غزوة تبوك وكذا ما قاله زيد بن اللُّصيت - وكان منافقـًا حين ضلّت ناقة النبي ﷺ فجعل يبحث عنها فقال هذا المنافق : أليس يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ؟ فقال رسول الله ﷺ: إن رجلاً يقول وذكر مقالته، وإني والله لا أعلم إلا ماعلمني الله، وقد دلني الله عليها، هي في الوادي في شِعْب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها فذهبوا فأتوه بها.

ومن صور الاستهزاء برسول الله ﷺ ما رسمه صلاح جاهين رسام الكاريكاتير المعروف حيث صور صورة هزلية في جريدة الأهرام رسم فيها رجلاً بدويـًا يرمز به إلى رسول الله ﷺ يركب حماراً في وضع مقلوب ليكون

(١) من قصيدة " جولة مع جواد الشعر " لعبد الرحمن العشماوي

رمزاً للرجعية، وفي أرضية الصورة ديك وتسع دجاجات وعنوان الرسم محمد أفندي جوز التسعة !

ومن استهزائهم بالمؤمنين فشيء لا يحصى ومن ذلك: التحقير والتقليل من عملهم ولمزهم بالباطل؛ قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾ [التوبة: ٧٩].

وعن أبي مسعود قال: لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخَرُ إِلَّا رِئَاءً فَنَزَلَتْ:﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ .... ﴾ الْآيَةَ(١)

ومن ذلك استهزاؤهم أيضا بالصحابة في غزوة تبوك فعن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ما رأيت مثل قُرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبتَ، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تَنكُبُه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله ﷺ، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول:﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

ولا يزال المنافقون من الروافض والحداثيين والعقلانيين في زماننا

(١) البخاري (٦/ ٦٧رقم ٤٦٦٨)، مسلم (٢/ ٧٠٦رقم ١٠١٨)

يسخرون من أصحاب النبي ﷺ وعلى رأسهم: أبو بكر وعمر وعثمان وأبو هريرة وغيرهم من الصحابة الكرام.

وأما الاستهزاء بشعائر الله وحدوده وشريعته: فهو بضاعة المنافقين أيضا في كل الأزمان خاصة في العصر الحديث الذي نعيشه والذي عجَّ بفئام من المنافقين الخُلَّص في كل المؤسسات والصحف والفضائيات والوزارات؛ وخاصة في عالم الفن الذي أصبح مرتعاً عفناً تسرح فيه ديدان الساخرين المستهزئين من الممثلين والممثلات وكاتبو السيناريوهات ومؤلفو الأغاني، وأيضاً في عالم الأدب وعلى لسان المثقفين ـ زعموا ـ (**تقول أمينة السعيد**: عجبت لفتيات مثقفات يلبسن أكفان الموتى وهنَّ على قيد الحياة)

ويقول العلماني الحداثي أحمد عبد المعطي حجازي: إن للسفور مساوئ لكنها أقل – قطعاً – من مساوئ الحجاب والنقاب، وشبيه بمن يدعونا للعودة إلى الحجاب من يدعونا للعودة إلى ركوب النياق والحمير والبغال هذه هي عقلية عصور الانحطاط.

أما الحداثي محمد جبر الحربي، والمشهور بدفاعه عن أم جميل زوجة أبي لهب فاستمع إليه وهو يقول: (والنساء سواسية منذ تبت، وحتى ظهور القناع تشترى لتباع، وتباع، وثانية تشترى لتباع).

ومن السخرية بأحكام الشرع ما ذكره محمد الغزالي ضمن سخرياته وهزلياته الكثيرة – حيث قال: (إن أهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل، وهذه سَوْأَةٌ فكرية وخُلُقِيَّةٌ رفضها الفقهاء المحققون).

ولقد غاب عن ذهن هذا المستهزئ أن هذه المسألة من مسائل الإجماع بين

الأمة كما حكاه الحافظ ابن المنذر وغيره من أهل العلم.

وكذا السخرية باللحية وتكاد تكون هذه المسألة من أكثر المسائل استهزاء من الهازلين الحاقدين، ومن أكثر المسائل التي ابتلي بالسخرية فيها جمع من شباب الصحوة الإسلامية، ولطالما سمعنا هذه الكلمة الجائرة التي تقول: لو كان في اللحية خير ما نبتت في الفَرْج !!!

ومن صور الاستهزاء بأحكام الله - تعالى - مسألة السخرية من تعدد الزوجات."(١).

٩ ـ هوان الآخرة على المنافق، واحتقاره للهدى:

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦]

أي: أن المنافقين " بذلوا الهدى ثمنا للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون: ٣] أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ أي: راشدين في صنيعهم ذلك"(٢).

وهذا حال المنافق دائما الاستخفاف بأمر الهداية، التي هي من أعظم النعم

---

(١) السابق (ص: ٢٥)

(٢) تفسير ابن كثير [١ / ١٨٥]

على المسلم، والتي أُمر المسلم أن يسألها الله في كل ركعة من ركعات صلاته، بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] ولكن المنافق لهوان الآخرة عليه يبذل هذه النعمة لأي فتنة تعرض عليه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" **بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا قَلِيلٍ** "

والهداية إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ينبغي أن تكون نصب عين المسلم الصادق؛ أسوة بالنبي ﷺ الذي كان يسأل ربه الهداية دائما، حتى عند قيامه للصلاة بالليل، فكان دعاء استفتاحه للصلاة سؤال الهداية فعن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف قال: سألت عائشة رضي الله عنها: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَفْتَتِحُ الصَّلاَةَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَتِحُ صَلاَتَهُ:«**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِى لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

١٠ و١١و١٢ ـ الصمم والبكم والعمى

قال تعالى:﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ ﴾ [البقرة: ١٨].

وهذا وصف للمنافقين الخلص فهم ﴿ صُمٌّ ﴾ أي: عن سماع الخير، ﴿ بُكۡمٌ ﴾ أي: عن النطق به، ﴿ عُمۡيٞ ﴾ عن رؤية الحق، ﴿ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ ﴾؛ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٨٥رقم ٧٧٠)، وأحمد (٦/ ١٥٦رقم ٢٥٢٢٥) .

وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعا منهم.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣]

قال ابن جرير في قوله ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾: هم المشركون. وقال ابن اسحاق: : هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

قلت: واختيار ابن اسحاق هو المناسب لسياق الآيات؛ لعدة قرائن منها: أن هذه الآية يسبقها قول الله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٠] فالمؤمنون هم المخاطبون المعنيون بالأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ولما كان المنافقون مندسين داخل صفوف المؤمنين فيظهرون الطاعة ويبطنون الخلف والمعصية والشقاق؛ نهى الله المؤمنين عن اتباع سبيلهم ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ **ومنها**: أن جملة ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ جملة حالية، والمعنى: لا تنصرفوا معرضين عنه حال سماعكم أمره لكم، وهذا لا يكون إلا في المنافقين. **ومنها**: قوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ فـ «السمع الذي نفاه اللّه عنهم، سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة اللّه تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع؛ لأنه لم يعلم فيهم خيرا

يصلحون به لسماع آياته»(١).

وهذا النوع من السماع لم ينتف عنهم لأنهم لم يسمعوا القرآن أصلا كما هو حال الكفار، إنما انتفى عنهم لفساد قلوبهم؛ إذ قد طبع الله عليها فلا يفقهون الوحي ولا يفهمون عنه ولا ينتفعون به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦].

١٣ ـ الاعتراض على أحكام الله وشرعه وعدم القبول لها:

قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٢ – ١٤٣].

" أخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس، مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف – لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَآ﴾ وهي استقبال بيت

(١) تفسير السعدي (ص: ٣١٨)

المقدس، أي: أيُّ شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه، وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه، قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم؛ إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفيه، ولا يلقي له ذهنه. ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله، إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول، والانقياد، والتسليم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١] وقد كان في قوله ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ما يغني عن ردِّ قولهم، وعدم المبالاة به،ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض "(١)

ولم تكن واقعة تحويل القبلة إلا واحدة من تلك الأغلوطات والأراجيف والتناقضات التي يتقعر بها المنافقون، وينشرونها كالفقاقيع الفارغة، والتي يخفون وراءها اعتراضهم وتسخطهم وعدم انقيادهم لأمر الله تعالى؛ فهذه من علامات النفاق: الطعن والقدح في الشرع حتى لا يطالبون بتطبيقه !

ومعلوم أن الاستسلام والانقياد والإذعان لأمر الله الشرعي شرط من

(١) تفسير السعدي [ص ٧٠]

شروط شهادة التوحيد، وأن من فقده ولم يحصله؛ فإنه بذلك لم يدخل في زمرة المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٦].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١].

١٤ ـ عدم الانقياد للأوامر الشرعية وترك العمل بها:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النور: ٤٧].

لا شك أن عدم الانقياد للأوامر الشرعية نتيجة حتمية لعدم قبول المنافق لحكم الله تعالى، فالمنافق لم يرفع لحكم الله رأسًا، ومن ثم لا يكون منه العمل التابع للقبول والاستسلام، ولذلك فإن الله تعالى أخبر أن المنافقين لن يقدموا طاعة ولا موافقة وإن أقسموا واجتهدوا في بذل الأيمان على السمع والطاعة، كل ذلك لأنهم لم يستسلموا ابتداءً ولم يقبلوا شرع الله تعالى؛ فالانقياد تابع وفرع القبول

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النور: ٥٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد: ٢١].

وفي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»(١)

١٥ ـ المنافقُ ألدُّ خصمٌ

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾(٢) [البقرة: ٢٠٤].

والألد: هو المعوج، ومنه قوله تعالى:" ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧]، أي: قوما عِوَجا عن الحق

والخصام: الخصومة، والمنازعة، والمنافق شديد العداوة والخصومة،

وهذا النوع من الناس هم أبغض الخلق إلى الله تعالى؛ ففي حديث عائشة،

---

(١) البخاري (١/ ٢٧رقم ٧٩)، و مسلم (٧/ ٦٣رقم ٦٠٩٣)، و أحمد (٣٢/ ٣٤٣رقم ١٩٥٧٣)

(٢) " قال السدي: نزلت في الأخنس بن شَرِيق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك. وعن ابن عباس: أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خُبَيب وأصحابه الذين قتلوا بالرّجيع وعابُوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خُبَيب وأصحابه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ ﴾
وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة، ومجاهد، والرّبيع ابن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح." اهـ من تفسير ابن كثير [١ / ٥٦٢]

عن النبي ﷺ قال: **"إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ"**(١)

فهو يجادل عن نفسه بالباطل وفيه لَدَدٌ: أي ميل واعوجاج عن الحق وهذا **على نوعين:**

أحدهما: أن تكون مجادلته وذبه عن نفسه مع الناس.

و **الثاني**: فيما بينه وبين ربه بحيث يقيم أعذار نفسه ويظنها محقة وقصدها حسنا وهي خائنة ظالمة لها أهواء خفية قد كتمتها،حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر، قال شداد بن أوس: إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية، قال أبو داود: هي حب الرياسة. وهذا من شأن النفس حتى إنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المجادلة: ١٨ - ١٩].

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٢١ - ٢٤]. وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعماله يوم القيامة حتى يشهد عليه سمعه وبصره وجوارحه. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٢].

---

(١) البخاري برقم (٤٥٢٣)

ومن عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب والأيمان الفاجرة وصفهم الله بذلك في غير موضع. وفي قصة تبوك لما رجع النبي ﷺ وجاء المنافقون يعتذرون إليه فجعل يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله فلما جاء كعب قال: والله يا رسول الله ﷺ لو قعدت بين يدي ملك من ملوك الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه: إني أوتيت جدلا؛ ولكن أخاف إن حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي؛ ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال النبي ﷺ (١) و في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -**"أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا؛ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهذه الصفة عامة في المنافقين شدة الخصومة وعدم قبول العذر، وبعدهم عن العفو والصفح، كل ذلك بسبب قسوة قلوبهم، وما امتلأت به من سوء الظن بالمؤمنين.

لكن المؤمن هين سهل لين، كما عند أحمد والترمذي من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **"حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنْ النَّاسِ "**(٢)

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٤٥)
(٢) أحمد - الرسالة [٧ / ٥٢]

١٦ ـ شدة عداوتهم وبغضهم للمؤمنين

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٨ – ١٢٠]

يقول تبارك وتعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يُطْلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خَبَالا أي: يَسْعَوْنَ في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُعْنتُ المؤمنين ويخرجهم ويَشُقّ عليهم.

وقوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخل أمره.

ثم قال تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أي: قد لاح على صَفَحات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أي: أنتم –أيها المؤمنون–تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم

على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنـًا ولا ظاهراً ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا رَيْب، وهم عندهم الشك والرِّيَب والحِيرة.

وقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ ﴾

وهذا شأن المنافقين يُظْهِرون للمؤمنين الإيمانَ والمودّة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ أي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله مُتمّ نعمته على عباده المؤمنين ومُكَملٌ دينه، ومُعْلٍ كلمتَه ومظهر دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتُكنُّه سَرَائرُكُم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

ثم قال: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ ﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَة -أي: جَدْب-أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فَرح المنافقون بذلك ﴾[1].

إن هذه الفئة الباغية قد امتلأت صدروها حقداً وحسداً على المجتمع

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٦ ـ ١٠٩) باختصار .

المسلم، فهي لا تحب له الخير والسعادة والرخاء والأمن؛ بل إن حصل من ذلك شيء للفئة المؤمنة فإن ذلك يسؤوها وينغص عليها العيش ويضيق عليها الأرض بما رحبت، إنها فئة خبيثة مريضة القلب، قد احترقت قلوبها من شدة الغيظ وطاشت عقولها وأحلامها؛ فهي لفرط آلامها لا تجد شيئا تفرغ فيه ما بدواخلها من شدة الغيظ والكرب من عض الأنامل وقضم الأصابع !

و مـــا أودعـــت أحشـــاء الليـــالي أضـــر عليـــك مـــن حقـــد الرجـــال !

إنها تعيش بين الفئة المؤمنة تأكل من خيرها وتنعم بأمنها وتتساوى معها في كل حقوقها، لكنها كالحيات والأفاعي ناعمة الملمس قاتلة السم، تدخر لمجتمعها كل خبيث وتبطن له كل شر، حتى إذا حانت لحظة ضعف أو غفلة؛ سارعت في نفث سمها، ونشر شرها، لا ترى في الوجود عدواً لها سوى الفئة المؤمنة، فما أبشع وأسوى وأخبث هذه الفئة، وهذه النار المحرقة الملتهبة في قلب هذه الفئة لا تخبأ أبداً، فهي تجدد اصطلامها واشتعالها مع أول وأدنى حسنة تصيب المجتمع المؤمن، فظاهر هذه الفئة اللحم والبشرة، وفي بواطنها براكين الغيظ والغضب التي تغلي وتفور، حتى تخرج يومـاً ما من فوهة ضعف أو غفلة أو خيانة؛ لتتشفى من الفئة المؤمنة، فهي ساعية في إيذائها سعي الملتهب جوفه المحترق عليه جلده يريد الراحة والبرد والسلام، فهناؤها وسعادتها وراحتها في إيذاء الطائفة المؤمنة وتعنيتها وتنغيص عيشها والتضييق عليها، وهذا المعنى كله وأكثر منه تلخص هذه الكلمة :﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾(١)

(١) قد ذكرت طرفـاً من جرائم المنافقين عبر العصور وشدة إيذائهم وعداوتهم للمؤمنين في فصل : " جرائم المنافقين ".

فما أبأس المجتمع المؤمن إذا كثُر المنافقون فيه، وما أذله إذا ترأسه منافقوه، وما أفقره إذا أُترف منافقوه، وما أحزنه إذا فرح منافقوه، وما أضيقه إذا توسع منافقوه، فهم سرطان المجتمعات، وصديد الجراحات، وأفاعي الظلمات، وحنظلة الأحباب، وتمرة الأعداء، وخونة الأوطان، وهذه المعاني وأكثر منها تختبئ تحت قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾

١٧ ـ بغض الجهاد والتباطؤ عنه وتخذيل المؤمنين عنه

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥ – ١٦٨]

يعني بذلك عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المنافقين حين رجع بثلث الجيش يوم أحد؛ متعللاً بأنه ليس ثمة قتال أو لقاء، وفي الحقيقة إنما رجعوا جبناً وخوفاً وهلعاً وحرصاً على حياتهم وبغضاً للجهاد. وثمة علة أخرى للرجوع: " فلا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معني. ولو كان هذا هو السبب لا نعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد ـ في ذلك الظرف الدقيق ـ أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأي ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ، وتنهار معنويات من يبقي معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق

وأصحابه.

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان ـ بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج ـ أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعدما سري فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالي: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٢]"(١).

وقال تعالى:﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [النساء: ٧٢ – ٧٣]

المنافق أجبن الناس قلبًا، فهو يحب الدنيا والبقاء فيها، " وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين، وقال مقاتل بن حيان: ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ أي: ليتخلفن عن الجهاد.

ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطِّئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبي بن سلول –قبحه الله–يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويُثَبِّط الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جُرَيْج وابن جَرِيرٍ؛ ولهذا قال تعالى إخبارا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ أي: قتل وشهادة وغلب العدو لكم، لما لله في ذلك من الحكمة ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد

(١) الرحيق المختوم [ص ٢١٨]

ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل.

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: نصر وظفر وغنيمة ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ أي: كأنه ليس من أهل دينكم ﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ أي: بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده"(١).

قلت: وهذا حال المنافق دائما؛ في حال وقوع الحرب واللقاء وحضور الجهاد تجده أجبن الناس وأخوفهم، كأن روحه تسحب من جسده ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وإذا نادى مناد الجهاد والدفاع عن الحرمات والأعراض والممتلكات: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [محمد: ٢٠].

وأما إذا ذهب الخوف والجهاد وجاء الأمن والغنائم والسلام فأشد الناس ألسنة وإلحاحًا وحرصًا على المصالح والمنافع والمال والوظائف القيادية والمراكز السيادية والعلاوات والحوافز: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر:

أفي السّلم أعيارًا جفاءً وَغلْظَةً وَفي الحَرْب أشباهُ النّسَاءِ العَوارِكِ

(١) تفسير ابن كثير [٢ / ٣٥٧]

وقال آخر:

أَسَــدٌ علــيَّ وفي الحــروبِ نَعامــةٌ ربــداءُ تَجْفَــلُ مــن صَــفير الصــافر
هــلاّ بَــرزتَ إلــى غَزالــة في الــوغَى بــل كــان قَلبــك في جَنــاحَيْ طَــائرِ

وقال تعالى عنهم: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة: ٤٧].

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جبناء مخذولون، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم.

وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين."(١)

وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [التوبة: ٥٦ – ٥٧].

(١) تفسير ابن كثير [٤ / ١٦٠]

يخبر الله تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم (يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ) يمينًا مؤكدة، ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أي: في نفس الأمر، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا ﴾ أي: حصنا يتحصنون به، وحرزا يحترزون به، ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ وهي التي في الجبال، ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ وهو السَّرَب في الأرض والنفَق. قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿ لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغَمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزّ ونصر ورفعة [١] وقال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧] وهؤلاء المعتذرون الذين يخشون ويخافون الجهاد منافقون قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد: ٢٠ – ٢١] فالمنافق جبان القلب، غير شجاع، وهذه من أحط صفاتهم، ويكفي وصف جبنهم وحالهم قول الله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [المنافقون: ٤] فما يحدث في المجتمع من نازلة أو كائنة أو حادثة إلا وترتجف قلوبهم وترتعد خوفًا وهلعًا وذعراً؛ لخوفهم أن تتكشف حقائقهم وتبدوا

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٦٣)

عوراتهم وتظهر سوآتهم؛ لذا قال بعدها:

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: هم العدو على الحقيقة؛ فعداوتهم غير واضحة.

❑ أعذار المنافقين في التخلف عن الجهاد :

ذكر الله عز وجل كثيراً من اعتذارات وحجج المنافقين في ترك الجهاد والتخلف عنه، وفي كل مرة يفند هذه الأعذار، ويبطل تلك الحجج، ويبين أنها فارغة كاذبة باهتة غير معتبرة شرعـًا، ومن هذه الأعذار:

أ ـ أنهم يتشككون في حدوث القتال؛ فإنهم ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾

ب ـ أن الحرب ليست في صالحهم وأنها لا تعنيهم في شيء؛ ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤]

ت ـ خوف الفتنة من نساء الأعاجم؛ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩]

ج ـ إدعاء أن بيوتهم عورة أي مكشوفة لا حارس لها؛ ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٣]

د ـ التعلل بالحر الشديد: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١]

ذ ـ الانشغال بالأموال وحاجة الأهل والعيال: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾ [الفتح: ١١].

ر ـ عدم اتخاذ العدة والزاد للجهاد ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦]

والخلاصة: أن المنافق لا يصلح لقتال أو جهاد، ولا يصلح لنصرة أمة ولا لرفع راية أو رد حق أو جهاد عدو أو دفاع عن أرض أو عرض أو مال؛ إنما يصلح لذلك المؤمنون من رجال هذه الأمة قال الشاعر:

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعةٍ وثريد

ولما هجا الحطيئة الزبرقان بن عمرو بقوله:

لا ترحل لنيل المكارم وبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

سأل عمر حسان:هل هجاه ؟

فقال: يا أمير المؤمنين بل سحل[١] عليه!

أما المؤمنون فإنهم من أشجع الناس قلوبا؛ لأنهم توكلوا على الله فكفاهم شر ما أهمهم كما قال الله: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة: ٥٢] انظر للمؤمنين يوم يقتل بين يدي رسول الله عشراً ﷺ دفاعًا

(١) أي : بال عليه

عنه، ثم يقوم طلحة يقاتل قتال العشرة بين يديه ﷺ.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن زيد بن ثابت قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك ؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأصبته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم. فقلت له يا سعد: إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام. ويقول لك: خبرني كيف تجدك قال على رسول الله السلام، وعليك السلام قل له : يا رسول الله ﷺ أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار لا عذر لكم عند الله أن يُخلَص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شَفَرٌ يطرف.

قال : وفاضت نفسه رضي الله عنه.

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسمك فوق هامات النجوم مناراً
كنا جبالاً في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحاراً
بمعابد الإفرنج كان آذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لن تنس إفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا لم نخش يوما غاشما جبارا
لم نخش طاغوتا يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا
ندعوا جهارا لا إله سوى الذي خلق الوجود وقدر الأقدارا
ورؤوسنا يارب فوق أكفنا نرجوا ثوابك مغنما وجوارا
كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا

لو كان غير المسلمين لحازاها كنزا وصاغها الحلي والدينارا»

١٧ ـ التحاكم إلى الطاغوت ومحاربة ونبذ شريعة الله تعالى(١):

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠ – ٦١] "الطاغوت": الشيطان.

وهكذا روي عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، والضحاك، والسدي.

هذا إنكار من الله، عز وجل، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية(٢). وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب

---

(١) وقضية الحاكمية من أكبر القضايا التي يمانع فيها ويعترض عليها المنافقون في كل الدول الإسلامية في عصرنا الحديث ؛ ومن ثم سيأتي مزيد بيان لهذه القضية وما يقوم به فئام المنافقين للصد عنها ومحاربتها بكل سبيل وبكل قوة .

(٢) السيرة النبوية (٣/ ٥٩)قال ابن هشام : كان جلاس بن سويد بن صامت قبل توبته فيما بلغني ومعتب بن قشير ورافع بن زيد وبشر وكانوا يدعون بالإسلام فدعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ فدعوهم إلى الكهان حكام أهل الجاهلية فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ الآية

والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهم من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾

وقوله: ﴿ عَنكَ صُدُودًا ﴾ أي: يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان: ٢١] هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١]

وقال تعالى عنهم أيضا: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور: ٤٧ - ٥٠]

ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليك في ذلك "[1]

١٨ ـ استخفاف المنافق بشأن التوبة والاستغفار

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ

(١) تفسير ابن كثير [٢ / ٣٤٦]

أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:٦٤]

فهذا حال المنافقين لا يبالون بالتوبة ولا باستغفار رسول الله ﷺ حال حياته لهم؛ بل هم مشغلون عنه محقرون لدعائه واستغفاره كما قال تعالى في شأنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٥]

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ فَإِنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُنَا خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ ثُمَّ تَتَامَّ النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ"**. فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **"وَاللهِ لَأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ. قَالَ وَكَانَ رَجُلٌ يَنْشُدُ ضَالَّةً لَهُ "**(١).

وقيل لعبدالله بن أبي: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال المنافق: « والله ما أبغي أن يستغفر لي »(٢)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ مِثْلَ ذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَذَبَّهُ عَنْهُ»(٣)

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٤٤رقم ٢٧٨٠) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٨٣ رقم ٦٩٨٤)
(٢) البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٩١ رقم ١٢١٧) .
(٣) النسائي في الكبرى (رقم ١١٨٤٦)، وأبو يعلى (٩/ ١٠٨رقم ٥١٧٧)

وقال تعالى عنهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: ١٢٦]

فالمنافق مصرٌّ على ذنبه، غير نادم أو عازم على توبة منه، فهو ظالم لنفسه بالذنوب والخطايا والنفاق، غير مطهر لها بالتوبة، قد فاته سبب من أعظم أسباب الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، ومن أعظم أسباب سعادة الدارين؛ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]

والتوبة وظيفة العمر؛ فقد كان لرسول الله ﷺ ورد بالليل من الصلاة والذكر والقيام والتفكر، وورد بالنهار من التوبة والاستغفار فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفرُ الله وأَتوبُ إليه في اليومِ سَبعينَ مَرة**».**وفي رواية: «أكثرَ مِن سبعين مرةٍ»** أخرجه البخاري.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال: «كان يُعَدُّ لرسولِ الله ﷺ في المجلس الواحد – قبل أنْ يَقُومَ – مائةُ مرَّةٍ: ربِّ اغْفِر لي وتُب عَليَّ، إنك أَنت التَّوَّابُ الغَفورُ».أخرجه الترمذي.

وعند أبي داود: «التَّوابُ الرَّحيم».

وعن أبي موسى الأشعري قَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ جُلُوسٌ، فَقَالَ: مَا أَصْبَحْت غَدَاةً قَطُّ إِلاَّ اسْتَغْفَرْت اللهَ فِيهَا مِئَةَ مَرَّةٍ (١) بل إنه كان يقول ﷺ : «**إِنه لَيُغَانُ على قَلبي (٢)، حتى أَستَغفِر الله في اليومِ مائةَ مرة**»

---

(١)النسائي في الكبرى (٦/ ١١٥رقم ١٠٢٠٢) .

(٢) ليغان على قلبي : أي : ليغطى ويغشى، والمراد به : السهو، لأنه كان ﷺ لا يزال في =

وفي رواية أَبي داود: «إِنَّهُ لَيُغَانُ على قلبي، وإِني لأَسْتَغْفِرُ اللهَ في كُلِّ يومٍ مِائَة مَرَّة».

وقال تعالى في وصف عباده المتقين:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

١٩ ـ إظهار الطاعة والموافقة مع إبطان المعصية والمخالفة:

قال تعالى عنهم :﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء: ٨١].

وقال:﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور: ٥٣] وقال:﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد: ٢١].

" يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ ﴾ أي: خرجوا وتواروا عنك ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ أي: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه. فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أي: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين، الذين هم موكلون بالعباد. يعلمون ما يفعلون. والمعنى في هذا التهديد، أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما

=

مزيد من الذكر والقربة ودوام المراقبة، فإذا سها عن شيء منها في بعض الأوقات، أو نسي، عده ذنبا على نفسه ففزع إلى الاستغفار.

يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك. كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النور: ٤٧] "(١).

إن المسلم الحق ما ينبغي له أن يتخلف عن طاعة الله ورسوله ﷺ؛ لأنه يعلم أن حياة قلبه وسعادته ووظيفة عمره في طاعتهما والاستجابة لأوامرهما ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛

ولأنه يعلم أن سعادته في الدنيا والآخرة تحصل بالإيمان والعمل الصالح قال تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

واستواء الباطن والظاهر، وصدق السريرة والعلانية ينبغي أن يتحلى به المسلم؛ قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال:﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

٢٠، ٢١، ٢٣ ـ الاختلاف في القرآن و هجره وعدم تدبره:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ

(١) تفسير ابن كثير [٢ / ٣٦٤]

رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤ – ١٢٥].

فالمؤمن يفرح بما أنزل إليه من ربه وينشرح صدره للآيات والشرع أما المنافق فإن صدره ينقبض ويضيق بالأحكام.

ومن المعلوم أن من ناقض الآيات المنزلة باعتقاده وهواه لم تزده إيماناً ولم يستبشر بنزولها بل تزيده رجساً إلى رجسه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال جل ذكره: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٧] **وقال:** ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد نُهينا عن الاختلاف في القرآن، و نُهينا أيضا عن ضرب بعضه ببعض، وأمرنا الله تبارك وتعالى بالإيمان به كله، و ردِّ متشابه لمحكمه، قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧]

والذين في قلوبهم زيغ هم المنافقون من هذه الأمة لأن الله تعالى أثبت لهم اتباعاً للمتشابه من القرآن، وهؤلاء ذمهم الله تعالى لقصدهم الخبيث ونيتهم الفاجرة بتحريف كتاب الله تعالى، وضرب بعضه ببعض

وفي الصحيح عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ

ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(١).

و الاختلاف المذكور في القرآن الكريم على ضربين:

الضرب الأول: اختلاف تُذم فيه كلا الطائفتين المختلفتين

كما قال سبحانه: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩]

فجاء أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وقال الله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩]، و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وترجع أسباب الاختلاف المذموم بين طائفتين إلى فساد النية؛ لأن الدافع عليه هو: البغي والحسد وإرادة العلو في الأرض بالفساد، ويرجع أيضاً إلى: جهل كل المختلفين بالأمر المتنازع فيه، أو الجهل بالدليل القاطع للنزاع، أو جهل كل المختلفين بما عند صاحبه من الحق سواء كان ذلك في الحكم أو الدليل هذا إذا كان عالماً بما عنده من الحق حكماً ودليلاً، وقد بين الله تعالى

(١) مسلم (٨/ ٥٦رقم ٦٩٤٦)

أن أصل الشر كله الجهل والظلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

الضرب الثاني: هو ما حمد الله فيه إحدى الطائفتين، وهم المؤمنون، وذم فيه الأخرى

كما قال سبحانه وتعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فحمد إحدى الطائفتين ووصفهم بالإيمان، وذم الأخرى ووصفها بالكفر.

هذا وأكثر الخلاف المؤدي إلى الأهواء والبدع في الأمة المحمدية هو من النوع الأول وسبب ذلك أن كلا من الطائفتين المتنازعتين لا تعترف بما عند الأخرى من الحق ولا تعدل في حكمها لها وعليها(١)

وقد جاءت الأحاديث تبين فساد وذم النوع الأول من الاختلاف في القرآن:

فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدَرِ قَالَ وَكَأَنَّمَا تَفَقَّأَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنْ الْغَضَبِ قَالَ فَقَالَ: (لَهُمْ مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ بِهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالَ فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمْ أَشْهَدْهُ بِمَا غَبَطْتُ

(١) الاختلاف في أصول الدين أسبابه وأحكامه (ص: ٤) د. إبراهيم بن محمد بن عبدالله البريكان

نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْهُ)(١)

وفي رواية قال: "سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَءُونَ فَقَالَ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ"(٢)

وعنه أيضا: "أَنَّ نَفَرًا كَانُوا جُلُوسًا بِبَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ بَعْضُهُمْ أَلَمْ يَقُلْ اللهُ كَذَا وَكَذَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَلَمْ يَقُلْ اللهُ كَذَا وَكَذَا فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ فَقَالَ بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ إِنَّمَا ضَلَّتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هَاهُنَا فِي شَيْءٍ انْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ وَالَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"(٣)

وكلام الله تعالى فيه الهداية الكاملة، وفيه النور المبين، وفيه الحياة الحقيقية للبشرية، وفيه الروح التي تحيا بها القلوب والأبدان ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢].

فكيف يكون اتباع شيء منه فيه الزيغ والضلال والشقاء ؟

والجواب على هذا: أن الله تعالى تبارك اسمه أنزل كتابه منه المحكم والمتشابه، وأمر المسلم أن يؤمن به كله محكمه ومتشابه، وأمر سبحانه برد

(١) أحمد (١١/ ٢٥٠رقم ٦٦٦٨)، وابن ماجه (١/ ٣٣رقم ٨٥)
(٢) أحمد (١١/ ٣٥٣رقم ٦٧٤١)
(٣) أحمد (١١/ ٤٣٤رقم ٦٨٤٥)

الاختلاف إليه وإلى رسوله ﷺ فقال ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى: ١٠].

وأمرنا ألا نتدخل بعقولنا فيما لم يصل لنا علمه، وفيما لا تبلغه أفكارنا وتصوراتنا

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (منِ الله تعالى التنزيلُ، وعلى رسوله التبليغُ، وعلينا التسليمُ)(١)

فأما المؤمن فاسلم وأذعن واستسلم وانقاد لما أُمر به، وفهم مراد الله تعالى وعمل به.

وأما المنافق فقد خالف تلك الحكمة البالغة، وأعمل هواه في كتاب الله تعالى، وهاج فيه وماج، وأزبد فيه وأرغى، وصعد فيه ونزل، فشطَّ به عقلُه كل شَطَطٍ، وأوردته نفسُه الخبيثة كل مورد عفنٍ من الهواجس والوساوس والخبل والخطل، وأتى البيوت من ظهورها، واستدبر كل معنى مبين، واستقبل وجه كل شيطان رجيم، فراح به شيطانُه في مفاوز التيه والضلال، وغدا به على كل مورد صعب النِّزال، وأقحم عقله الضعيف المريض في ما لا يبلغه، وتجرأ به على ما لا يفهمه، وخبثت سريرته فخبثت علانيته، ومَرِض قلبُه فاغترف لسانه، وكتبت أنامله من ذلك العفن النجس المتراكم في قلبه وإلى الله المشتكى !!

فهذه الثلة لم تتبع القرآن على الحقيقة، إنما تتبع أهواءها فحسب !.

قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ

(١) التمهيد (٦/ ١٤)

أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٖ ﴿٥٥﴾﴾[1] [الحج: ٥٢ – ٥٥].

---

(١) في هذه الآيات المباركات :" يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ أي: في قراءته، من طرقه ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: يزيله ويذهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي: كامل القوة والاقتدار، فبكمال قوته، يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين، ﴿ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ ﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته، مكن الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله: ﴿ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ ﴾ لطائفتين من الناس، لا يبالي الله بهم، وهم الذين ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾ أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي: مشاقة لله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقيه الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ =

فقسَّم الله تبارك وتعالى القلوب في هذه الآيات إلى ثلاثة:

قلبين مفتونين خاسريْن، وقلب ناجٍ، فالقلبان المفتونان هما: القلب الذي فيه مرض والقلب القاسي الميت والقلب الناجي: هوالقلب المؤمن المخبت إلى ربه وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشبه والشكوك: فتنة لهذين القلبين ، وقوة للقلب الحي السليم؛ لأنه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه ، ويعلم أن الحق في خلافه فيخبت للحق ويطمئن وينقاد ، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان؛ فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له ، فلا يزال القلب المفتون في مرية من إلقاء الشيطان ، وأما القلب

=

مِن رَّبِّكَ ﴾ لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقيض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة، ﴿ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه.

﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بسبب إيمانهم ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات، فيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته ﷺ: ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾ فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ ألقى الشيطان في قراءته: " تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى " فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات " انتهى من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٥٤٢)

الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدا(١)

ولنضرب مثالاً واحداً حتى يتضح ذلك المعنى:

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: ٣١]

أخبر الله سبحانه في هذه الآية عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، **فذكر خمس حكم وهي:**

الأولى: ﴿ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فيكون ذلك زيادة في كفرهم وعنادهم وصدودهم.

الثانية: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾فيقوى يقينهم بموافقة خبر القرآن بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلقٍّ من رسول الله ﷺ عنهم فتقوم الحجة على المعاند منهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه، ويعلم أن ما جاء به محمد ﷺ من الوحي لا يخالف ما عندهم مما ثبت ولم يحرف.

الثالثة: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ ﴾ بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به

الرابعة: ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ ﴾ بانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١/ ١٠)

الخامسة: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ وهذه أيضاً من الحكم: أن تزداد حيرة الكافر ومن في قلبه مرض نفاق وشكٍّ، وزيادة الحيرة والشك للمنافق جاء من باب تغليظ العقوبة له بسبب نفاقه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ – ١٢٥].

فتأمل ـ بارك الله فيك ـ كيف كانت نفس الآية موضع زيادة إيمان ويقين لطائفة المؤمنين، وهي هي موضع زيادة شك وحيرة لطائفة المنافقين و الكافرين !!

وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزَّل عليها: قلب يفتتن به كفراً وجحوداً، وقلب يزداد به إيمانا وتصديقا ، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدري ما يراد به(١).

فالقرآن يزيد المؤمنين إيمانـًا ونوراً وبصيرةً وهدىً ورحمةً ويزيد المنافق شكـًا وارتيابـًا وضلالةً وعمىً وخسارةً عياذا بالله.

إذا علمت هذا فاستمع لما يقوله طه حسين الأعمى بصراً وبصيرةً :

لاشك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كاتب ديني آخر يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا يربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ١٥)

لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة.. فمثلاً نرى القسم المكي فيه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة، كما نشاهد أن القسم المدني اليثربي تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة.. وإذا دققتم النظر وجدتم القسم المكي ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد، ويمتاز كذلك بتقطيع الفكرة واقتضاب المعاني وقصر الآيات، والخلو التام من التشريع والقوانين، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطًا، أما القسم المدني: فهو وديع لين مسالم يقابل السوء بالحسنى ، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات، ولاشك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن)[١].

ويقول أيضـًا:

وإذن فالقرآن دين محلي لا إنساني عالمي، قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها. قاله صاحبه متأثراً بحياته التي عاشها وعاش فيها، ولذلك يعد تعبيرا صادقا عن هذه الحياة، أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفا عاما للإنسان، فليس ذلك بحق؛ إنه دين بشري وليس وحيـًا إلهيـًا، والقرآن مؤلف، ومؤلفه نبيه محمد !!

---

(١) منقول عن محضر الجلسة الرابع والعشرين لمجلس النواب المصري ٢٨ مارس لسنة١٩٣٢ م .

نعم! هذا يقوله طه حسين، بكل صفاقة وحماقة وسماجة وبذاءة، وانحطاط وكلح وجه، ذلك الملقب ـ زوراً وكذبًا وبهتانًا ـ عميد الأدب العربي !!

وإنما يرمي طه إلى ما يرمي إليه من أغراض وأهداف وخطوط قد رسمها له أساتذته من المستشرقين، فنفث في آذان طلبته من هذيانه وخبله نفث الحية الرقطاء سمها، وإنما يريد طه أن يقول: إن القرآن صناعة بشرية، ونظم محمدي، وليس وحيًا أوحاه الله إليه، وجرد نبينا ﷺ من الرسالة، بل جعله تابعًا لليهود في المدينة، آخذا عنهم، وأنه تأثر بهم وظهر ذلك على القرآن المدني أي بعد هجرته إلى المدينة وملاقاته لليهود فيها، يقول: "ولاشك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن"

ما أسعدك يا طه ! وما أهنأك ! وما أوسعك حظًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ [المدثر: ١٨ – ٢٩].

ويقول طه أيضا لطلابه في كلية الآداب: " ليس القرآن إلا كتابًا ككل الكتب الخاضعة للنقد !! فيجب أن يجرى عليه ما يجري عليها، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائيا عن قداسته التي تتصورونها ، وأن تعتبروه كتابًا عاديًا فتقولوا فيه كلمتكم !"

تعالى الله عن قول هذا الأعمى علواً كبيراً وتقدس القرآن عن خطله وشططه وسجعه تقديسًا مجيداً، وصدق الله في وصف قرآنه : ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وأزيد الأمر وضوحًا فأقول:

اعلم ـ أيها الأريب الفطِن ـ أن جميع طوائف المبتدعة، وفسقة العلماء والدعاة قديمًا وحديثًا قد استدلوا على بدعتهم ومذاهبهم وأقوالهم الباطلة وفتاويهم المحرفة ببعض الآيات المتشابهة؛ ليلبسوا على الناس دينهم؛ وليمرروا باطلهم وزورهم؛ وليتوصلوا بذلك إلى مآربهم الخبيثة، ومطامعهم الحقيرة من تحصيل متاع الدنيا القليل.

وإليك ثمة أمثلة مختصرة على ذلك:

١ ـ مسألة خلق القرآن

استدل من خلق بخلق القرآن ببعض الآيات التي اشتبه علمها عليهم؛ يحكي عبد الله بن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ على لسانه في إحدى مناظرات الإمام للمبتدعة:" فلما كانت ليلة الرابعة بعد العشاء الآخرة وجه المعتصم بنا إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي يأمره بحملي، فأدخلت على إسحاق فقال لي: يا أحمد إنها والله نفسك إنه حلف أن لا يقتلك بالسيف وأن يضربك ضربًا بعد ضرب، وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس، أليس قد قال الله عز وجل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٣] فيكون مجعولا إلا مخلوق، قال أبي: فقلت له: قد قال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل: ٥] ". أفخلقهم، فسكت !! (١)

٢ ـ استدل بعض المعاصرين بقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ

(١) حلية الأولياء لأبو نعيم الأصبهاني (٤/ ١٣٩)

وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٦٢]

استدل بهذه الآية وما في معناها على: أن الجنة ليست حِكْراً على المسلمين (هكذا يقول)، وأن العبرة بالعمل الصالح، فمن جاء به دخل الجنة، يهودي أو نصراني أو مسلم !!!

ونسي هذا المفتون قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢ – ٧٤]

٣ ـ واستشهد بعضهم بإباحة المناظر الإباحية والمشاهد المثيرة في الأفلام بقوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣]

تعالى الله عن قول هذا المفتون الضال علواً كبيراً

٤ ـ وأخذ بعضهم من قول تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢].

أن النصارى إخوتنا وأحب إلينا من اليهود ومن غيرهم ويجوز أن نواليهم ونبادلهم المحبة والنصرة وغيرها !!!

ونسي هذا المخبول قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة: ٥١]

٥ ـ ومن مجموع قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ﴾ [النحل: ٦٧]

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]

أخذ بعضهم جواز شرب المسكرات والخمور بشرط أن يكون في غير وقت صلاة !!!

وتعامى هذا الجهول عن قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: ٩٠]

٢١ ، ٢٢ - عدم تدبر القرآن وهجره:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى:﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: ٨٣] وقال تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾[١]

---

(١) وكلا الموضعين ذكرهما الله تعالى في سياق الإنكار على المنافقين ؛ فالموضع الأول ذكره بعد قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٨١﴾ النساء: ٨١
والموضع الثاني بعد قوله في المنافقين : ﴿ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ =

فالله عز وجل أمر المؤمنين بتدبر القرآن والانتفاع به، أما المنافقون فإن القرآن لا ينفعهم بل يزيدهم شقاء بتشديد الأحكام عليهم، وفضح سرائرهم، ولا يصل إلى قلوبهم شيء من معانيه وحكمه وأمثاله إلا كما يصل الباسط يده إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه !!

فالمنافقون لما فسدت قلوبهم، وران عليها مرض النفاق = حال الله بينها وبين فهم كلامه وفهم المراد منه؛ قال تعالى:﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد: ١٦]

والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي المنيب إلى ربه الخائف منه الذي يبتغي رضاه ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلى محل قابل فيتأثر به ، فصار هدىً له وشفاءً ورحمةً وموعظةً بالوجود والفعل والقبول.

وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فإنه لا يؤثر فيه شيئا بل لا يزيده إلا ضعفا وفسادا إلى فساده؛ فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة ولعدم آلة الهدى تارةً، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي تارة ، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

= لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢١ – ٢٤]

وقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣] فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل فإنه لا خير فيه؛ فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه والميل إليه والطلب له ومحبته والحرص عليه والفرح بالظفر به ، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك ، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات !

فالماء في نفسه رحمة وحياة ولكن ليس فيها قبول له ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣] فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى وهي: الكبر والإعراض وفساد القصد ، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به فالهدى في حق هؤلاء هدى بيانٍ وإقامة حجة لا هدى توفيقٍ وإرشادٍ فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة !

وأما المؤمنون: فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة فصار القرآن لهم هدىً ولأولئك هدىً بلا رحمةٍ.(١)

٢٣ ـ عدم التثبت في الأخبار

قال تعالى:﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧١) باختصار .

ففي الآية إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها أساس من الصحة.

فعند مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **"كفى بالمرء كذبا أن يُحدِّث بكل ما سمع"**

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ **"نهى عن قيل وقال"** أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تَثبُّت، ولا تَدبُّر، ولا تَبَيُّن.

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: **"بئس مَطِيَّة الرجل زَعَمُوا عليه"**.

وفي الصحيح: "من حَدَّث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبَيْن".

قال ابن كثير:" ويذكر هاهنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طَلَّق نساءه، فجاءه من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ قال: "لا". فقلت: الله أكبر. وذكر الحديث بطوله.

وعند مسلم: فقلت: أطلقتهن؟ فقال: "لا" فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية:﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

ومعنى قوله:(يستنبطونه) أي: يستخرجونه ويستعلمونه من معادنه "[1]

(١) تفسير ابن كثير [٢ / ٣٦٦]

ولذلك أمر الله المؤمنين بالتثبت في الأخبار فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق.

ولا غرو أن عدم التثبت في إشاعة الأخبار قد أصاب كثيراً ممن ضعف إيمانهم من الصحفيين والإعلاميين ممن أصيبوا بلوثة السبق والنشر الصحفي والإعلامي؛ فيؤزه الشيطان أزّاً ، ويتعجله في نشر الأخبار وفبركتها وصياغتها بأسلوب مشوق وجذاب ومثير، حتى تخرج عن مضمونها وجوهرها، ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد؛ بل إن غيره من بني وظيفته يأخذ الخبر عنه فيزيد عليه تحليلاً (أقصد: كذبـًا) وحبكة فنية وصياغة صحفية كانت أو إعلامية، ويأخذ الثالث عن الثاني ويزيده كذلك تحليلاً حتى يخرج ا لخبر منزوع الدسم (أقصد: الحقيقة) يصدق فيه قول النبي ﷺ: «**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّىُّ فَيَقْذِفُهَا فِى أُذُنِ وَلِيِّهِ فَيَزِيدُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ**» رواه مسلم.

وكأن المزايدة على أصل الخبر والتحليلات الكثيرة والعقيمة المتراكمة على كاهله قد أصبحت شيئا يسيراً مأذونـًا فيه؛ حتى حدا ذلك ببعض الناس أن يهجر قراءة الصحف مطلقـًا وعدم مشاهدة أو الاستماع للأخبار من صحفنا المحلية؛ وقرأت شيئا مضحكـًا ساخراً لأحد هؤلاء يقول: لا أصدق شيئا من التليفزيون المصري إلا الأذان !!

٢٤ ـ مظاهرة الكافرين ومعاونتهم والانحياز لهم ضد المؤمنين:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ

أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [النساء: ٨٨ – ٨٩]

"المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تحرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم. فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققتم ذلك منهم ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة"(١).

واختلف في سبب الآية على قولين:

الأول: ما أخرجاه في الصحيحين عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحُد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا فأنزل الله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾

فقال رسول الله ﷺ: **"إنها طَيْبة، وإنها تنفي الخَبَث كما تنفي النار خبث الفضة"**.

والثاني: عن ابن عباس قال: نزلت في قوم كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام،

(١) تفسير السعدي (ص: ١٩١)

كانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد ﷺ فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم. وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله ! أو كما قالوا: أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمِنْ أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم. فكانوا كذلك فئتين، والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فأنزل الله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فِرَق:

فرقتين أمر بتركهم وحتَّم على ذلك، إحداهما : من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قوم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾

أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضا أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك في قوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾.

فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم

عنكم مع التمكن من ذلك.

" فَـ " هؤلاء ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾.

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين. ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ ﴾ أي: خوفا منكم ﴿ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ ﴾.

أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رءوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية: تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم لا خوفا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احتراما، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحًا عظيمًا اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي: المسالمة والموادعة ﴿ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾ ﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم.(١)

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(١) تفسير السعدي (ص: ١٩١)

وفي البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثٌ فَاكْتُتِبْتُ فِيهِ فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ ثُمَّ قَالَ أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧] الْآيَةَ(١)

وعن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستَغْفَروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى آخر الآية، قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم. قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨].

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في شباب من قريش، كانوا تكلموا بالإسلام بمكة، منهم: علي بن أمية بن خَلَف، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن منبه بن الحجاج، والحارث بن زَمْعة.

وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين، تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر، فأصيبوا فيمن أصيب فنزلت هذه

(١) البخاري (٦/ ٤٨رقم ٤٥٩٦)

الآية".(١)

وقال تعالى:﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر: ١١]

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يَعِدُونهم النصر من أنفسهم، فأكذبهم الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا لهم قولا من نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه؛ ولهذا قال: ﴿ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أي: لا يقاتلون معهم، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا معهم ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها.

وهذه الصفة للمنافقين (أعني: مظاهرة المشركين ومعاونتهم ضد المسلمين) تجعل منهم خونة وأعداء متربصين، فهم على عار على أوطانهم، وما تلقى منهم مجتمعاتهم أشد وأنكى مما تلقاه من أعدائها الظاهرين، وخيانة الشعوب والأمم من أشد أنواع الخيانة، وأعلى هذه الخيانات خيانة الدين وقضاياه العظيمة، كقضية الولاء والبراء والحاكمية وغيرها من القضايا الشائكة ومن هذه الخيانات ما فعله أحمد عرابي باشا حين سمح بعقد مؤتمر التبشير في قصره؛ يقول الشيخ محب الدين الخطيب تحت عنوان " مؤتمر القاهرة سنة ١٩٠٦ ": " كان القس زويمر رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين أول من

(١) ابن كثير (٢/ ٣٨٩) .

ابتكر فكرة عقد مؤتمر عام يجمع إرساليات التبشير البروتستانية للتفكير في مسألة نشر الإنجيل بين المسلمين..إلى أن قال: ولما تقرر عقد المؤتمر شرع القسيس زويمر وزميل له يعدان المعدات لتأليف لجنة مؤقتة تضع برنامج مذكرات وتدعو المبشرين في كل البلاد للاشتراك به وفي يوم ٤ من إبريل من سنة ١٩٠٦ افتتح المؤتمر في القاهرة في منزل عرابي باشا في باب اللوق، وبلغ عدد مندوبي إرساليات التبشير ٦٢ بين رجال ونساء "(١)

ومن ذلك أيضا ما فعله رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد حين رجع بثلث الجيش، كل ذلك معاونة للمشركين، وتخذيلاً للصف المؤمن.

وتحالف المنافقين أيضا مع اليهود في يوم الخندق.

وما فعله الشيعة الروافض حين خانوا شعبهم العراقي، ودخلوا مع الجيش الأمريكي إلى بغداد، وهو يلوِّحون بإشارات النصر من فوق دبابات الأمريكان(٢).

٢٣ ـ المهانة والابتذال والاستضعاف في الأرض:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على

(١) نقلا عن " أعلام وأقزام في ميزان الإسلام " للدكتور : سيد حسين العفاني .
(٢) سيأتي مزيد بيان لخيانات المنافقين في فصل (خيانات المنافقين على مر الأزمان) .

الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا سَبِيلًا ﴾

وعند أبي داود: عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ**»(١)..

وقال السدي: لما أسر العباس وَعقِيل ونَوْفَل، قال رسول الله ﷺ للعباس: **"افد نفسك وابن أخيك"** قال: يا رسول اللهﷺ، ألم نصل قبلتك، ونشهد شهادتك؟ قال: **" يا عباس، إنكم خاصمتم فخُصمتم"**. ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ رواه ابن أبي حاتم"(٢).

وعن عياض بن حمار المجاشعي قال أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ:فذكر الحديث حتى قال:« **وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا - أَوْ تُبَعَاءَ- لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا، وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ - وَإِنْ دَقَّ - إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ الْبُخْلَ وَالْكَذِبَ ، وَالشِّنْظِيرَ الْفَاحِشَ**» (٣)

---

(١) أبو داود (٣/ ٤٨رقم ٢٧٨٩)
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٩
(٣) مسلم (٤/ ٢١٩٧رقم ٢٨٦٥) ،و أحمد (٢٩/ ٣٢رقم ١٧٤٨٤)

وقوله (لَا زَبْرَ لَهُ): أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لاينبغى.

فهذا الصنف من الناس هم من تحصل بهم البلية في كل زمان ومكان، فلولا هذا النوع من الناس ما رأينا حاكماً ظالماً، ولا أميراً جائراً، ولا طاغية يسوم الناس سوء العذاب، فهم المدبِّرون للظالم أمر دولته ومملكته، وهم المنفذِّون له أوامره، وهم الباطشون بالناس، وهم من تسيل دماء الأبرياء والضعفاء على أيديهم، وهم من يظلمون في القضاء ويحكمون على الشعوب ظلماً وعدواناً، وهم السجَّانون الذين يسجنون الناس بغياً وقهراً وظلماً، وهم من يتولى تعذيب السجناء ويضيقيون على الناس معايشهم، فهم دثار الظلم وشعاره !!

ألم يقل الله في فرعون الطاغية المدعي الربوبية و الألوهية من دون الله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

فلولاهم ما كان فرعون ولا هامان، ولولاهم ما ظهر في الأرض طاغية ولا جبار، ولذا فإن لهم من الإثم والخطيئة ما لأسيادهم؛ قال تعالى:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، ولهم من العذاب والنكال والشقاء والعناء في الدنيا والآخرة ما لأسيادهم سواء بسواء مثلاً بمثل قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: ٤٠]

وقال في فرعون وآله وجنوده: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٦ – ٤٨].

فذكر آل فرعون وذكر الضعفاء معهم فدلَّ على أنهم جميعـًا في منزلة واحدة من العذاب بلا فرق ألبتة، وهذه محاورة ومعاتبة من محاورات كثيرة نطق بها القرآن الكريم بين القادة والمتبوعين، بين الرؤساء والمرؤوسين، بين الحكام والمحكومين، بين كل طاغية ومن عاونه وسانده في طغيانه.

وليست هي الوحيدة في القرآن؛ بل ثمة محاورات أخرى متنوعة، فتأملها وتدبرها؛ لتعلم خطورة هذه الفئة المنافقة الضعيفة المستضعفة، المطيعة للأوامر الظالمة، اقرأها مرة ومرتين وثلاثة وأربعة؛ حتى تعلم أن الطاغية الظالم و الوزير والمدير و السكرتير والكاتب و الساعي والبواب والسجان والقاضي والسائق والحارس والمخطط والمدبِّر والمنفذ كلهم بمنزلة واحدة، كلهم في دَرَكَة واحدة في النار، كلهم محشرون أزواجـًا محشراً واحداً بلا فرق ! بلا تمييز ! بلا طبقية ! بلا مناصب ! بلا مراكز !...كلهم سواسية !

قال تعالى:﴿ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ ﴾ [الصافات: ٢٢ – ٣٥].

فيالله كم هي بائسة ويائسة ومبكية هذه المعاتبة بين الطغاة والمتبوعين، فلا طبقية ولا مراعاة للرتب ولا تسلسل للمناصب في النار، الجميع في منزلة واحدة، البواب يكلم القائد، السجان يكلم القاضي، الغفير يعاتب الوزير، منزلة واحدة... !

معاتبة مرةٌ صعبةٌ يتجرعون غُصتها ومرارتها، كأنها الضريع يعلق في الحلوق فلا ينزل ولا يخرج: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ فكان جواب الطغاة والرؤساء والقادة: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾، نعم كانوا طاغين.. كانوا مجرمين... آالضعفاء ؟ نعم.. الضعفاء!

آلمساكين المأمورون ؟ نعم.." عبد المأمور "!.. كانوا طغاةً ومجرمينَ ! هذه شهادة أسيادهم عليهم..وشهد شاهد من أهلها !!

عجيب حقـًا أمر هؤلاء الطغاة... كانوا يسكنون القصور.. كانت لهم الريادة والسيادة.. كان لهم الأمر والنهي.. كانت لهم الأوامر والقرارات.. كانت لهم الأموال والممتلكات... كانوا يتحكمون في أموال الناس ورقابهم وأعراضهم... فأين منهم الضعفاء أصحاب المرتبات القليلة والإيرادات اليسيرة والإمكانيات الحقيرة، أين منهم الموظف المسكين ؟ الذي يُكمل عشاءه نومـًا ؟ كيف يُسوون بينهم وبين هؤلاء المستضعفين ؟ كيف يتهمونهم بالطغيان وبالإجرام مثلهم ؟ عجيب أمرهم حقـًا !

لا تعجب أيها الحبيب: نعم كان الضعفاء طغاةً مجرمينَ ! كان السائق والغفير والساعي والكاتب والسجان والنادل كل منهم كان طاغيةً مجرمـًا، لو كانت له الجولة لركب الكرسي وكان فرعون أو هامان !

وإلا فحدثني وأخبرني: من قتل الرجال وذبح الأبناء واستحيى النساء.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من ألقى القبض على المظلومين، ونسب لهم التهم والجرائم والحوادث ظلمـًا وبغيـًا. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من ضرب وقهر وسفك الدماء ودمر الممتلكات وخرب الديار.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من قاد الدوريات وداهم المنازل وزار الآمنين في دياجي الظلمات.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من أدار التحقيقات وسب ولعن وقذف وضرب وعذب وطغى.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من لفق القضايا الباطلة وحكم الأحكام الجائرة وأمر بالسجن والإعدام والمؤبد.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من بنى المعتقلات والسجون ؟ من عذب المعتقلين فيها وسحلهم ؟ من حرسها ؟ من نظمها أمرها وسيرها.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من خرب الاقتصاد وسلب أموال الشعوب و نهب مكتسبات البلدان.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من سن القوانين الجائرة وحرم الفقراء حقوقهم، ومنع المستحقين من خير البلاد نصيبهم.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من نشر الفساد والخنى، والفجور والزنا في البلاد طولها وعرضها باسم الفن والحضارة.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من نشر الخمور والمخدرات وسائر المسكرات ولم يعاقب مروجيها وتجارها.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من أدخل على الناس ما يفسد عافيتهم وصحتهم من الأمراض والمواد

المسرطنة.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من أكل أموال الناس ظلماً بالرشاوي والمحسوبيات والوسائط والإكراميات فضيق على الناس معايشهم وسلبهم حقوقهم وجعل الدولة لفئة خاصة.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟﴾من استهزأ بالدين وسنة سيد المرسلين ﷺ وهمز ولمز وغمز المتمسكين بها باسم الفن والتقدم والحداثة.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

من كتب السيناريوهات وألف الأغاني وصور الأفلام والكليبات الماجنة ونشر الرذيلة.. فرعون أم جنوده الضعفاء ؟

هل تبين لك: لماذا قال السادة للضعفاء: ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ ﴿ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ ﴾ وهذه مناجاة الضعفاء لرب العالمين حين يئسوا من المستكبرين السادة يسألون ربهم أن يضاعف لأسيادهم العذاب والنكال فلا يتساوون في منزلة واحدة معهم... ولكن هيهات هيهات..المنزلة واحدة !.. العذاب متساوٍ..الدركة واحدة !؛ قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٤ – ٦٨]

نعم.. لا تكل جهودهم ومحاولاتهم في سؤالهم ربهم بمضاعفة العذاب للسادة، إنه حقد وغيظ على الأسياد.. لكن بعد فوات الآوان !! قال تعالى:﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ

بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٨ – ٣٩]

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣١ – ٣٣].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص: ٦٢ – ٦٣].

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

فهذه رسالة واضحة إلى عبيد الطغاة والظالمين!

إلى من يرفعون شعار " أنا عبد مأمور "!

إلى من ينفذون الأوامر والتعليمات والتوصيات المخالفة لشرع الله وللأوامره!

إلى المتعللين بنظام العمل وقوانين الوظيفة وخطة الدولة!

إلى السائرين في ظل الظالمين والطغاة!

هذه رسالة واضحة لكم: أنتم شركاء للطغاة في الإثم والمآل، كلكم في منزلة

واحدة بلا فرق بين رئيس ووزير ومدير وغفير، من أحقر وأقل وظيفة إلى أعلى وظيفة... كلكم بمنزلة واحدة

فلولاكم ما كان فرعون ولا هامان !

ولولاكم ما كان النمرود ولا طغيان !

ولولاكم ما ظلمت الشعوب ولا سالت دماؤها !

ولولاكم ما جاع فقير، وما أنشئت نظم جائرة !

ولولاكم ما انتشر الفساد وعمت الفوضى وغلت الأسعار !

ولولاكم ما سكر الناس ولا شربت المسكرات ولا بنيت الحانات والخمرات !

أف لكم من فئة معاونة منافقة، تسيرون كالقطعان العمياء في ركب الظالمين والطغاة، لكنكم عند الظلم وعند تنفيذ المخططات كأشرس وأعنف وأشد وأصرم ما يكون ! ثم يتعلل الواحد منكم بعد ذلك: " أنا عبد مأمور"!!

٢٤ ـ الخيانة والخداع:

الخيانة على أربعة أنواع: خيانة الله ﷻ وخيانة الرسول ﷺ و خيانة الأمانة وخيانة النفس ، فأما الثلاثة الأولى فقد جمعها قول الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وأما خيانة النفس فمذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ

جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٧ – ١٠٩].

و الأنواع الأربعة ذكرت في سياق إنكار الله ﷻ على المنافقين؛ فعلم بذلك تمام تلبسهم واتصافهم بتلك الأنواع الأربعة من الخيانة عياذاً بالله ﷻ.

والخيانة كما قال ابن الجوزي: التّفريط فيما يؤتمن الإنسان عليه. ونقيضها: الأمانة.

فخيانة الله ﷻ: بعدم تحقيق الإيمان، ومحادة شرعه ومناهضة أحكامه، وعدم الاستسلام لأوامره، وخيانته أيضا: بنقض عهده وتضييعه وتضييع الأمانة التي حملها للإنسان، وخيانته أيضا: بالإفساد في الأرض بالشرك وأنواع المعاصي، وخيانته أيضا:بإيذاء أوليائه ومحاربتهم ونصب العداوة والبغضاء لهم ، وخيانته أيضا: بالاستهزاء بدينه وحدوده وشرائعه ، وخيانته أيضا:بنبذ شريعته وتحكيم القوانين الوضعية؛

قال تعالى:﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: ٣٨]

وقال تعالى:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠]

وخيانة الرسول ﷺ: فجحد سنته وبغضها وكراهيتها، وعدم طاعته والقيام بتغزيره وتوقيره، وخيانته أيضاً: بصرف الناس عن سنته والإساءة إليها وتشويهها والافتراء عليها، وخيانته أيضاً: بمحاربة أوليائه والمهتدين بهديه

والمتمسكين بسنته، وخيانته أيضاً:

وخيانة الأمانة: حاصل بتضييع ما اؤتمن عليه من أنواع الأمانات والمستودعات

قال تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥١ – ٥٢]

أي: بعدم إفساد فراشه وإدخال غيره عليه؛ فقد برأت نفسها من خيانة ما اؤتمنت عليه من حفظ زوجها بالغيب وحفظ عرضه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **"لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزْ اللَّحْمُ وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا "**(١)

والخيانة هنا ليست خيانة العرض بارتكاب الزنا والفواحش حاشا وكلا؛ وأما معنى "قوله (وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا) ففيه: إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها: أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهها بالولادة ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول.

---

(١) البخاري (٤/ ١٣٣رقم ٣٣٣٠) وقوله " لم يخنز اللحم " أي لم ينتن وتتغير رائحته . قال العلماء معناه : أن بنى اسرائيل لما أنزل الله عليهم المن والسلوى نهوا عن ادخارهما فادخروا ففسد وأنتن واستمر من ذلك الوقت والله أعلم.
وقوله :"ولولاء حواء لم تخن أنثى" أي : خيانة حواء آدم : وهي ترك النصيحة له في أمر الشجرة، لا في غيرها.

وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسنَّت ذلك لآدم عُدَّ ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها. وقريب من هذا حديث (جَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِيَّتُهُ)، وفي الحديث: إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى، وأن ذلك من طبعهن فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور، وينبغي لهن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع بل يضبطن أنفسهن ويجاهدن هواهن، والله المستعان"(١)

وعن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:« **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا وَعْدَ أَخْلَفَ** » رواه البخاري ومسلم.

وعن عياض بن حمار المجاشعي أَنَّ نَبِىَّ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِى خُطْبَتِهِ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ قَالَ وَقَالَ:« **وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِى لاَ زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ لاَ يَبْتَغُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً وَالْخَائِنُ الَّذِى لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِى إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَذَكَرَ الْبُخْلَ وَالْكَذِبَ، وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ** ».

وعن معقل بن يسار المزني قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»(٢).

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٦٨)

(٢) مسلم (١/ ١٢٥ رقم ١٤٢)

وخيانة النفس: يحصل بمراودتها بالمعاصي الخفية والشهوات؛ قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٧ – ١٠٨]

وعن عبدالله بن أبي أوفي رضي الله عنه قال: أَقَامَ رَجُلٌ سِلْعَتَهُ فَحَلَفَ بِاللهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِهَا فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وَقَالَ ابْنُ أَبِي أَوْفَى: النَّاجِشُ آكِلُ رِبًا خَائِنٌ"(١)

٢٥ ـ رمي المؤمنين بالعظائم والبهتان:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٢].

وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه الترمذي بسند حسن عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال كان أهل بيتٍ منَّا يقال لهم: بَنُو أُبَيْرق: بِشْرٌ بشير ومبَشِّرٌ، وكان بشير رجلا منافِقا، يقول الشِّعْرَ يَهْجُو به أصحاب النبي ﷺ، ثم يَنْحَلُهُ بعض العرَبِ، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أَصحابُ رسول الله ﷺ ذلك الشِّعْرَ، قالوا: واللهِ، ما يقول هذا الشِّعْرَ إلا هذا الخَبيثُ – أو كما قال الرجل – وقالوا: ابنُ الأُبَيْرق قالها: وكانوا أهلَ بيتِ حاجةٍ وفاقةٍ في الجاهلية

(١) البخاري (٣/ ١٧٩ رقم ٢٦٧٥)

والإسلامِ، وكان النَّاسُ إنما طعامهم بالمدينة التمرُ والشَّعِيرُ، وكان الرجلُ إذا كان له يَسارٌ فقدمت ضافِطةٌ من الدَّرمَك، ابتاع الرجلُ منها، فخصَّ بها نفسه، وأما العيالُ: فإنما طعامهم التمرُ والشعيرُ.

فقدمت ضافِطَةٌ من الشام، فابتاع عَمِّي رِفاعَةُ بنُ زيد حِمْلا من الدَّرمك، فجعله في مَشْرَبةٍ له، وفي المشربة سلاحٌ: دِرْعٌ وسيف، فَعُدِي عليه من تحت البيت فَنُقِبَتِ المشربةُ، وأُخذَ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عَمِّي رِفاعَةُ، فقال: يا ابن أخي، إنه قد عُدِيَ علينا في ليلتنا هذه، فنُقِبتْ مَشرَبتُنا، وذُهِبَ بطعامنا وسلاحنا، قال: فتحَسّسْنَا في الدارِ، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أُبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال:

وكان بنُو أُبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدَّار -: والله ما نَري صاحبكم إلا لَبِيدَ ابنَ سَهْلٍ - رجل منَّا له صلاحٌ وإسلامٌ - فلمَّا سمع لبيدٌ اخترَط سيفَه: وقال: أَنا أَسرِق؟ فَوالله ليخالطنَّكم هذا السيف، أَو لتُبَيِّنُنَّ هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار، حتى لم نَشُكَّ أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيْتَ رسول الله ﷺ فذكرتَ ذلك لَهُ ؟ قال قتادة: فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: إن أهل بيت منَّا، أَهلَ جفاءٍ عَمَدُوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقَّبُوا مَشْرَبَة لهُ، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليَرُدُّوا علينا سلاحنا، فأمَّا الطعام فلا حاجة لنا فيه.

فقال النبيُّ ﷺ سآمرُ في ذلك، فلما سمعَ بَنُو أُبَيْرِقَ أَتَوْا رجلا منهم، يقال له: أَسَيْد بن عروة فكلَّموه في ذلك، واجتمع في ذلك أناسٌ من أَهل الدار، فقالوا: يارسول الله ﷺ ، إن قتادة بن النعمان وعمَّهُ عمدا إلى أَهل بيت منَّا أهلِ إسلامٍ وصلاحٍ يرمونهم بالسرقةِ من غير بَيِّنَةٍ ولا ثَبتٍ.

قال قتادة: فأتيتُ رسول الله ﷺ فكلَّمته، فقال: عمدْتَ إلى أَهل بيت ذُكرَ منهم إسلامٌ وصلاحٌ، ترميهم بالسرقة من غير ثبتٍ ولا بينة ؟ قال: فرجعت، ولودِدْتُ أَنِّي خرجت من بعض مالي، ولم أكلِّم رسولَ اللهِ ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعةُ، فقال: يا ابن أَخي، ما صنعتَ ؟ فأَخبرتُه بما قال لي رسولُ الله ﷺ ، فقال: اللهُ المستعانُ، فلم نَلْبَثْ أن نزل القرآنُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ بني أُبَيْرق ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ﴾ مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: لو استغفروا الله لغفرَ لهم ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ قولهم للبَيدِ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾، فلَّما نزل القرآن أُتِي رسولُ الله ﷺ بالسلاح، فَرَدَّهُ إلى رفاعة، قال قتادة: لما أتيتُ عمِّي بالسلاح - وكان شيخا قد عسا، أو عشا - الشك من أبي عيسى - في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً.

فلما أتيته قال لي: يا ابن أخي، هو في سبيل الله - فعرفتُ أنَّ إِسلامه كان صحيحا - فلما نزلَ القرآنُ لِحقَ بُشَيْرٌ بالمشركين فنزل على سُلافة بنت سعد بن سُمَيَّةَ، فأنزل الله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٥ – ١١٦]، فلمَّا نزل على سُلافةَ، رماها حَسَّانُ بن ثابتٍ بأبياتٍ من شِعْرٍ، فأخذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلى رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطَحِ، ثم قالت: أَهْدَيْتَ إليَّ شِعْرَ حسَّان، ما كنتَ تأتيني بخير﴾(١)﴾..

ومن ذلك حادثة الإفك؛ فإن الذي تولى كبرها وأضرم نارها رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول؛ قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١]

وما زالت هذه الفرية العظيمة والبهتان المبين يتلقفه فئام ممن لا خلاق لهم، وينسبونه للطاهرة المطهرة من فوق سبع سموات أمِّنا وأم المؤمنين

---

(١) الترمذي (٥/ ٢٤٤رقم ٣٠٣٦) وحسنه الألباني ، المستدرك – الهندية (٤/ ٣٨٥رقم ٨١٦٤)

ومعنى ينحله : النحلة : الهبة والعطية.

فاقة : الفاقة : الحاجة والفقر.

ضافطة : بضاد معجمة :ناس يجلبون الدقيق والزيت، ونحوهما.وقيل : هم الذين يكرون من منزل إلى منزل.

الدرمك : الدقيق الحواري.

مشرة : بضم الراء وفتحها : الغرفة.

عُدِي عليه : أي : سرق ماله، وهو من العدوان، أي: الظلم.

عسا أو عشا : عسا بالسين غير المعجمة، أى : كبر وأسن، وبالمعجمة، أي : قَلّ بصره وضعف.

مدخولا : الدخل : العيب والغش، يعني : أن إيمانه متزلزل فيه نفاق.

عائشة رضي الله عنها.

ولا شك أن هذا كفر وردَّةٌ بعد إسلام؛ لأن فاعل ذلك مكذب بالقرآن العظيم الذي نزل بتبرئتها مما الإفك الذي نسبه إليها المنافقون.

ونشر الفاحشة في المجتمع المسلم وقذف المحصنات مما تولع به قلوب المنافقين؛ ومن ثم ذكر الله في ضمن آيات حادثة الإفك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣].

٢٦- اتخاذ الكافرين أولياء وابتغاء العزة والرفعة والشرف في غير دين الله.

قال تعالى ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٨ -١٣٩].

فهذه الطائفة الخبيثة تجنح للكفار وتركن إليهم طلبًا لما عندهم من العزة، وتجنح للمؤمنين ـ أحيانًا ـ طلبًا للعزة فكان "الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين، فيرضوا المؤمنين ليعزهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضا، ومن ههنا دخل عليهم البلاء فإنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة الله ورسوله ﷺ بل كان ميلهم وصغوهم وجهتهم إلى الكفار فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل، وهو أن جعل مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله ورسوله ﷺ والذين ءامنوا والاستهزاء بأهل الإيمان والكذب والتلاعب بالدين، وإظهار أنهم من المؤمنين، وأبطنوا قلوبهم على الكفر والشرك، وعداوة

الله ورسوله ﷺ أمر اختصوا به عن الكفار؛ فتغلظ كفرهم به فاستحقوا الدرك الأسفل من النار !"(١)

والولاء له معان كثيرة منها: الحب والرضا، والنصرة والطاعة والمتابعة، والمعاونة، والصداقة، والتشبه، وإظهار المودة، وغير ذلك من لوازم هذه المعاني، وقد صرف المنافقون هذه المعاني جميعها للكفار، كلٌّ بحسب نفاقه، وخطئ هؤلاء المنافقون فغاب عنهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨] ونسوا أن: ﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس: ٦٥] وأن: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

فالزلفى إليه والقربى وتحقيق ولايته وتحصيل العزة والشرف في الدنيا والآخرة حاصل بعبادته وتحقيق التقوى له، وإخلاص الإيمان والعمل له، وملازمة سبيل نبيه ﷺ والمؤمنين.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ ". قَالَ: "فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى عليه السلام: أَنَّ هَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ، أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي أَوِ الْمُنْتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ،**

(١) طريق الهجرتين (ص: ٥٩٨)

فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ "(١)

عَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْجِعْلاَنِ الَّتِى تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ »(٢)

وهذه الأحاديث تبطل دعوى الانتساب إلى الفراعنة ودعوى الانتماء إلى القدماء المصريين الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من شمس وقمر ونجوم وغيرها ،وتبطل أيضاً دعوى الانتساب إلى الشيوعية والماركسية والاشتراكية والعلمانية والليبرالية وغيرها من الأحزاب والدعوات الجاهلية.

وهذا النور القرآني والقبس من نورالنبوة إذا غاب عن القلوب رأيتها عمياء تتخبط في ظلمات الجهل والتبعية والذل والانخراط والارتماء في أحضان الغرب المستعمر، فاسمع إلى صبيان الغرب وأذنابهم ممن تسمى بأسماء المسلمين؛ لكنه عاش بين أعدائنا فأكل من طعامهم وسكر من شرابهم وامتلأ عقله وقلبه بل واختلط اللحم والدم من أفكارهم وثقافاتهم وعاداتهم، فرجعوا إلى ديار المسلمين يتكلمون بألسنة أسيادهم لا ألسنتنا، وينشرون أفكارهم المسمومة في مناهجهم ومقالاتهم وكتبهم، ويريدون لأبناء هذه الأمة المباركة أن ينسلخوا من دينهم ومعتقداتهم وأفكارهم وآدابهم الإسلامية كما انسلخوا هم من قبل ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ [القلم: ٩].

---

(١) أحمد (٣٥/ ١١٠رقم ٢١١٧٨) ، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٩رقم ٢٨٤)
(٢) أحمد (١٤/ ٣٤٩رقم ٨٧٣٦)، وأبو داود (٤/ ٤٩٢رقم ٥١١٨)

يقول طه حسين الأعمى: (إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين و ستبقى كذلك بل يجب أن تبقى وتقوى و المصري فرعوني قبل أن يكون عربياً ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها و إلا كان معنى ذلك: اهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام وانسي نفسك واتبعينا لا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطي مصر لن تدخل في وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد و أؤكد قول أحد الطلبة القائل:

" لو وقف الدين الإسلامي حاجزاً بيننا و بين فرعونيتنا لنبذناه ") اهـ.

ومنه قوله في مجلة " كوكب الشرق " (١٢ أغسطس ١٩٣٣):

(لم أكن في اللجنة التي وضعت الدستور القديم ولم أكن بين الذين وضعوا الدستور الجديد و لم يستشرني أولئك وهؤلاء في هذا النص الذي اشتمل عليه الدستوران جميعاً و الذي يعلن أن للدولة المصرية ديناً رسمياً هو الإسلام ولو قد استشارني أولئك وهؤلاء لطلبت إليهم أن يتدبروا و أن يتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص في الدستور) اهـ.

ومن ذلك قوله: (علينا أن نسير سيرة الأوربيين و نسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً فنأخذ الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب) اهـ.

 وقال تعالى ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ

أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥١ – ٥٣].

وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك، وريب، ونفاق ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك، عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ قال السُّدِّي: يعني فتح مكة. وقال غيره: يعني القضاء والفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قال السُّدِّي: يعني ضرب الجزية على الموالاة ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾ أي: على ما كان منهم، مما لم يُجْد عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم محذورًا، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا، وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم. فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

٢٧ ـ التربص بالمؤمنين وتمني الأذى لهم، وانتظار ذهاب دولتهم :

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى

ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: نصر وتأييد وظَفَر وغنيمة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ ؟ أي: يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان، كما وقع يوم أحد، فإنّ الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ؟ أي: ساعدناكم في الباطن، وما ألوناهم خبالا وتخذيلا حتى انتصرتم عليهم.

وقال السدي: ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ نغلب عليكم، كقوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩] وهذا أيضًا تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، وقلة إيقانهم.

قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: بما يعلمه منكم -أيها المنافقون-من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرًا في الحياة الدنيا، لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويُحَصَّل ما في الصدور.

وعن ابن عباس في قوله:﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قال: ذاك يوم القيامة.وكذا روى السدي عن أبي مالك الأشجعي: يعني يوم القيامة. وقال السدي: (﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟) أي: حجة(١).

فحملات التخذيل والتشويه والإسقاط، وسياسة الهدم التي ينتجها

(١) تفسير ابن كثير [٢ / ٤٣٦] بتصرف .

المنافقون ليست حديثة الصنع، ولم يكن لدى المنافقين في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية التي حاولت التخلص من نير الظلم والقهر وتحكيم القوانين الغربية الوضعية الاستعمارية وأرادت الرجوع إلى حظيرة الإسلام وتحكيم شريعته في كل مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والخارجية وغيرها ، أقول: لم يكن لديهم براءة اختراع فيما جاءوا به من تلك الحملات المغرضة التي ليس لها هدف إلا هدف واحد ألا وهو إسقاط الأحزاب الإسلامية والمشاريع الإسلامية وتشويه التيارات الإسلامية وتقديمها كأسوأ نظام للمجتمع، وحمل الناس طوعـًا أو قهراً على نبذ الإسلاميين ومشاريعهم ومحاولات الإصلاح التي يقومون بها.

فهذه سنة المنافقين في كل العصور مع الدولة الإسلامية: التربص بها وتدشين الغارات والإشاعات وموجات العمالة المغلفة والتنظيمات السرية والاتفاقات الباطنية ضدها.

٢٨ـ التكاسل عن الصلاة والتهاون في حقها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤].

" هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمانَ لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها "(١)

(١) تفسير ابن كثير [٢ / ٤٣٨]

فقوله: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: في صلاتهم لا يخشعُون فيها ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون.

كما عند مسلم من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَىْ شَيْطَانٍ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لاَ يَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً** ».

ولذلك فإنهم يكرهون الصلاة وهي ثقيلة عليهم لا يطيقونها وودوا لو تركوها وهي كبيرة عليهم قال الله ﷻ : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ البقرة: ٤٥

وفي الصحيح عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:« **إِنَّ أَثْقَلَ الصَّلاَةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلاَةُ الْعِشَاءِ، وَصَلاَةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا** »

وعند البخاري:« **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ** »(١).

وجملة المنافقين وإن كانوا يؤدون الصلاة لكنهم يفعلونها كحركات لا يصل منها شيء إلى قلوبهم فـ (" الصلاة نفسها " إذا فعلها كما أمر فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ كما روي عن ابن مسعود وابن عباس: إن في الصلاة منتهى ومزدجرا عن معاصي الله فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم

(١) المرماة ظِلْف الشَّاة لأنه يُرْمَى به.

يزدد بصلاته من الله إلا بعدا ". وقوله: " لم يزدد إلا بعداً " إذا كان ما ترك من الواجب منها أعظم مما فعله، أبعده ترك الواجب الأكثر من الله أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل، وهذا كما في " الصحيح " (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَىْ شَيْطَانٍ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لاَ يَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً** »).

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

وفي السنن عن عمار رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « **إِنَّ الْعَبْدَ لَيَنْصَرِفُ من صَلاَتِهِ وما كُتِبَ له منها إِلاَّ عُشْرُهَا أو تُسْعُهَا أو ثُمُنُهَا أو سُبُعُهَا أو سُدُسُهَا أو خُمُسُهَا أو رُبُعُهَا أو ثُلُثُهَا أو نِصْفُهَا** » وعن ابن عباس قال: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها (١)

فتضيع الصلاة بتركها بالكلية أو بأداء بعضها وترك بعضها ، أو تأخيرها عن أوقاتها، أو التهاون في حقوقها من إكمال طهارتها وخشوعها وركوعها وسجودها = كل ذلك من أخص علامات المنافق، وإذا كانت الصلاة على عظم قدرها ومنزلتها في الإسلام، وهي أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة، وهي الفارقة بين الرجل وبين الكفر = إذا كانت مضيعة عند المنافق لا يقيم لها وزناً ولا يحافظ عليها فهو لما سواها ـ من فرائض وشعائر الإسلام ـ أضيع وأشد تفريطاً.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٠، ٣١)

ومن ثم فقد وعد هذا الصنف من الناس بالعذاب والنكال فقال ﷻ:

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الماعون: ٤ – ٥].

وقال ﷺ: " **أَسْرَقُ النَّاسِ الَّذِي يَسْرِقُ صَلَاتَهُ** " قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَسْرِقُ صَلَاتَهُ ؟ قَالَ: " **لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا، وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ** "(١).

وقال ﷺ: " **لَا يَنْظُرُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – إِلَى صَلَاةِ عَبْدٍ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِيمَا بَيْنَ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا** "(٢).

وعن حذيفة أنه رَأَى رَجُلًا لَا يُتِمُّ رُكُوعَهُ وَلَا سُجُودَهُ فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ مَا صَلَّيْتَ قَالَ وَأَحْسِبُهُ قَالَ: لَوْ مُتَّ مُتَّ عَلَى غَيْرِ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ (٣)

وقال ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ تَعَالَى مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلاَّهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**»(٤). وجعلت

---

(١) الطبراني في الأوسط المعجم الصغير – الطبراني (١/ ٢٠٩رقم ٣٣٥) وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله ثقات.
(٢) أحمد (١٦/ ٤٦٥رقم ١٠٧٩٩)
(٣) البخاري (١/ ٨٧رقم ٣٨٩)
(٤) أبو داود (١/ ١٦٣رقم ٤٢٥) ، و ابن ماجه (١/ ٤٤٩رقم ١٤٠١)

الصلاة علامة على المنافق قال أبو هريرة سمعت النبي ﷺ: «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ**»(١)

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنَ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»(٢)

لكن المؤمن أشد حبًا للصلاة، وأشد تعظيما لحقها ولشأنها، وهو يشتاق للصلاة ويحن إليها كما تشتاق الأم إلى ولدها فعن أبي هريرة عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ...**»(٣)

---

(١) البخاري (١/ ١٣٢رقم ٦٥٧)، ومسلم (١/ ٤٥١رقم ٦٥١)
(٢) مسلم (١/ ٤٥٣رقم ٦٥٤)
(٣) البخاري (١/ ١٣٣رقم ٦٦٠)، ومسلم (٢/ ٧١٥رقم ١٠٣١)

وكان ﷺ يقول « **يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا** »(١).

وقال: «**إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِيَ فِي الصَّلاَةِ** »(٢)

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: ما دخل وقت صلاة حتى أشتاق إليها.

وقال:ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت، إلا وأنا على وضوء.

وقيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر في منزله ؟ **قال**: لا تطيقونه، الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما.

وكان عبد الله بن الزبير إذا قام إلى الصلاة كأنه عود، وحدث أن أبا بكر كان كذلك.

وكان يصلي في الحجر ـ حجر إسماعيل في الكعبة ـ والمنجنيق يصيب ثوبه فما يتلفت.

وعن ابن المسيب قال: ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة.

وقال: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد.

ومسروق: حج البيت فما بات إلا ساجداً.

والمؤمن أحسن الناس في صلاته وأشدهم خشوعـًا:

قيل لعامر بن قيس رضي الله عنه: أما تسهو في صلاتك ؟ قال: أوَ حديث أحب إلى

(١) أبوداود (٤/ ٤٥٣رقم ٤٩٨٧)
(٢) أحمد (٢١/ ٤٣٣رقم ١٤٠٣٧)، والنسائي (٧/ ٧٤رقم ٣٩٥٠)

من القرآن حتى أشتغل به ! هيهات ! مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس.

وقال زبيد اليامي: رأيت زاذان ـ يعني: الكندي ـ يصلي كأنه جذع.

وكان زين العابدين عليُّ بن الحسين إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له، فقال: أتدرون بين يدي من أقوم، ومن أناجي ؟!

وأما حبهم للصلاة وللإكثار منها فشيء عجب:

قال ﷺ: " **الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ** ".

كان ابن عمر يحي ما بين الظهر إلى العصر صلاة.

وكان أبوسفيان بن الحارث يصلي في الصيف نصف النهار حتى تكره الصلاة، ثم يصلي من الظهر إلى العصر.

وكان مرة الهمداني يصلي في اليوم والليلة ستمئة ركعة.

وعمير بن هانئ التابعي الجليل كان يصلي كل يوم ألف ركعة، ويسبح مائة ألف تسبيحة.

وكذا الأسود بن يزيد النخعي قال عنه الذهبي: ورد أنه كان يصلي في اليوم والليلة سبعمئة ركعة (١).

ووهب بن منبه لبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً.

وأما طول الصلاة؛ فقد كان سعيد بن جبير يدخل الكعبة فيقرأ القرآن كله في ركعة، وثبت ذلك عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهذا مسلم بن يسار قال عنه ابن

---

(١) "العبر" (١/ ٨٦) .

عون: رأيت مسلم بن يسار يصلي كأنه وتدٌ لا يميل، على قدم مرة ولا على قدم مرة.

وما ذكرته إنما هو كقطرة من بحر أو ذرة من رمل ما حكي عن السلف في تعظيم قدر الصلاة والاهتمام بشأنها ووصف ما أثر عنهم في ذلك، لكني أردت فقط التذكير ببعض حالهم مقارنة بحال أهل النفاق عافانا الله وإياك وجميع المسلمين من النفاق.

٢٩ ـ المسارعة في الكفر والرضخ له:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: ٤١].

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ﷺ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي: يستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد ﷺ. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهُونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾

أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾

قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلا وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد ﷺ، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت في اليهوديَّيْن اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله ﷻ الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحْصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله ﷻ، ويكون نبي من أنبياء الله ﷻ قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك(١)

٢٨و٢٩و٣٠ ـ عدم التوكل وضعف اليقين وسوء ظنهم بالله تعالى:

قال تعالى:﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

وهذا كان يوم بدر فإنه لما دنا القوم بعضهم من بعض كان من حكمته سبحانه أن قلل عدد المشركين في أعين المسلمين، وقلل المسلمين في أعين المشركين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكَهُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ

(١) تفسير ابن كثير [٣ / ١١٣]

أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: ٤٤].

فكان ذلك فتنة لقوم من المنافقين كانوا قد أقروا بالإسلام، وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر يكثرون عددهم، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا للمؤمنين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، وإنما صدر منهم مثل هذا بسبب خور إيمانهم، وعدم توكلهم على الله ﷻ فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على اللّه، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا باللّه تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه اللّه عليه، وعلم أنه على الحق، وأن اللّه تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقا بربه، مطمئن القلب لا فزعا ولا جبانا،.ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب قوته قوة. ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما قضاه وأجراه »(١).

واليقين والتوكل هما قطبا الإيمان؛ قال تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢]

وقد كرر هذا الموضع تسع مرات في كتابه ليدل على مكانة التوكل في الإيمان.

وقال ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ

(١) تفسير السعدي (ص: ٣٢٢)

ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١].

وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [لقمان: ٤].

وقال ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة: ٤].

وقال ﷻ: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢].

وعدم التوكل وضعف اليقين في موعود الله تعالى يوجبان للقلب سوء الظن بالله تعالى؛ فإن حقيقة التوكل هي: اعتماد القلب على الله في جلب النفع ودفع الضر، وحقيقة اليقين: الاعتقاد الجازم المطابق الثّابت، أي الّذي لا يزول بتشكيك المتشكّك.

يقول بهاء الدين الأميري في صاحب اليقين:

ولا يرى من فزع رهن أسى يقينه كالطود في القلب رسا
يبصر في غور الخطوب قبسا من نصرة الله إذا ما استيأسا

ولذا استحق الكافرون والمنافقون عذاب الله تعالى وغضبه لسوء ظنهم بالله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

واجتماع هذه الثلاثة تفسد القلب وتفسد العمل، قال الحسن البصري: ليس

الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، وإن قومًا خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، قالوا: نحسن الظن بالله. وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل !.

وأما المنافق فقد عري عن ذلك كله، فلا تصور ولا اعتقاد للحق ولا اعتماد للقلب على الله ﷻ

قال تعالى:﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

والصبر واليقين شرطان للإمامة في الدين يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

والمؤمنون أحسن ظنًا بالله ﷻ وأحسن الناس عملاً؛ لأجل هذا استحقوا معية الله ﷻ فعن أبي هريرة قال قال النَّبِيُّ ﷺ : «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»(١)

وفي لفظ أحمد: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ**»(٢)

وكما يوجب سوء الظن بالله سوء العمل؛ فإن حسن الظن يوجب للعبد

---

(١) البخاري (٩/ ١٢١رقم ٧٤٠٥)

(٢) مسند أحمد – الرسالة (١٥/ ٣٥رقم ٩٠٧٦)

حسن العمل والاجتهاد فيه

تجـــودُ بالمـــالِ علـــى وارثٍ ولا تـــرى أَهـــلاً لـــه نفْسَـــكَا
قَـــدَّمَ حُسْـــنَ الظـــنِّ بـــاللهِ مَـــنْ جـــادَ، وســـوءَ الظـــنِّ مَـــنْ أمسَـــكَا

عن جابر قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**»(١)

وعن حيان أبي النضر قال: دَخَلْتُ مَعَ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ عَلَى أَبِي الْأَسْوَدِ الْجُرَشِيِّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَجَلَسَ قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو الْأَسْوَدِ يَمِينَ وَاثِلَةَ فَمَسَحَ بِهَا عَلَى عَيْنَيْهِ، وَوَجْهِهِ لِبَيْعَتِهِ بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ وَاثِلَةُ: وَاحِدَةٌ، أَسْأَلُكَ عَنْهَا ؟ قَالَ: وَمَا هِيَ ؟ قَالَ: كَيْفَ ظَنُّكَ بِرَبِّكَ ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ: وَأَشَارَ بِرَأْسِهِ، أَيْ حَسَنٌ قَالَ وَاثِلَةُ: أَبْشِرْ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " **قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ** "(٢)

٣١ ـ استثقال الطاعة والتباطؤ عنها وعدم الاستئناس بها:

وهذا الصفة من أظهر علامات النفاق؛ فالمنافق يتكاسل و يتباطأ عن أداء الطاعات؛ لأنه يدعي الإيمان باللسان فقط، وإذا قام بأداء طاعة فإنه يفعلها ساهيًا غافلاً عن حقوقها، فلا تجده يأنس بطاعة ولا يتلذذ بها ، وقد وصف القرآن حال المنافقين في رؤوس الطاعات بأسوأ حال وأخبثه:

ففي الصلاة يقول تعالى عنهم :﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا

(١) مسلم (٤/ ٢٢٠٥ رقم ٢٨٧٧) ، وأبو داود (٣/ ١٥٨ رقم ٣١١٥)
(٢) أحمد (٢٥/ ٣٩٨رقم ١٦٠١٦) و ابن حبان (٢/ ٤٠١رقم ٦٣٣) وهو في «الصحيحة» (رقم : ١٦٦٣).

يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

وقال أيضًا: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون: ٤ - ٧]

وقال: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

وعن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**»(١)

وفي الزكاة قال عنهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وفي الصدقة قال عنهم: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

وفي الجهاد قال عنهم: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

---

(١) مسلم (١/ ٤٣٤رقم ٦٢٢)، والترمذي (١/ ٣٠١رقم ١٦٠)

وقال:﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة: ٨١].

وفي الذكر قال عنهم: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال:﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المجادلة: ١٩].

وفي الإخلاص قال عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون: ٦]

وفي التوبة والاستغفار قال عنهم:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون: ٥].

وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال عنهم: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة: ٦٧].

وفي نقض العهد معه سبحانه قال عنهم: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة: ٧٥ – ٧٧].

وفي الولاء والبراء قال عنهم:﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة: ١٤]، وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى

ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥١ – ٥٢].

وفي التحاكم لشرعه قال عنهم:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء: ٦١].

وفي حفظ الأمانة ووفاء العهد وصدق الحديث قال ﷺ عنهم: **" آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ "**

وفي الجملة فإن المنافق لا يقيم للطاعة وزنـًا بل هو منصرف عنها بالكلية، وإن قام بها فإنه يكون مشغولا عنها غير ناهض بحقوقها وواجباتها، فلا يأنس بطاعة ولا يجد في قلبه لذة الإيمان ! فيجد من الضنك والضيق وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازته وغمه وهمه وحزنه وخوفه ما يحمله على بغض الطاعة والنفرة عنها وهجرها إن أمكنه ذلك و إلا فإنه يؤديها حركات جوفاء كحركة عابثٍ!

أما المؤمن فإنه يحب طاعة الله ﷻ ويقوم لها بنشاط وجدٍّ غير مقصرٍ ولا متوانٍ ولا متراخٍ؛ وذلك لما يجده من أنس الطاعة ولذتها؛ فتجده دائما مشتاقـًا لمحراب الطاعات مسارعـًا إليه؛ بل إنه لا يقوى على مفارقته كالسمك لا يستطيع مفارقة الماء الذي هو سبب حياته ، فإن سعادته وانشراح صدره وجنته في طاعة الله ﷻ يقول ابن القيم:

« سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري إن رحت

فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله.

وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه !

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾!

وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا وأشرحهم صدرا ، وأقواهم قلبا وأسرهم نفسا ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها !

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه

لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ! قيل: وما أطيب ما فيها ؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره أو نحو هذا.

وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب !

فمحبة الله تعالى ومعرفته ، ودوام ذكره والسكون إليه ، والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء ، والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم وهو قوة عين المحبين وحياة العارفين ، وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله ﷻ فمن قرت عينه بالله ﷻ قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله ﷻ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات»(١)

٣٢ ـ ابتغاء الفتنة وإلقاء الخلاف ونشر الشائعات في المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٧ – ٤٨].

«أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ و الخبال: الفساد و الاضطراب، فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم فأوقعوا بينهم الاضطراب

(١) الوابل الصيب (ص: ٦٧)

والاختلاف، قال ابن عباس: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾: عجزا و جبنا، يعني: يجبنوهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم و تعظيمهم في صدورهم.

ثم قال: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾أي: أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد.

قال ابن عباس: يريد ضعفوا شجاعتكم ، يعني بالتفريق بينهم لتفريق الكلمة فيجبنوا عن العدو.

وقال الحسن: لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين.

وقال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيب.

﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ **قال قتادة:** وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم.

وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم.

ومعناه على هذا القول: وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم.

قلت: فتضمن سمَّاعين معنى مستجيبين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: المعنى وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم أي جواسيس! والقول هو الأول كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: قابلون له ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين؛ فان المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين ينزلون معهم ويرحلون ويصلون معهم،

ويجالسونهم ولم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم؛ فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها وأرصد بينهم عيوناً له فالقول قول قتادة وابن إسحاق. والله أعلم»[١]

فالمنافقون يقومون بحملات لنشر الشائعات ومحاولات إرجاف المجتمع المسلم وتخويفه من أعدائه، فأساؤا من وجوه: الأول: حين ضخموا حجم العدو وهولوا من شأنه وقوته وعتاده، والثاني: حين حقروا من قوة المسلمين وقللوا من عددهم وعدتهم، والثالث:قيامهم بنشر الخلافات والشقاق بغية توهين الصف المسلم، والرابع: ترويج الإشاعات والأراجيف بكل ما أوتوا من قوة البيان والحجة حتى ينخدع بهم بعض المؤمنين الصادقين في إيمانهم.

❐ المنافق يبتغي الفتنة

شاع في الآونة الأخيرة[٢] نوع من البرامج الحوارية، حيث يستضيف مذيع ما عالماً أو شيخاً أو داعية، ويوجه له أسئلة وفتاوي واستشارات وآراء ، هذه كلها تمثل في حقيقتها شباكاً وفخاخاً لهذا الضيف، ولا يزال المذيع يدير الحديث ويقلب الكلام حتى يوقع الداعية أو العالم في (ورطة) لا مخرج منها أمام الجمهور المشاهد للحوار عبر الشاشات، والذي يكون أغلبه من العوام الجهال الذين لا علم لهم بالدين ولا بالفتوى الشرعية ، إنما يحكمون بصحة الأشياء أو خطئها بمجرد العاطفة وما يناسب هواهم ، ولأن مثل هذه الحوارات تحبك أسئلتها بدقة متناهية وتلقي بشكل مثير ومستفز، مع قطع لكلام

---

(١) التفسير القيم لابن القيم (١/ ١٧٦).

(٢) خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير في مصر ومثيلاتها في الوطن العربي .

المتحدث وإخراجه عن حديثه وتشتيت أفكاره مع فتح المجال لمحاور آخر مناؤى للتيار الإسلامي، وفي النهاية تتحول هذه اللقاءات والحوارات إلى جرعة قوية من الشبهات والتلبيسات على المشاهد، والقصد من وراء ذلك كله: تشويه صورة الدين، وحمل الناس على معاداة وبغض التيارات الإسلامية فضلاً عن تشويه صورة العالـم أو الداعية، إلى غير ذلك من المقاصد الخبيثة الحقيرة من وراء هذه البرامج، ولا شك أبداً في حرمة كثيرة من هذه البرامج؛ لأن القصد من وراء الجدال العقيم والقصد الخبيث وتمرير أفكار و تصورات للمشاهد تصب كلها في مصلحة التيارات المعادية للمشروع الإسلامي والفكرة الإسلامية، وإن زعم مديروها وتشدقوا بحسن نيتهم وصلاح مقاصدهم، وهم في الحقيقة حرب على الإسلام، وليس العجب من هؤلاء المنافقين الذين يبغضون الإسلام وأهله ولكن العجب من بعض رموز التيارات الإسلامية والذين كانوا يتورطون في هذه اللقاءات وينجرفون وراء تلك الخزعبلات المسماة بالبرامج، حتى أصبح بعض هؤلاء (طُعْمًا) لهذه الثلة الخبيثة من الإعلاميين والصحفيين، حتى غدت التيارات الإسلامية أضحوكة وسبباً للفكاهةوللسخرية من تلك الشرذمة الخبيثة، وكان ينبغي أن تهجر هذه القنوات وتلك البرامج بدلا من التواصل والتعامل معها أسوة بالفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فعن نافع مولى ابن عمر أَنَّ صَبِيغًا الْعِرَاقِيَّ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي أَجْنَادِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَدِمَ مِصْرَ، فَبَعَثَ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمَّا أَتَاهُ الرَّسُولُ بِالْكِتَابِ فَقَرَأَهُ فَقَالَ: أَيْنَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: فِي الرَّحْلِ، قَالَ عُمَرُ: «أَبْصِرْ أَنْ يكونَ ذَهَبَ فَتُصِيبَكَ مِنِّي بِهِ الْعُقُوبَةُ الْمُوجِعَةُ»، فَأَتَاهُ بِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «تَسْأَلُ مُحْدَثَةً»، فأرْسلَ عُمَرُ إِلَى رَطَائِبَ مِنْ جَرِيدٍ، " فَضَرَبَهُ بِهَا حَتَّى تَرَكَ ظَهْرَهُ دَبِرَةً، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ، ثُمَّ عَادَ لَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ،

فَدَعَا بِهِ لِيَعُودَ لَهُ، قَالَ: فقالَ صَبِيغٌ: إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ قَتْلِي، فَاقْتُلْنِي قَتْلًا جَمِيلًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُدَاوِيَنِي، فَقَدْ وَاللهِ بَرَأْتُ، فَأَذِنَ لَهُ إِلَى أَرْضِهِ، وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ لَا يُجَالِسَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ، فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَرَ: أَنْ قَدْ حَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، فَكَتَبَ عُمَرُ: أَنِ ائْذَنْ لِلنَّاسِ بِمُجَالَسَتِهِ». (١)

وعن عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن "الأنفال"، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الفرس من النَّفل، والسلب من النفل. ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضا. ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُحرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب !

« وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام، كما قال النبي ﷺ: (**فَإِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرْهُمْ**)، وكما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد، كالذي يعارض بين آيات القرآن، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال: (**لا تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ فَإِنَّ ذَلكَ يُوقِعُ الشَّكَ فِي قُلُوبِكُم**). ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذي لا يعلمه إلا اللّه، فكان مقصودهم مذمومًا ومطلوبهم معتذرًا مثل أغلوطات المسائل التي نهى رسول الله ﷺ عنها»(٢).

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٢٥٤رقم ١٥٠) ، ومالك في الموطأ موطأ (٢/ ٤٥٥رقم ١٩)
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (٢/ ٢٧٠)

٣٣ـ الشح وبغض الصدقة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقال تعالى في آخر سورة المنافقون:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

إن المنافق لم يحسن ما بينه و بين الله تعالى من عبادة فأساء في جنب الله فلم يؤد الصلاة كما ينبغي ولم يجاهد، ولم يسلم لله قلبه؛ هذا في جنب الله وأما في حق المخلوقين فإنه أساء أيضا؛ فالمنافق يكره الزكاة والصدقة والماعون؛ وإذا أخرج شيئا من ذلك فبكره منه؛ وضيق صدر كأنما يوسع عن نفسه سلاسل وأغلالا فلا تتوسع كما في الحديث عَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال النبي ﷺ: « **مَثَلُ الْمُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ أَوْ جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ لَدُنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَإِذَا أَرَادَ الْمُنْفِقُ أَنْ يُنْفِقَ سَبَغَتْ عَلَيْهِ الدِّرْعُ أَوْ مَرَّتْ حَتَّى تُجِنَّ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَإِذَا أَرَادَ الْبَخِيلُ أَنْ يُنْفِقَ قَلَصَتْ عَلَيْهِ وَلَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَوْضِعَهَا حَتَّى أَخَذَتْ بِعُنُقِهِ أَوْ بِتَرْقُوَتِهِ فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَهِيَ لاَ تَتَّسِعُ فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَهِيَ لاَ تَتَّسِعُ** »(١).

---

(١) متفق عليه .

جبتان من حديد : قد جاء في الحديث جبتان – أو جنتان، بالباء والنون، فالجبة بالباء : معروفة، وبالنون: الوقاية.[ص:٤٤٩]

تراقيهما : التراقي جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق.

يعفو أثره : عفا الأثر : إذا امحى، وعفوت أثره : إذا محوته، يتعدى ولا يتعدى.

قلصت : قلص العضو : إذا قصر واجتمع، وكذلك الثوب.

=

وقد جمع الله تعالى بين هاتين الصفتين في كتابه في عدة مواضع منها:قول الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ٤ – ٧].

قال ابن عباس، وغيره: يعني المنافقين، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر.

" وقوله: ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧ ﴾ أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أولى وأولى "(١).

٣٤ـ المنافق انتهازي فوضوي

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون: ٧].

مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٩)

وقال في وصفهم بالشح: "وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون". فهذه حال من أنفق كارها فكيف بمن ترك النفقة رأسا وقال: "ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون" وقال: ﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ

=

لدن : بمعني : عند، إلا أنه أقرب مكانا من عند.
تجن بنانه : البنان : الأنامل، وأجنها، أي : غطاها وسترها.
(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٩٥)

﴿ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾. وقال في السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾. فانتظمت هذه الآية حال من أخذ المال بغير حقه أو منعه من مستحقه من جميع الناس؛ فإن الأحبار هم العلماء والرهبان هم العباد. وقد أخبر أن كثيرا منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون - أي يعرضون ويمنعون. يقال: صد عن الحق صدودا وصد غيره صدا. وهذا يندرج فيه ما يؤكل بالباطل: من وقف أو عطية على الدين كالصلاة والنذور التي تنذر لأهل الدين ومن الأموال المشتركة كأموال بيت المال ونحو ذلك. فهذا فيمن يأكل المال بالباطل بشبهة دين. ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فهذا يندرج فيه من كنز المال عن النفقة الواجبة في سبيل الله. والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله سواء كان ملكا أو مقدما أو غنيا أو غير ذلك. وإذا دخل في هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب فما كنز من الأموال المشتركة التي يستحقها عموم الأمة - ومستحقها: مصالحهم - أولى وأحرى.

٣٥ ـ إيذاء النبي والمؤمنين:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

قال مجاهد: [هو أذن] يقولون: سنقول ما شئنا ثم نحلف له فيصدقنا

و قال الوالبي عن ابن عباس: [يعني: أنه يسمع من كل أحد]

قال بعض أهل التفسير: [كان رجال من المنافقين يؤذون رسول الله صلى الله عليه و سلم و يقولون ما لا ينبغي فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا فإنما محمد أذن سامعة] فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة: ٦١]

و قال ابن اسحاق: كان نبتل بن الحارث الذي قال النبي صلى الله عليه و سلم فيه: [من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث] ينم حديث النبي إلى المنافقين فقيل له: لا تفعل فقال: إنما محمد أذن من حدثه شيئا صدقه نقول ما شئنا ثم نحلف له فيصدقنا عليه فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة: ٦١]

و قولهم [أذن] قالوا: ليتبينوا أن كلامهم مقبول عنده فأخبر الله أنه لا يصدق إلا المؤمنين و إنما يسمع الخبر فإذا حلفوا له فعفا عنهم كان ذلك؛ لأنه أذن خير لا لأنه صدقهم.

قال سفيان بن عيينة: [أذن خير يقبل منكم ما أظهرتم من الخبر و من القول و لا يؤاخذكم بما في قلوبكم و يدع سرائركم إلى الله تعالى و ربما تضمنت هذه الكلمة نوع استهزاء و استخفاف] (١)

---

(١) الصارم المسلول (ص: ٣٤)

٣٦ـ الجبن والهلع:

"وأما وصفهم بالجبن والفزع فقال تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾. فأخبر سبحانه أنهم وإن حلفوا إنهم من المؤمنين فما هم منهم؛ ولكن يفزعون من العدو.

فـ ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ يلجئون إليه من المعاقل والحصون التي يفر إليها من يترك الجهاد أو (مغارات وهي جمع مغارة. ومغارات سميت بذلك لأن الداخل يغور فيها أي يستتر؛ كما يغور الماء. أو مدخلا وهو الذي يتكلف الدخول إليه إما لضيق بابه أو لغير ذلك. أي مكانا يدخلون إليه. ولو كان الدخول بكلفة ومشقة (لولوا عن الجهاد ﴿ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يسرعون إسراعا لا يردهم شيء كالفرس الجموح الذي إذا حمل لا يرده اللجام.

وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين في حادثتنا وفيما قبلها من الحوادث وبعدها. وكذلك قال في " سورة محمد " ﷺ ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي فبعدا لهم ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ وقال تعالى. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد. وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾. فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول في ترك الجهاد؛ وإنما يستأذنه الذي

لا يؤمن فكيف بالتارك من غير استئذان ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى"(١).

مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٥)

قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ ﴾. قال العلماء: كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة فإذا جاءهم أحد قالوا له: ويحك اجلس فلا تخرج. ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر: أن ائتونا بالمدينة فإنا ننتظركم. يثبطونهم عن القتال. وكانوا لا يأتون العسكر إلا ألا يجدوا بدا. فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم. فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة. فانصرف بعضهم من عند النبي ﷺ فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونبيذ. فقال: أنت ههنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف ؟ فقال: هلم إلي فقد أحيط بك وبصاحبك. فوصف المثبطين عن الجهاد – وهم صنفان – بأنهم إما أن يكونوا في بلد الغزاة أو في غيره فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل أو بهما. وإن كانوا في غيره راسلوهم أو كاتبوهم: بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة ليكونوا معهم بالحصون أو بالبعد... فإن أقواما في العسكر والمدينة وغيرهما صاروا يعوقون من أراد الغزو وأقواما بعثوا من المعاقل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلم إلينا قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ أي بخلاء عليكم بالقتال معكم والنفقة في سبيل الله. وقال مجاهد: بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة. وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله أو شح عليهم بفضل الله: من نصره ورزقه الذي

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٧)

يجريه بفعل غيره. فإن أقواما يشحون بمعروفهم وأقواما يشحون بمعروف الله وفضله. وهم الحساد.

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ من شدة الرعب الذي في قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزع. فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره ولا يطرف. فكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل" مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٨)

قال تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾. فوصفهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنهم لفرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد. وهذه حال الجبان الذي في قلبه مرض. فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف وتكذيب خبر الأمن. **الوصف الثاني**: أن الأحزاب إذا جاءوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم؛ بل يكونون في البادية بين الأعراب يسألون عن أنبائكم: إيش خبر المدينة ؟ وإيش جرى للناس ؟. **والوصف الثالث**: أن الأحزاب إذا أتوا وهم فيكم لم يقاتلوا إلا قليلا.

٣٧، ٣٨ ـ الرياء بالأعمال الصالحة وحب الظهور بها :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [النساء: ١٤٢]

أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم وهذا مصدر أعمالهم، مراءاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم ولا يخلصون لله.

وليت المنافق يراءي في نوافل الطاعات؛ فإن غاية ما هنالك ـ مع حصول الذم ـ أن يحبط ثوابه فيها، لكنه يراءي في فروض الطاعات وهذا من غاية القبح والظلم، "فإن مراءاة الناس في العبادات المختصة كالصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن من أعظم الذنوب قال الله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٤٢ ﴾.

فأما المرائي بالفرائض فكل أحد يعلم قبح حاله وأن الله يعاقبه لكونه لم يعبده مخلصا له الدين والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ فهذا في القرآن كثير.

وأما المرائي بنوافل الصلاة والصوم والذكر وقراءة القرآن: فلا يظن الظان أنه يكتفى فيه بحبوط عمله فقط بحيث يكون لا له ولا عليه بل هو مستحق للذم والعقاب على قصده شهرة عبادة غير الله إذ هي عبادات مختصة ولا تصح إلا من مسلم ولا يجوز إيقاعها على غير وجه التقرب بخلاف ما فيه نفع العبد كالتعليم والإمامة فهذا في الاستئجار عليه نزاع بين العلماء والله أعلم.(١)

وعن قتادة قال: والله لولا الناس ما صلى المنافق ولا يصلي إلا رياء وسمعة

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٠٦، ٥٠٧)

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ ﴾ [الماعون: ٤ -٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ۝١١٠ ﴾ [الكهف: ١١٠].

عن أَبِي مُوسى الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"مَثَلُ الْمُؤمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ؛ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ؛ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطعْمُهَا مُرٌّ؛ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ "**(١)

وأنت تلحظ من قراءتك لهذا الحديث أن المنافق الذي يقرأ القرآن قد شبهه النبي ﷺ بالريحانة ريحها طيب وطعمها مر؛ وإنما أشار بالطعم إلى الإيمان؛ وبالرائحة إلى القرآن؛ فالمنافق لما كان مضيعا للإيمان وكان قلبه خربا بلقعا من الإيمان؛ صار محطًّا للرذائل والنجاسات، وبقي الظاهر جميلاً حسنًا أمام الناس؛ فالقرآن إذن قد نفع المنافق في تجميل صورته الظاهرة فقط والتي عبر عنها بالرائحة، والتعبير عن صورة الظاهر بالرائحة من أبلغ التشبيه؛ فكما أن المنافق يقرأ القرآن لا يجاوز تراقيه ولا يصل إلى قلبه الممتلىء خبثًا ونفاقًا فيشفي ما فيه من أمراض ويطهر ما فيه من قذرات ونجاسات؛ فكذلك الرائحة تجمل ظاهر الإنسان وإن كان يحمل في بطنه القذارات والنجاسات، ولما كان معول الأعمال وأصلها على القلب انتهى حال المنافقين إلى أحط وأرذل المواضع وأهونها.

---

(١) البخاري [٧ / ٧٧رقم ٥٤٢٧]

ومنه قول الله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[الأنفال: ٤٧]

٣٩ـ قلة ذكر الله تعالى

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢]

عن الحسن في قوله: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ قال: إنما قلَّ لأنه كان لغير الله.

وعن قتادة قال: إنما قلَّ ذكر المنافق؛ لأن الله لم يقبله وكل ما رد الله قليل وكل ما قبل الله كثير.

وأخرج ابن المنذر عن علي قال: لا يقلُّ عمل مع تقوى وكيف يقل ما يُتقبل!(١)

إن المنافق قد اضطرب قلبه وأظلم عليه فلا يطمئن بذكر الله تعالى كما يطمئن قلب المؤمن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]

فالذكر فيض رحمة لقلب المؤمن؛ وهو سوط عذاب لقلب المنافق؛ إذ يضيق على صاحبه ويتألم وتزهق نفسه، كأنما تخرج روحه، فلا يزال في ضيق وهم وكرب حتى يتجلى عنه الذكر كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ

(١) الدر المنثور- هجر (٥/ ٨٢)

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر: ٤٥]

فقلب المؤمن يزداد انشراحًا وسعة وفرحا وسرورا بذكر الله تعالى، وقلب المنافق على العكس من ذلك

ولذلك أمر الله تعالى المؤمنين بكثرة ذكره سبحانه فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤١] خاصة عند اشتداد الكروب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]

٤٠ ـ ضياع عقيدة الولاء والبراء عند المنافق

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة:٥١، ٥٢]

فميل المنافق وولاؤه ليس للمؤمنين، بل للكافرين والمارقين واليهود والنصارى، فيسارع في إرضائهم وطلب الزلفى والقربى إليهم، كل هذا طمعا في الدنيا وطمعا لما في أيديهم، فنظر المنافق مقصور على الانتفاع الدنيوي، وطلب العزة والمنزلة والزلفى من الأعداء، وهم يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك، وينبغي ألا يحملهم هذا على مخالفة عقيدة التوحيد، لكنه النفاق الذي أُشربتهم عقولهم وقلوبهم.

٤١ ـ تكلف المنافق وإلحاحه وكثرة سؤاله

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢ ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢]

من علامات النفاق كثرة المسألة والإلحاح فيها، مع عدم القيام بحق المسألة، فيكون إلحاحه من باب المجادلة والتشغيب، ولا يكون همه العمل والاتباع، ولذلك نهى النبي ﷺ عن كثرة المسألة إذا كانت لمجرد الجدال والخصومة

ففي الصحيح عن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَقال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ** »(١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** »(٢)

وكان ﷺ يكره كثرة السؤال قال البخاري: بَاب مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾

وذكر بسنده حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ** »(٣)

---

(١) البخاري [٢ / ١٢٤ رقم ١٤٧٧]
(٢) البخاري [٩ / ٩٤ رقم ٧٢٨٨]
(٣) البخاري [٩ / ٩٥ رقم ٧٢٨٩]

فنهي النبي ﷺ عن كثرة السؤال؛ لأن العبد قد يعجز عن القيام بحق الإجابة، أو يهمل الجواب وقد صار حجة عليه فعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ « اتَّخَذَ حُجْرَةً فِي الْمَسْجِدِ مِنْ حَصِيرٍ فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهَا لَيَالِيَ حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ ثُمَّ فَقَدُوا صَوْتَهُ لَيْلَةً فَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ نَامَ فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَتَنَحْنَحُ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ **مَا زَالَ بِكُمْ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ صَنِيعِكُمْ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ مَا قُمْتُمْ بِهِ** فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ »(١)

وقد يسأل العبد سؤالا يسؤوه ويدخل عليه الحزن والهم والكدر؛ فيكون كتمان الإجابة ـ والحال هذه ـ رحمة بالسائل وشفقة عليه فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ الْمَسْأَلَةَ غَضِبَ** وَقَالَ: سَلُونِي فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ أَبِي قَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَبِي فَقَالَ أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَى شَيْبَةَ فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ الْغَضَبِ قَالَ إِنَّا نَتُوبُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »(٢)

وكان عمر رضي الله عنه يؤدب مَنْ أكثر من المسألة وجادل فيها بلا حاجة عن نافع مولى عبد الله: « أن صبيغ العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه قال أين الرجل قال في الرحلقال عمر أبصر لا يكون ذهب فيصيبك مني العقوبة الموجعة فأتي به فقال عمر سبيل محدثة فأرسل عمر

(١) البخاري [٩ / ٩٥ رقم ٧٢٩٠]
(٢) البخاري [٩ / ٩٥رقم ٧٢٩١]

إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى نزل ظهره دبرة ثم تركه حتى برأ ثم عاد له ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود فقال صبيغ إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتالا جملا وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برأت فأذن له إلى أرضه فكتب إلى موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر: أن قد حسنت هنيته فكتب عمر أن ائذن للناس بمجالسته »(١)

٤٢ ـ جدال المنافق وشدة خصومته بالباطل

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾[الأنعام: ١٢١]

و عَنْ أَبِى أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِى رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا وَبِبَيْتٍ فِى وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِى أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ** »(٢)

فالمنافق كثير الاعتراض والطعن في الشريعة والحدود، مثير للقلاقل والفتن، مشكك في صحة النصوص مرة، وفي عدالة الرواة مرة، وفي صحة الاستنباط أخرى، إلى آخر ذلك من العل والحجج الباهتة التي تخرج جميعها من تحت عباءة عدم التسليم للشرع والدين، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]

---

(١) تاريخ دمشق [٢٣ / ٤١١]
(٢) رواه أبو داود [٤ / ٤٠٠ رقم ٤٨٠٢]

وقال في عبده إبراهيم ﷺ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]

والذي نراه على شاشات الفضائيات من هذا الكم الزاخر من العبثيات والطعن في شريعة رب العالمين، وضرب الأمثال للشريعة وللسنة ولصحابها ﷺ.

وإذا أردت أن ترى نفاقا مستعلناً بعينيك وتسمع بأذنيك لا تشك فيه طرفة عين، فتابع البرامج التي تناقش القضايا الساخنة الخاصة بالمرأة المسلمة بصفة عامة والعربية بصفة خاصة، كقضايا التعدد والختان وعمل المرأة وقيادة السيارة وغيرها، واستمع لمن يجادلون فيها، رافعين شعار الإصلاح والتنوير والتقدم والرقي ومواكبة المجتمعات المتحضرة، فحين ذاك سترى كيف تلوى أعناق النصوص وتشن الغارة تلو الغارة على معانيها ودلالتها على الأحكام الشرعية، فإلى الله المشتكى !

٤٣ ـ الخيانة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٧]

والخيانة خلق مذموم؛ لأنه يدل على خبث الطوية ودسيسة السوء؛ لذلك وأمر النبيُّ ﷺ بأداء الأمانة، وحذَّر من الخيانة بقوله: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**» صحيح – رواه أبو داود والترمذي

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ

فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٠، ٧١].

وكان النبي ﷺ يكثر من دعائه: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ؛ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ** » حسن – رواه أبو داود.

وصفة الخيانة متأصلة في المنافقين جميعـًا، كما قال ﷺ: « **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** » رواه البخاري.

ولأن المنافق خائن لله ولرسوله وللمؤمنين فإنه يأتي يوم القيامة وهو حامل للواء الغدر لقول النبيِّ ﷺ: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ**» رواه مسلم.

وكلما استحكم النفاق في قلب العبد كلما كان أشد خيانة وخسة ونذالة؛ فإن الأمانة مبنية على الإيمان الذي وقر في القلب، فإذا ارتفع الإيمان ارتفعت معه الأمانة ولابد وفي الحديث:... « **فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ. وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**» رواه البخاري ومسلم.

٤٤ ـ عدم الثقة في موعود الله تعالى

قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩]

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢]

قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط[١] شكًّا منه في وعد رسول الله ﷺ.

إن من تمام إيمان العبد بالقدر أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الفرج مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، وأن الله يبتلي العبد ليرى صبره وتجلده وكمال تسليمه ورضاه عنه، فأما المؤمن فيوقن بأن كل المقدرات بيد الله تعالى، فيزداد إيمانا ويقينا ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما المنافق فيزداد خوفًا وهلعًا ورعبًا وزلزلةً يكاد قلبه ينخلع منها، ويسوء ظنه بموعود الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢].

فعند نزول الفتن واشتداد المحن وقدوم الأهوال ينقسم المجتمع إلى مؤمنين محتسبين ومنافقين فجار مذبذبين مرتابين ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [المنافقون: ٤]

قال أوس بن حارثة، جدُّ الأنصار، لبنيه حين حضرته الوفاة: "الدهر يومان: فيوم لك، ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهماسينحسر".

---

(١) السيرة النبوية (٤/ ١٧٩) قال ابن هشام : معتب بن قشير، من أهل بدر وليس من المنافقين فيما ذكر لي من أثق به من أهل العلم .

قال بعض الحكماء: رُبَّ محبوبٍ في مكروهٍ، ومكروهٍ في محبوبٍ، وكم مغبوطٍ في نعمة هي داؤُه، ومرحوم في داء هو شفاؤه، وربَّ خيرٍ من شرٍّ ونفع من ضرٍّ.

وأنشد أمية بن أبي الصلت في معناه:

تجري الأمور على وفق القضاء وفي طيِّ الحوادث محبوب ومكروه
فربما سرني ما بتُّ أحذره وربما ساءني ما بتُّ أرجوه

قال وهب بن منبه: "ما من شيء إلا يبدو صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر".

لذلك كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول:** "الصبر نِصْف الإيمان، واليقين الإيمان كلُّه".

وقال أبو الدرداء" ذروة الإيمان الصبر للحُكْم، والرضا بالقَدَر.

قال أبو الحسين بن أبي البغل:

فصبراً على حلو القضاء ومره فإن اعتياد الصبر أدعى إلى اليسر
وخير القضايا خيرهن عواقباً وكم قد أتاك النفع من جانب الضر

٤٥ ـ الغدر:

المنافقون أهل غدر وخيانة قال تعالى فيهم: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: ٤].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**» رواه البخاري

ولم يرخص النبي ﷺ في الغدر حتى في حال الحرب، ومن وصاياه في

ذلك «**اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا**» رواه مسلم.

وحين زكى النبي ﷺ أصحاب القرون الثلاثة الأولى بيّن ما يقع بعدهم من انتشار الغدر والخيانة فقال: «**ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ...**» رواه الشيخان.

وأهل الغدر والخيانة مفضوحون يوم القيامة كما قَالَ النبي ﷺ: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ**» رواه الشيخان.

والمنافق يشبه الكفار في خيانتهم وغدرهم؛ ولذلك حذر الله تعالى المؤمنين منهم ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ ﴾ [الأنفال: ٥٥- ٥٦] وفي آية أخرى ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [الأنفال: ٧١]. وقال الملهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيهم «لَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

والغدر أخو الكذب، بل هو داخل فيه، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قَالَ:« **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** » البخاري [١ / ١٦ رقم ٣٣].

وفي الصحيحين أيضا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** » البخاري [١ / ١٦رقم ٣٤].

قلت الغدر ونحوه داخل في الكذب كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨]

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحشر: ١١-١٢]

٤٦ ـ نشر الفاحشة في المجتمع المسلم.

لا يستطيع أي مسلم أن ينسى للمنافقين جريمة من أبشع جرائمهم على مر العصور والتاريخ؛ ألا وهي رميُّ أمِّنا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما هي منزهة عنه ومبرأة منه؛ حيث انبرى طائفة من المنافقين مسعرين نار الفتنة فقذفوا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في عرضها واتهموها بفعل الفاحشة مع الصحابي الجليل صفوان بن المعطل السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١) ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور: ١١].

والإفك هو أعظم الكذب والبهتان والمقصود به رمي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالزنا، والذي تولى كبره هو رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول؛ فأنزل الله براءتها

(١) سيأتي تفصيل هذا في (جرائم المنافقين)

في أوائل سورة النور تلك السورة العظيمة التي جاءت زاخرة بالآداب الإسلامية التي تربي المجتمع المسلم وتحذره من نشر الفاحشة والانزلاق وراء شائعات المنافقين فيما يفترونه ويقذفون به المحصنات الغافلات المؤمنات؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور: ١٩]

٤٧ـ حب الزنا واتباع الشهوات المحرمة

إذا تمكن النفاق من القلب أزاح منه الخوف من الآخرة وخشية الله تعالى، وامتلأ القلب بحب الدنيا وشهواتها الفانية؛ فهو غارق في لجُج الشهوات والنزوات، مفرط في عبادة ربه تعالى، متبعاً لهواه، قد أعطى نفسه الخبيثة كل ما تشتهيه من لذاتها ومرادها؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩]، ومن هنا كان حب المنافق للزنا حباً عظيماً جداً يسعى له، ولا يرفضه إن عرض له، بل ربما يأتيه وليس له كبير شهوة، غير ذل المعصية وإدمانها الذي أسكر القلوب وجعلها تنقاد خلف سراب المتعة والسعادة في حر ولفح ووهج الشهوات.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور: ٣٣].

نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول المنافق فعن جَابِرٍ أَنَّ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ يُقَالُ لَهَا مُسَيْكَةُ وَأُخْرَى يُقَالُ لَهَا أُمَيْمَةُ فَكَانَ يُكْرِهُهُمَا عَلَى الزِّنَى فَشَكَتَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ إِلَى

قَوْلِهِ ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾(١)

وهذا العشق للفواحش الذي ملأ قلب المنافق هو الذي يحمله على بغض الطائفة المؤمنة المتعففة التي تحب الحياء و الستر وتبغض التكشف والتعري والتبرج والسفور؛ ومن هنا تجد غمز ولمز المنافقين والمنافقات للحجاب والنقاب والستر؛ بل يبغضون كل معاني الحشمة والوقار، وما الحرب الشعواء على النقاب والحجاب من ثلة العلمانيين والليبراليين والمارقين إلا ثمرة الحنظل مما وقر في قلوبهم من مرض النفاق؛ تلك الحرب التي أوقد نارها المنافقون بكل سلاح يستطيعونه بدءا من فرض القوانين الوضعية مروراً بنقض عرى العفاف والطهر في المجتمع المسلم، فمثل هذه القضية تتكشف فيها نوايا وخبيآت المنافقين، **فتأمل في هذه الرموز التي حاربت العفاف والحجاب والستر بكل طاقتها وقتها**:

« **سعد زغلول**، زعيم حزب الوفد المصري، الذي أعان قاسم أمين على إظهار كتبه وتشجيعه في هذا المجال.

لطفي السيد: الذي أطلق عليه أستاذ الجيل وظل يروج لحركة تحرير المرأة على صفحات الجريدة لسان حال حزب الأمة المصري في عهده.

صفية زغلول: زوجة سعد زغلول وابنة مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء في تلك الأيام وأشهر صديق للإنكليز عرفته مصر.

هدى شعراوي: ابنة محمد سلطان باشا الذي كان يرافق الاحتلال

(١) مسلم (٨/ ٢٤٤ رقم ٧٧٣٨)

الإنكليزي في زحفه على العاصمة وزوجة علي شعراوي باشا أحد أعضاء حزب الأمة (حاليًّا الوفد) ومن أنصار السفور.

سيزا نبراوي: (واسمها الأصلي زينب محمد مراد)، وهي صديقة هدى شعراوي في المؤتمرات الدولية والداخلية. وهما أول من نزع الحجاب في مصر بعد عودتهما من الغرب إثر حضور مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي الذي عقد في روما ١٩٢٣م.

درية شفيق: من تلميذات لطفي السيد، رحلت وحدها إلى فرنسا لتحصل على الدكتوراه، ثم إلى إنكلترا، وصورتها وسائل الإعلام الغربية بأنها المرأة التي تدعو إلى التحرر من أغلال الإسلام وتقاليده مثل: الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات.

ـ لما عادت إلى مصر شكلت حزب (بنت النيل) في عام ١٩٤٩م بدعم من السفارة الإنكليزية والسفارة الأمريكية.. وهذا ما ثبت عندما استقالت إحدى عضوات الحزب وكان هذا الدعم سبب استقالتها. وقد قادت درية شفيق المظاهرات، وأشهرها مظاهرة في عام ١٩ فبراير١٩٥١م و١٢ مارس ١٩٥٤م بالتنسيق مع أجهزة عبد الناصر فقد أضربت النساء في نقابة الصحافيين عن الطعام حتى الموت إذا لم تستجب مطالبهن. وأجيبت مطالبهن ودخلت درية شفيق الانتخابات ولم تنجح. وانتهى دورها. وحضرت المؤتمرات الدولية النسائية للمطالبة بحقوق المرأة ـ على حد قولها ـ.

سهير القلماوي: ـ تربت في الجامعة الأمريكية في مصر ـ وتخرجت من معهد الأمريكان ـ وتنقلت بين الجامعات الأمريكية والأوربية، ثم عادت للتدريس في الجامعة المصرية.

أمينة السعيد: وهي من تلميذات طه حسين، الأديب المصري الذي دعا إلى تغريب مصر.. ترأست مجلة حواء. وقد هاجمت حجاب المرأة بجرأة ـ ومن أقوالها في عهد عبد الناصر: " كيف نخضع لفقهاء أربعة ولدوا في عصر الظلام ولدينا الميثاق ؟ ". تقصد ميثاق عبد الناصر الذي يدعو فيه إلى الاشتراكية ـ وسخرت مجلة حواء للهجوم على الآداب الإسلامية.

د. نوال السعداوي زعيمة الاتحاد المصري سابقـًا.» (١)

٤٧ـ التفريق بين المؤمنين.

الألفة والاتحاد والجماعة سبيل المؤمنين، والفرقة والشحناء والبغضاء سبيل المنافقين قال تعالى:، ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ البقرة: ١٣٧

فقد كتب الله على من خالف سبيله وشاق رسوله ﷺ و المؤمنين ولم يتبعهم في إيمانهم؛ كتب عليه الشقاق والاختلاف، فلا تزال قلوبهم متنافرة متفرقة مملوءة بالشحناء والبغضاء.

وقال تعالى:﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة: ٤٧].

والله ﷻ أمر بالاجتماع والألفة ونبذ الفرقة والاختلاف فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ

(١) مستفاد من مقال في موقع الدرر السنية .

تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال:« **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ، وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ، بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ** ».

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ** ».(١)

وفي الصحيحين عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ** ».(٢)

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ** »(٣)

٤٨ ـ بغضهم الشديد للرسول وللمؤمنين:

قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٩ – ١٢٠].

---

(١) البخاري [١ / ١٠٣رقم ٤٨١].
(٢) البخاري [٣ / ١٢٨رقم ٢٤٤٢]
(٣) البخاري [١ / ١٢رقم ١٣]

لذلك كانت علامة أهل السنة والجماعة حبَّ أصحاب رسول الله ﷺ، وموالاتهم، والبراءة ممن يُبغضهم ويُعاديهم.

عَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ"**(١)

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**»(٢).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِب رضي الله عنه: «وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ»(٣)

وقالَ خَيْثَمَةُ: " وَاللهِ مَا أَحَبَّ مُنَافِقٌ مُؤْمِنًا أَبَدًا "»(٤)

فهذا مربع بن قيظي كان له بستان فأجاز فيه رسول الله ﷺ عامداً هو وأصحابه إلى أحد؛ فقال له هذا المنافق: لا أحل لك يا محمد إن كنت نبيا، أن تمر في حائطي، وأخذ في يده حفنة من تراب ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ دعوه فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة. فضربه سعد بن زيد ـ ولم يكن قد علم

(١) أخرجه البخاري: ك: مناقب الأنصار، ب: حب الأنصار من الإيمان، (٣٧٨٣
(٢) أخرجه البخاري: ك: الإيمان، ب: علامة الإيمان حب الأنصار، ح (١٧)، ومسلم: ك: الإيمان، ب: الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان، ح (٧٤).
(٣) أخرجه مسلم: ك: الإيمان، ب: الدليل على أن حب الأنصار وعليٍّ من الإيمان (٧٨).
(٤) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي، رقم (٩٢)، ص (١٣٠).

بنهي النبي عن إيذائه ـ بالقوس فشجه ﴾(١)

٤٩ ـ المنافق كثير الأكل غالبًا

عن عبد الله بن عمر ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَإِنَّ الْكَافِرَ أَوْ الْمُنَافِقَ فَلَا أَدْرِي أَيَّهُمَا قَالَ عُبَيْدُ اللهِ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ"**(٢).

وعند الطبراني في رواية له من حديث سمرة بلفظ: «المنافق» بدل الكافر.

وفي رواية عن أبي هريرة: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَافَهُ ضَيْفٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَاةٍ فَحُلِبَتْ فَشَرِبَ الْكَافِرُ حِلَابَهَا ثُمَّ أُخْرَى فَشَرِبَهُ ثُمَّ أُخْرَى فَشَرِبَهُ حَتَّى شَرِبَ حِلَابَ سَبْعِ شِيَاهٍ ثُمَّ إِنَّهُ أَصْبَحَ فَأَسْلَمَ، فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَاةٍ فَشَرِبَ حِلَابَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِأُخْرَى فَلَمْ يَسْتَتِمَّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاء** » (٣)

وفي البخاري عن نافع قال: «كَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَأْكُلُ حَتَّى يُؤْتَى بِمِسْكِينٍ يَأْكُلُ

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٣٨١)

(٢) البخاري (٧/ ٧١رقم ٥٣٩٤)

(٣) مسلم (٣/ ١٦٣٢رقم ٢٠٦٣)، وأحمد (١٤/ ٤٦٣رقم ٨٨٧٩)

هذه القصة وردت متعددة المخرج فيروى أن هذا الرجل هو أبو غزوان أخرجه الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن عمر، وكذا وقع لأبي بصرة الغفاري كما عند أحمد .ووقع لنضلة بن عمرو مثله أخرج قصته أحمد أيضا وأبو مسلم الكجي وقاسم بن ثابت في الدلائل والبغوي في الصحابة من طريق محمد بن معن بن نضلة الغفاري حدثني جدي نضلة بن عمرو، ووقع أيضًا في كلام النووي تبعًا للقاضي عياض أنه نضرة بن نضرة الغفاري، وذكر بن إسحاق في السيرة من حديث أبي هريرة في قصة ثمامة بن أثال مثله .

مَعَهُ فَأَدْخَلْتُ رَجُلًا يَأْكُلُ مَعَهُ فَأَكَلَ كَثِيرًا فَقَالَ: يَا نَافِعُ لَا تُدْخِلْ هَذَا عَلَيَّ ! سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاء**» (١)

واختلف في معنى هذه الأحاديث على عدة معانٍ(٢):

الأول: ليس المراد به ظاهره

وإنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها فكان المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في معي واحد، والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء فليس المراد حقيقة الأمعاء ولا خصوص الأكل، وإنما المراد التقلل من الدنيا والاستكثار منها.

الثاني: المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرة الأكل صفة الكافر فإن نفس المؤمن تنفر من الاتصاف بصفة الكافر، ويدل على أن كثرة الأكل من صفة الكفار قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: ١٢].

الثالث: قيل بل هو على ظاهره، **ثم اختلفوا في ذلك على أقوال:**

أحدها: أنه ورد في شخص بعينه جزم بذلك بن عبد البر فقال: لا سبيل إلى حمله على العموم؛ لأن المشاهدة تدفعه فكم من كافر يكون أقل أكلا من مؤمن وعكسه، وكم من كافر أسلم فلم يتغير مقدار أكله،وقد سبقه إلى ذلك الطحاوي

---

(١) البخاري (٧/ ٧١رقم ٥٣٩٣)

(٢) فتح الباري (٩/ ٥٣٨) باختصار وتصرف .

في مشكل الآثار وأبو عبيدة من قبله.

وقد تعقب هذا الحمل بأن بن عمر راوي الحديث فهم منه العموم فلذلك منع الذي رآه يأكل كثيرا من الدخول عليه واحتج بالحديث، ثم كيف يتأتى حمله على شخص بعينه مع ما تقدم من ترجيح تعدد الواقعة ويورد الحديث المذكور عقب كل واحدة منها في حق الذي وقع له نحو ذلك.

القول الثاني: أن الحديث خرج مخرج الغالب وليست حقيقة العدد مرادة قالوا: تخصيص السبعة للمبالغة في التكثير كما في ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ [لقمان: ٢٧] **والمعنى**: أن من شأن المؤمن التقلل من الأكل؛ لاشتغاله بأسباب العبادة؛ ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما يسد الجوع، ويمسك الرمق، ويعين على العبادة، ولخشيته أيضا من حساب ما زاد على ذلك،والكافر بخلاف ذلك كله فإنه لا يقف مع مقصود الشرع، بل هو تابع لشهوة نفسه مسترسل فيها غير خائف من تبعات الحرام،فصار أكل المؤمن لما ذكرته إذا نسب إلى أكل الكافر كأنه بقدر السبع منه، ولا يلزم من هذا اطراده في حق كل مؤمن وكافر فقد يكون في المؤمنين من يأكل كثيرا إما بحسب العادة، وإما لعارض يعرض له من مرض باطن أو لغير ذلك ويكون في الكفار من يأكل قليلا إما لمراعاة الصحة على رأي الأطباء، وإما للرياضة على رأي الرهبان، وإما لعارض كضعف المعدة.

قال الطيبي: ومحصل القول أن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبلغة بخلاف الكافر فإذا وجد مؤمن أو كافر على غير هذا الوصف لا يقدح في الحديث ، ومن هذا قوله تعالى﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ وقد يوجد من الزاني نكاح الحرة ومن الزانية نكاح الحر.

القول الثالث: أن المراد بالمؤمن في هذا الحديث التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه،وكمل ايمانه اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده؛ فيمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته ،وقد رد هذا الخطابي وقال: قد ذكر عن غير واحد من أفاضل السلف الأكل الكثير فلم يكن ذلك نقصا في إيمانهم.

الرابع: أن المراد أن المؤمن يسمى الله تعالى عند طعامه وشرابه فلا يشركه الشيطان فيكفيه القليل والكافر لا يسمى فيشركه الشيطان.

الخامس: أن المؤمن يقل حرصه على الطعام فيبارك له فيه وفي مأكله فيشبع من القليل،والكافر طامح البصر إلى المأكل كالأنعام فلا يشبعه القليل، وهذا يمكن ضمه إلى الذي قبله، ويجعلان جوابا واحدا مركبا.

السادس: قال النووي: المختار أن المراد أن بعض المؤمنين يأكل في معي واحد، وأن أكثر الكفار يأكلون في سبعة أمعاء، ولا يلزم أن يكون كل واحد من السبعة مثل معي المؤمن اهـ.

والخلاصة أنه: " يؤخذ من الحديث: الحض على التقلل من الدنيا، والحث على الزهد فيها، والقناعة بما تيسر منها، وقد كان العقلاء في الجاهلية والإسلام يتمدحون بقلة الأكل، ويذمون كثرة الأكل، كما في حديث أم زرع أنها قالت في معرض المدح لابن أبي زرع: "ويشبعه ذراع الجفرة" وقال حاتم الطائي:

فإنـــك إن أعطيـــت بطنـــك ســـؤله وفرجـك نـالا منتهـى الـذم أجمعـا[1]

(١) فتح الباري (٩/ ٥٤٠)

٥٠ ـ خلف الوعد:

وقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعقود والعهود كلها،فقال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾ [المعارج: ٣٢].

وقال تعالى ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف: ٢ – ٣].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾ [الأنفال: ٥٨].

وهذا كثير في القرآن وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** » البخاري [١ / ١٦ رقم ١٣]

وعند مسلم أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**».

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ أَحَدُهُمَا يُنْصَبُ وَقَالَ الْآخَرُ يُرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ**» البخاري [٤ / ١٠٤ رقم ٣١٨٦]

وفيهما عَنْ عُقْبَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَحَقُّ مَا أَوْفَيْتُمْ مِنْ الشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ**» البخاري [٧ / ٢٠ رقم ٥١٥١]

وفي سنن أبي داود عن أبي رافع رضي الله عنه: قال: بعثَنى قُرَيشٌ إلى رسولِ الله ﷺ، فلما رأيتُ رسولَ الله ﷺ أُلقِيَ في قلبي الإسلامُ، فقلتُ: يا رسول اللهِ، لا أرْجِعُ إليهم أبدا، ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنى لا أخِيسُ بالعهدِ، ولا أحْبِسُ البُرُدَ، ولكنِ ارْجع، فإن كان في نَفْسِكَ الذي في نفسك الآن فارْجِعْ**»، قال: فذهبتُ، ثم أتيتُ رسولَ الله ﷺ، فأسلمتُ »(١).

قال أبو داود: وكان أبو رافع قبْطِيّا، قال: وإنما كانوا يُرَدُّونَ أُوّلَ الزمان، وأما الآن فلا يصلح. أخرجه أبو داود.

وفي صحيح مسلم عن حذيفة قال حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ قَالَ: « مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسِيلٍ فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ؟ قُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ:

---

(١) أخيس بالعهد : يقال : خاس بالعهد : إذا نقضه، وخاس بوعده إذا أخلفه.
أحبس البُرد : البُرد : جمع بريد، وهو الرسول الوارد عليك من جهة، يقول : لا أحبسهم عن أصحابهم، وأمنعهم من العود إليهم.

«**انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**»(١)

وفي صحيح البخاري من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**» البخاري [٣ / ٨٣]

وأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب أن يوفي بالنذر الذي نذره في الجاهلية من اعتكافه ليلة عند المسجد الحرام وهذا عقد كان قبل الشرع

عن عبد الرحمن بن أبزى قال كان داود عليه السلام يقول: «**لا تَعدنَّ أخاك شيئًا لا تنجزه له فإن ذلك يورثُ بينك وبينه عداوةٌ**».

وفي السنن أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ:« **الْمُؤمِنونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ** ».

وله شاهد من حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " **الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ مَا وَافَقَ الْحَقَّ** »(٢).

٥١ ـ بغض الأنصار:

عن أنس قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **آيَةُ الْمُنَافِقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ وَآيَةُ الْمُؤْمِنِ حُبُّ الأَنْصَارِ** »(٣).

وعن الْبَراء قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **الأَنْصارُ لا يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إِلاّ مُنافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ** » (٤)

---

(١) مسلم [٣ / ١٤١٤ رقم ١٧٨٧] أحمد [٣٨ / ٣٧٧]

(٢) البيهقي في السنن الكبرى [٧ / ٤٠٦ رقم ١٤٤٣٥]

(٣) البخاري (١/ ١٢رقم ١٧)، ومسلم (١/ ٦٠رقم ٢٤٤)

(٤) البخاري (٥/ ٣٢ رقم ٣٧٨٣)، و مسلم (١/ ٦٠رقم ٢٤٦)، والطيالسي في المسند =

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ « **لاَ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** »(١)..

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **حُبُّ الْأَنْصَارِ إِيمَانٌ وَبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ** » (٢)

و عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَتْ الْأَنْصَارُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَهُمْ أَوْ شِعْبَهُمْ الْأَنْصَارُ شِعَارِي وَالنَّاسُ دِثَارِي** » (٣)

والبغض المقصود هنا: هو بغضهم لكونهم نصروا رسول الله ﷺ وآووه، لا لأمر دنيا ومشاحنات مما يقع بين الناس عادة،

(وخُصوا بهذه المنقبة العظمى لما فازوا به دون غيرهم من القبائل من ايواء النبي ﷺ ومن معه والقيام بأمرهم ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم، وايثارهم إياهم في كثير من الأمور على أنفسهم ، فكان صنيعهم لذلك موجبا لمعاداتهم جميع الفرق الموجودين من عرب وعجم، والعداوة تجر البغض.

ثم كان ما اختصوا به مما ذكر موجبا للحسد ، والحسد يجر البغض !

فلهذا جاء التحذير من بغضهم والترغيب في حبهم ، حتى جعل ذلك آية

=

(ص: ٩٩ رقم ٧٢٨)

(١) مسلم (١/ ٦٠رقم ٢٤٧)

(٢) أحمد (١٨/ ٢٠٨رقم ١١٦٦٨) والبيهقي في السنن (٢/ ٢٧٨رقم ١٤٧٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أحمد (١٥/ ٢٥٥رقم ٩٤٣٤)

الإيمان والنفاق؛ تنويها بعظيم فضلهم ، وتنبيها على كريم فعلهم ، وأن كان من شاركهم في معنى ذلك مشاركا لهم في الفضل المذكور كل بقسطه.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن على أن النبي ﷺ قال له:«**لاَ يُحِبُّك إِلاَّ مُؤْمِنٌ وَلاَ يُبْغِضُك إِلاَّ مُنَافِقٌ**». وهذا جار باطراد في أعيان الصحابة لتحقق مشترك الإكرام لما لهم من حسن الغناء في الدين، قال صاحب المفهم: « وأما الحروب الواقعة بينهم فإن وقع من بعضهم بغض فذاك من غير هذه الجهة ، بل للأمر الطاريء الذي اقتضى المخالفة ، ولذلك لم يحكم بعضهم على بعض بالنفاق، وإنما كان حالهم في ذاك حال المجتهدين في الأحكام للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد والله أعلم »(١)

٥٢ ـ بغض علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عَنْ زِرٍّ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ:«**وَالَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ ﷺ إِلَىَّ أَنْ لاَ يُحِبَّنِى إِلاَّ مُؤْمِنٌ وَلاَ يُبْغِضَنِى إِلاَّ مُنَافِقٌ**» مسلم (١/ ٦٠رقم ٢٤٩)

٥٣ ـ المنافقون غششة:

قال الحسن البصري: المؤمنون نصَحَةٌ، والمنافقون غَشَشَةٌ.

تجد المؤمن ناصحاً أميناً محباً للخير لجميع المسلمين، يبذل لهم الخير فعلاً وقولاً وقلباً، فهو طيب الجوهر والعرض والثمرة، وتجد المنافق على النقيض من ذلك: غشاشاً، له دسيسة السوء، يتربص بغيره الضرَّ، ويتمنى له الشر والذلل والخطأ، قد امتلأ قلبه غلاً وحقداً وحسداً، وساءت فعاله فهو

(١) فتح الباري (١/ ٦٣)

بخيل ضنين بالخير، قتور لا يحب النفع لأحد، وساءت أقواله فلا يأمر إلا بمنكر وشرٍّ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: « **نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي هَذِهِ فَحَمَلَهَا فَرُبَّ حَامِلِ الْفِقْهِ فِيهِ غَيْرُ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ الْفِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»(١)

وعن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ** » **قُلْنَا لِمَنْ ؟ قَالَ** « **لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ** »(٢).

---

(١) أحمد (٢١/ ٦٠رقم ١٣٣٥٠) وسنن ابن ماجه (١/ ٨٤رقم ٢٣٠)

(لا يغل) من الإغلال وهو الخيانة . ويروى " يغل " من الغل وهو الحقد والشحناء . ويحتمل أن يكون قوله " عليهن " حال من القلب الفاعل . فيكون المعنى قلب الرجل المسلم حال كونه متصفا بهذه الخصال الثلاث لا يصدر عنه الخيانة والحقد والشحناء ولا يدخله مما يزيله عن الحق . ويحتمل أن يكون قوله " عليهن " متعلقا بقوله " يغل " أي لا يخون في هذه الخصال أي من شأن قلب المسلم أن لا يخون ولا يحسد فيها بل يأتي بها بتمامها بغير نقصان في حق من حقوقها .

(إخلاص العمل لله) معنى الإخلاص أن يقصد بالعمل وجهه ورضاه فقط . دون غرض آخر دنيوي أو أخروي . أو لا يكون له غرض دنيوي من سمعة ورياء . فالأول إخلاص الخاصة والثاني إخلاص العامة

وقال الفضيل بن عياض : العمل لغير الله شرك وترك العمل لغير الله رياء . والإخلاص أن يخلصك الله منها . (والنصح) أي إرادة الخير ولو للأئمة . (ولزوم جماعتهم) أي موافقة المسلين في الاعتقاد والعمل الصالح)

انظر سنن ابن ماجه (١/ ٨٤) بتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) مسلم (١/ ٥٣رقم ٢٠٥) ومسند أحمد (٥/ ٣١٨ رقم ٣٢٨١)

=

فالمنافقون غَشَشَةٌ متخاونون، قد أُشربت الخيانة في قلوبهم، وتكون خيانتهم بانتقاص حقوق المؤمنين المادية، كأكل أموالهم بالباطل، أو انتهاك أعراضهم أو سفك دمائهم، أو التجسس عليهم وكشف عوراتهم لأعدائهم، أو بانتقاص حقوقهم المعنوية بالامتناع عن الدفاع عنهم أو عن بذل النصيحة لهم أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، أو بخذلانهم في ساعات الضيق والعسرة.

=

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى : هذا الحديث من الأحاديث التي قيل فيها إنها أحد أرباع الدين، وممن عده فيها الإمام محمد بن أسلم الطوسي . وقال النووي : " بل هو وحده محصل لغرض الدين كله ؛ لأنه منحصر في الأمور التي ذكرها

فالنصيحة لله تعالى : وصفه بما هو له أهل والخضوع له ظاهرا وباطنا، والرغبة في محابه بفعل طاعته والرهبة من مساخطه بترك معصيته، والجهاد في رد العاصين إليه، وروى الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي ثمامة صاحب علي قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام " يا روح الله من الناصح لله ؟ قال : الذي يقدم حق الله على حق الناس "

والنصيحة لكتاب الله : تعلمه وتعليمه، وإقامة حروفه في التلاوة، وتحريرها في الكتابة، وتفهم معانيه وحفظ حدوده، والعمل بما فيه وذب تحريف المبطلين عنه

والنصيحة لرسوله ﷺ : تعظيمه ونصره حيا وميتا، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه .

والنصيحة لأئمة المسلمين : إعانتهم على ما حملوا القيام به، وتنبيههم عند الغفلة، وسد خلتهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافرة إليهم، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن .

ومن جملة أئمة المسلمين أئمة الاجتهاد وتقع النصيحة لهم : ببث علومهم ونشر مناقبهم، وتحسين الظن بهم.

والنصيحة لعامة المسلمين : الشفقة عليهم، والسعي فيما يعود نفعه عليهم، وتعليمهم ما ينفعهم، وكف وجوه الأذى عنهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه) فتح الباري (١/ ١٣٨)

٥٤ـ الاحتفاء برأيهم والغضب له وشق عصا الجماعة

تجد المنافق دائماً يقيم لرأيه ومشورته وعقله شأناً ومنزلة فهو يحب دائماً أن يؤخذ برأيه في كل الأمور، وأن يعمل بمشورته في كل الأحوال، فيرى في نفسه سداداً وإصابة وحقاً في كل اقتراحاته وقرارته ومشوراته، حتى حمل هذا الغرور بعضهم على أن جعل كل ما يصدر منه من كلام وقرارات بمثابة قوانين تفرض على شعبه ودولته، ومعلوم أن هذا لم يكن لأحد قط من هذه الأمة كائناً من كان إلا النبي ﷺ؛ بل إن النبي ﷺ كان يستشير أصحابه كما فعل ذلك يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق وفي غيرها من المواقف.

والذي يزيد الطين بلة أن ترى أن ذلك الغرور لحق كثيرا من المؤسسات في بلاد المسلمين؛ فالمدير لا يرجع في قرارته وإن كانت خطأ محضاً، وإن كان سيترتب على قراره إزهاق أنفس وضياع ثروات مجتمع !

فهذه العنجهية والعنترية في الوثوق بالنفس جلبت على مجتمعات كثيرة الخراب والدمار والفقر والعيلة؛ خاصة في زمان وُسِّد الأمر فيه لغير أهله، ولرويبدة المجتمعات، فإلى الله المشتكى !

وليس المقصود من هذا: أن يكون المسلم خائر العزم، مذبذب القرارات، ضعيف الشخصية، مرتعش الفكر والحزم، بل المقصود: أن يكون المسلم في قراراته مع إخوانه كاللحمة الواحدة لا يفارقهم ولا يتجنبهم ولا يحقد عليهم ولا يحسد أحدهم إذا لم يوافقوا رأيه أو يأخذوا بمشورته، فتكون يده مع يد إخوانه وبني مشورته في السراء والضراء، ولا يشق العصا، ولا يعتزل الجماعة نصرة لرأيه، وغروراً بنفسه، إلا إذا استبان له الحق أبلج ناصعاً واضحاً كالشمس في رابعة النهار، فهنالك لا يحيد عنه ولا يرجع إلا لمصالح شرعية واعتبارات واقعية، كل ذلك حسب الضوابط الشرعية في كل نازلة وحادثة.

وتأمل هذا المثال من فعل المنافقين يوم أحد فإنه (لما وصل خبر خروج مكة للحرب، استشار النبي ﷺ أصحابه في الخروج لهم أو يبقى في المدينة ويقاتلهم منها، فأشار ابن أبي بالمكث في المدينة وقال: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءؤا!

وأشار أكثر أصحابه بالخروج لملاقاة العدو خارج المدينة، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، فما زال الناس به ﷺ حتى لبس لأمته وخرج لقتال المشركين، فغضب لذلك المنافق وخبأها في صدره واشتعل قلبه حقداً وحسداً على رسول الله أن يطاع دونه، ﴿حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبدالله بن ابي ابن سلول بثلث الناس، وقال أطاعهم وعصاني ! ما ندري علامَ نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟

فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم اللهَ ألا تخذلوا قومَكم ونبيَّكم عندما حضر من عدوُهم !

فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتالٌ.

قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيَّه[1]

---

(١) السيرة النبوية (٤/ ٩)

واختم هذا الفصل

بكلام ماتع لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف هذه الطائفة الخبيثة نقلته بنصه لجماله نثره، وبديع سرده، وجميل ترتيبه وجمعه :

«اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون، ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولأجل ذلك ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]

درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها.

لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله ولم يرفعوا به رأسا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا. خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام، فقايلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد ولكن بالدفع فى الصدور منها والأعجاز، وقالوا: ما لك عندنا من عبور وإن كان لا بد فعلى سبيل الاجتياز.

أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا لما حلت بساحتهم:

مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئا من اليقين، وعوامهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين؛ فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر ولكن صرفوا هممهم إلى فعل المأمور، وترك المحظور !

فطريقة المتأخرين: أعلم وأحكم ! وطريقة السلف الماضين: أجهل لكنها أسلم !

أنزلوا نصوص السنة والقرآن منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السَّكَّة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره فحكمه غير مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨].

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم العقل المعيشي أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة: ٩] قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠].

من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حال بين قلبه وبين التصديق، ففسادهم في الأرض كثير وأكثر الناس عنه غافلون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة:١١، ١٢].

المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارا فهمه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣].

لكل منهم وجهان: وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون ! ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤].

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلهما واستحقارا، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحا بما عندهم من العلم الذى لا ينفع الاستكثار منه أشرا واستكبارا، فتراهم أبدا بالمتمسكين بصريح الوحى يستهزئون ! ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥].

خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشبه

والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف فألقتها بين سفن الهالكين ! ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦].

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفىء ذلك النور وبقيت نارا تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون! ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى فهي لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ! ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨].

صاب عليهم صيب الوحي وفيه حياة القلوب والأرواح، فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وظعت عليهم في المساء والصباح، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وجدوا فى الهرب والطلب فى آثارهم والصياح، فنودي عليهم على رءوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين، منهم: المناظرين والمقلدين؛ فقيل: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٩].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه، وعجزت أسماعهم عن تلقي وعوده وعيده وأوامره ونواهيه، فقاموا عند ذلك حيارى في أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السامع ولا يهتدي ببصره البصير

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠].

لهم علامات يعرفون بها مبينة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم والله الرياء وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلا ! ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلا ! ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن؛ فإن كان لهم فتح من الله قالوا: ألم نكن معكم واقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب فيا من يريد معرفتهم ! خذ صفتهم من كلام رب العالمين فلا تحتاج بعده دليلا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه، فتراه عند الحق نائما وفي الباطل على الأقدام ، فخذ وصفهم من

قول القدوس السلام: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد، وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ! ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضا يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه، وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليتجنبوه، فاسمعوا أيها المؤمنون ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة: ٦٧].

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمدا بعيدا، ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضا شديدا ! ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء: ٦١].

فكيف لهم بالفلاح والهدى بعد ما أصيبوا في عقولهم وأديانهم، وأنى لهم التخلص من الضلال والردى وقد اشترا الكفر بإيمانهم، فما أخسر تجارتهم البائرة، وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقا ! ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا

﴿ ٦٢ ﴾ [النساء: ٦٢].

نشب زقوم الشبه والشكوك فى قلوبهم فلا يجدون له مسيغا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ ﴾ [النساء: ٦٣].

تبا لهم ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان ! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان، فالقوم فى شأن وأتباع الرسول في شأن، لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسما عظيما، يعرف مضمونه أولو البصائر فقلوبهم منه على حذر إجلالا له وتعظيما؛ فقال تعالى تحذيرا لأوليائه وتنبيها على حال هؤلاء وتفهيما ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥ ﴾ [النساء: ٦٥] تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه؛ لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه، فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه، وكذلك أهل الريبة يكذبون ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦ ﴾ [المجادلة: ١٦].

تبا لهم ! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان، فلما رأوا طول الطريق وبعد الشقة نكصوا على أعقابهم، ورجعوا وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم، فما متعوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا، فما هو إلا أن صاح بهم الصائح فقاموا عن موائد أطعمتهم والقوم جياع ما شبعوا، فكيف حالهم عند اللقاء وقد عرفوا ثم أنكروا وعموا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا ذلك ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ ﴾ [المنافقون: ٣].

أحسن الناس أجساما، وأخلبهم لسانا، وألطفهم بيانا، وأخبثهم قلوبا، وأضعفهم جنانا، فهم كالخشب المسندة التى لا ثمر لها قد قلعت من مغارسها، فتساندت إلى حائط يقيمها لئلا يطأها السالكون ! ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: ٤].

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شَرَقِ الموتى، فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب، ولا يشهدون الجماعة بل إن صلى أحدهم ففي البيت أو الدكان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان !

هذه معاملتهم للخلق وتلك معاملتهم للخالق فخذ وصفهم من أول المطففين وآخر والسماء والطارق فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة: ٧٣].

فما أكثرهم وهم الأقلون ! وما أجبرهم وهم الأذلون ! وما أجهلهم وهم المتعالمون ! وما أغرهم بالله إذ هم بعظمته جاهلون ! ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [التوبة: ٥٦].

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم، وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوي من موروثه الرسول ومن موروثهم المنافقون ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن

تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [التوبة: ٥٠].

وقال تعالى فى شأن السلفين المختلفين والحق لا يندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

كره الله طاعاتهم لخبث قلوبهم، وفساد نياتهم فثبطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجواره لميلهم إلى أعدائه فطردهم عنه وأبعدهم، وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم وأشقاهم وما أسعدهم، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده إلا أن يكونوا من التائبين فقال تعالى ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة: ٤٦].

ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم؛ فقال وهو أحكم الحاكمين ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة: ٤٧].

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها، ولقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم، واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر وبينها لهم فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [محمد: ٩].

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص فرآها حائلة بينه وبين بدعته وهواه فهي في وجهه كالبنيان المرصوص، فباعها بمحصل من الكلام الباطل واستبدل منها بالفصوص، فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم وإسرارهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد:٢٦، ٢٨].

أسروا سرائر النفاق فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم وفلتات اللسان، ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد كيف والناقد البصير قد كشفها أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ [محمد:٢٩، ٣٠].

فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق، وتجلى الله جل جلاله للعباد، وقد كشف عن ساق ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون، ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المعارج: ٤٤].

أم كيف بهم إذا حشروا إلى جسر جهنم وهو أدق من الشعرة وأحد من الحسام، وهو دحض مزلة مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطيء الأقدام، فقسمت بين الناس الأنوار وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب وأعطوا نورا ظاهرا مع أهل الإسلام، كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام، فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح، فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور، فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، ولكن قد حيل بين القوم وبين

المفاتيح، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة، ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم تبدو لناظر الإنسان، ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ لنتمكن في هذا المضيق من العبور، فقد طفئت أنوارنا ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور، ﴿ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ ﴾ حيث قسمت الأنوار، فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار، كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق، فهل يلوي اليوم أحد على أحد في هذا الطريق، وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق، فذكروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار، كما يذكر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار، ﴿ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ ﴾ [الحديد: ١٤].

ألم نكن معكم نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلون، ونقرأ كما تقرؤون، ونتصدق كما تصدقون، ونحج كما تحجون، فما الذي فرق بيننا اليوم حتى انفردتم دوننا بالمرور ؟ قالوا: بلى ! ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد وكل ظلوم كفور، يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ [الحديد:١٤، ١٥].

الباب الثالث

جرائم المنافقين وخياناتهم

جرائم المنافقين

منذ أن ظهرت هذه الفئة الخبيثة في المجتمع المدني إلا وهي ساعية سعياً حثيثاً في محاربة هذا الدين، والنيل من أهله، والتآمر على أوطانه وبلاده؛ فقلوبهم تحترق إذا رأوا بأهل الإسلام حسنة ونعمة، وتطير فرحا إذا حلت بهم مصيبة ونكبة ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠]

فما ظنك بهذه القلوب المحترقة الممتلئة حسداً وحقداً وضغينة على أهل الإيمان، وهي دائما متربصة بهم الدوائر، يسارعون بكل قوتهم في إيصال الأذى لهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

ومن ثم فإن جرائم المنافقين لا تحصى كثرة وشدة على الإسلام وأهله، من تدبير المؤامرات ليلا ونهارا، سرا وجهارا، علانية وخفية، دسيسة ومكراً، كأنما يتعبدون بإيذاء المجتمع المسلم، فهم مسارعون في إرضاء أعداء الإسلام، وساعون في حرب الكتاب والسنة نعوذ بالله من شرهم!

والمقصود من عقد هذا الفصل: ذكر نماذج مما فعله المنافقون؛ لتعلم تنوع مكر هذه الطائفة، وأن حيلهم وحربهم لا تختلف كثيراً عن وسائل وآليات حربهم في زمان النبوة وما بعده من القرون الفاضلة الأولى، ومن فوائد إيراد هذا

الفصل أيضا: الإشارة إلى الحقد المتأصل في قلوب هذه الفئة وأن هذا الحقد لا يشفيه إلا محق ومحو هذا الدين وإطفاء نوره والقضاء على أهله وحملة لوائه، ولما كان هذا ممتنعاً عقلاً وشرعاً؛ كانت قلوبهم لا تشبع ولا ترتوي من كثرة المؤامرات والمكائد التي يحيكونها.

ومن فوائده أيضا: أن تكون هذه النماذج من جرائمهم علامة بارزة عليهم وإظهارهم وفضحهم أمام المجتمع المؤمن، ومن هنا نرى اهتمام القرآن الكريم بسرد مكائدهم وحكاية أقوالهم، وما حفلت به كتب السير والتاريخ في ذكر ذلك، واهتمام العلماء بتدوين ذلك، كل ذلك في إشارة منهم إلى فعل هذه الطائفة وأن هذا سبيلهم دائما كما قال الله في الظالمين: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمُۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ [البقرة: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل: ٣٥].

فالمشركون والمنافقون من كل الأمم تتشابه أفعالهم وأقوالهم وحيلهم ومكرهم وحربهم لأنبيائهم ورسلهم، وقد عبر الله تعالى عن هذه الحقيقة بقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]: ولم يقل: تشابهت أقوالهم؛ لأن القلب هو ملك الجوارح وهو أصل الجوارح، فإذا تشابه الأصل تشابهت الفروع تبعاً له، وليس عجب المرء من سفاهة وسُخف عقول هذه الفئة الخبيثة على الرغم من كونهم ما يحسنون استحداث طرق جديدة لحرب الدين وحرب السنة وأهل الإيمان، فالطرق كلها محفوظة محفورة في ذاكرة التاريخ بكل أحداثها وآليات تنفيذها وتداعياتها، حذو القُذة بالقُذة، فهذه الطائفة ساعية جهد أنفسها في نبش

أكفان أسلافهم ونثر رفاتها وإحياء ما تعفن و ترمم من عظامها، والفارق الوحيد فقط فيها هو اختلاف الأشخاص والمسميات والزمان = إنما العجب كل العجب من أتباعهم وأذنابهم وأنصارهم كيف يصدقون هذه الأكاذيب ؟ كيف يروج عليهم ذلك المكر الباهت المفضوح البيِّن عوارُه لكل ذي عينين ؟

مسلسل خيانات وجرائم المنافقين:

١ ـ خيانة أبي رغال

لعل من أقدم مثال للخيانة التي عرفها العرب، خيانة أبي رغال قسي بن منبه بن النبيت بن يقدم، من بني إياد، أبو رغال: صاحب القبر الذي يرجم إلى اليوم بين مكة والطائف، وكان أبو رغال دليل جيش إبرهة حين مجيئهم لهدم الكعبة، فرجم مع من رجم، فأصبح مضرب المثل في الخيانة والعمالة.

وهو جاهلي وكان في الطائف، وهي ديار ثقيف، وكانت ثقيف تعير به، قال حسان بن ثابت: " إذا الثقفي فاخركم فقولوا: هلم نعد شأن أبي رغال ! " ودفن في " المغمس " وقبره معروف.

ولما ظهر الإسلام كان خبر الحبشة ومحاولتهم احتلال مكة حديث الناس يتناقلوه لقرب عهده – ولم يمض عليه أكثر من نصف قرن – فمر النبي ﷺ بقبر " أبي رغال " فأمر برجمه فرجم، فكان ذلك سنة.

قال جرير: " إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال " وقال عمر رضي الله عنه لغيلان بن سلمة: لئن لم ترجع في مالك لأرجمن قبرك كما يرجم قبر أبي رغال »(١)

(١) الأعلام لخير الدين الزركلي (٥/ ١٩٨) بتصرف .

٢ ـ شفاعة عبدالله بن أبي بن سلول ليهود بني قيناع (١):

لما غدر يهود بني قينقاع وكشفوا سوأة امرأة مسلمة

عِيلَ صبر رسول الله ﷺ، فاستخلف على المدينة أبا لُبَابة بن عبد المنذر، وأعطي لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب ـ فهو إذا أرادوا خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه في قلوبهم ـ فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا.

وحينئذ قام عبد الله بن أبي بن سلول بدور نفاقه، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم العفو، **فعند البيهقي وغيره:**

« أَنَّ بَنِيَ قَيْنُقَاعَ كَانُوا أَوَّلَ يَهُودَ نَقَضُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحَارَبُوا مِنْهَا بَيْنَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ. فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أَمْكَنَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ - وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ - فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْسِلْنِي**»، وَغَضِبَ حَتَّى رُئِيَ لِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ظِلَالٌ، فَقَالَ لَهُ: «**وَيْحَكَ أَرْسِلْنِي**». فَقَالَ: وَاللهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيَّ

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٧)، دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٧٤)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٧٧، ٤٧٨)، والرحيق المختوم (ص: ٢٠١)

أَرْبَعُمِائَةِ حَاسِرٍ، وَثَلَاثُمِائَةِ دَارِعٍ، مَنْ مَنَعُونِي مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِي وَاللهِ إِنِّي لَامْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هُمْ لَكَ**»

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق ـ الذي لم يكن مضي على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب ـ عامله بالحسنى. فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أَذْرُعَات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم.

وأخرج ابن جرير بسنده:قال: جاء عبادة بن الصامت، من بني الخزرج، إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي !

فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: « **يا أبا الحُباب، ما بَخِلْتَ به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه** ». قال: قد قبلت! فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

٣ ـ انخذال عبد الله بن أبي بن سلول ورجوعه بثلث الجيش يوم أحد:

لما وصل خبر خروج مكة للحرب، استشار النبي ﷺ أصحابه في الخروج لهم أو يبقى في المدينة ويقاتلهم منها، فأشار ابن أبيٍّ بالمكث في المدينة وقال: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج اليهم فوالله ما خرجنا منها الى عدو لنا قط الا أصاب منا ولا دخلها علينا الا أصبنا منه فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا!

وأشار أكثر أصحابه بالخروج لملاقاة العدو خارج المدينة وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، فما زال الناس به ﷺ حتى لبس لأمته وخرج لقتال المشركين، فغضب لذلك المنافق وخبأها في صدره واشتعل قلبه حقدا وحسدا على رسول الله أن يطاع دونه، «حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبدالله بن ابي ابن سلول بثلث الناس، وقال أطاعهم وعصاني ! ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبدالله ابن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم !

فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال.

قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه "(١)

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦ – ١٦٨].

وإنما فعل ذلك المنافق حين كان الجيش على مرأى من المشركين حتى يخذل رسول الله وجيشه بانسحاب ثلث الجيش وكي يجرئ المشركين ويحمسهم على القتال وكاد هذا المكر الخبيث من هؤلاء المنافقين أن يفتن

(١) السيرة النبوية (٤/ ٩)

بعض المؤمنين؛ فقد همت طائفتان من المؤمنين: بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج ـ أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعدما سري فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالي: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وفي غزوة أحد مواقف كثيرة مخزية للمنافقين، ففي هذه الغزوة انكشف عاورهم وبدأ مسلسل الخيانات يبدو واضحًا لكل ذي عينين، وانكشف بعدها غطاء الريب والشك

« كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين، ففضحهم، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله ﷺ، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلج بقلوب ضعفاء المسلمين، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود- أصحاب الدس والمؤامرة- وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تمخضت عنها هذه المعركة.

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران:١٢١] وتترك في نهايتها تعليقا جامعا على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩]».(١)

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٦٢)

٤ ـ فضح الصحابة لكبير المنافقين في مسجد النبي ﷺ

كان من مكر عبد الله بن أبيّ بن سلول أنه كان يقوم يعظ كل جمعة بعد نزول النبي ﷺ ويحثهم على اتباع النبي ﷺ؛ حتى فعل فعلته يوم أحد، «قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ كَمَا حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ لَهُ مَقَامٌ يَقُومُهُ كُلَّ جُمُعَةٍ لَا يُنْكَرُ لَهُ شَرَفًا فِي نَفْسِهِ وَفِي قَوْمِهِ، وَكَانَ فيهم شَرِيفًا، إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ قَامَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا رَسُولُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ أَكْرَمَكُمُ اللهُ بِهِ وَأَعَزَّكُمْ بِهِ، فَانْصُرُوهُ وَعَزِّرُوهُ وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا.

ثُمَّ يَجْلِسُ..حَتَّى إِذَا صَنَعَ يَوْمَ أُحُدٍ مَا صَنَعَ وَرَجَعَ النَّاسُ قَامَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ، **فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بِثِيَابِهِ مِنْ نَوَاحِيهِ وَقَالُوا: اجْلِسْ أَيْ عَدُوَّ اللهِ، وَاللهِ لَسْتَ لِذَلِكَ بِأَهْلٍ وَقَدْ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ.**

فَخَرَجَ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بُجْرًا أَنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ! فَلَقِيَهُ رِجَالٌ من الانصار بِبَاب الْمَسْجِد فَقَالُوا: وَيلك مَالك؟ قَالَ: قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ فَوَثَبَ إِلَيَّ رِجَالٌ من أَصْحَابه يجبذوننى وَيُعَنِّفُونَنِي، لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بُجْرًا أَنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ.

قَالُوا: وَيْلَكَ ارْجِعْ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ: وَاللهِ مَا أبغى أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي »[1]

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٠٣)، دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (٣/ ٣١٨)

٥ ـ مناصرتهم لليهود في المدينة وتحريضهم على قتال وخيانة المسلمين

وهذه خيانة أخرى للطابور الخامس طابور المنافقين حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم بالمناصرة والمساندة والقتال معهم إذا أقدموا على قتال المسلمين

وقد ذكر الله تعالى في سورة الحشر؛ فإن بني النضير خانوا النبي ﷺ وأقدموا على قتله غيلة، « فما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: «اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

ولم يجد يهود مناصا من الخروج، فأقاموا أياما يتجهزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين- عبد الله بن أبي- بعث إليهم أن اثبتوا وتمنعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك »[1]

وقد سطر هذا القرآن قال تعالى: ﴿ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ

(١) الرحيق المختوم (ص: ٢٦٩)

أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحشر: ١١ – ١٥].

٦ ـ خيانة المنافقين في يوم الأحزاب

فالمنافقون تزداد دسائسهم وخيانتهم حين يرون ضعفًا بالصف المسلم

تتجلى لك هذه الصورة وأنت تقرأ قوله تعالى واصفًا حال المؤمنين حين قدم الأحزاب إلى المدينة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠ – ١١].

مع قول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيح عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ

كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ »(١)

ففي هذه الظروف العصبية تخرج طائفة المنافقين لتزيد البلاء على الصف المسلم ، يخرجون من جحورهم عند المواقف الصعبة التي يمر بها المجتمع المسلم؛ ليكونوا معول هدم وخيانة وزيادة في بلاء المجتمع المسلم، فيقوموا بالطعن من الظهر، والخيانة من داخل الصف، وبث الرعب في القلوب وإرجافها، ونشر المخاوف والرعب في قلوب المؤمنين، وهذا ما حدث منهم في غزوة الخندق؛ **فقد شهدت هذه الغزوة مواقف مخزية كثيرة للمنافقين منها:**

أ ـ صناعة الحرب النفسية لتخذيل الصف المسلم والطعن فيه من الداخل وتوهين عزمه وتثبيطه عن ملاقاة الأعداء ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١١ – ١٣].

« يقول تعالى مخبرا عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم: أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالا شديدا، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ أما المنافق، فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسيكة، ضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤١٤)

الحال»(١)

وجعل الرجل منهم يقول: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !.

وطائفة أخرى في المدينة تقوم بدور الاستقطاب للمؤمنين بدعوتهم للمجيء للمدينة وترك ساحة القتال قال تعالى: ﴿ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ ﴾[الأحزاب: ١٨].

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم، أي: أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ ﴾ أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار

ب ـ الفرار من القتال

فإنهم كانوا يستأذنون النبي ﷺ قال تعالى عنهم : ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦ ﴾[الأحزاب: ١٢ – ١٦].

فإن الواحد منهم جعل يصرخ على أخيه في النفاق يقول: لا مقام لنا هنا، إنما مقامنا في بيوتنا في المدينة ويتعللون بإن بيوتهم مكشوفة يخافون عليها السرقة.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٣٨٨)

أي: ليس دونها ما يحجبها عن العدو، فهم يخشون عليها منهم. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أي: ليست كما يزعمون، ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي: هربا من الزحف.

من أجل ذلك جعلوا يستأذنون النبي ﷺ، يقول حذيفة رضي الله عنه: «لَقَدْ رأيتُنا لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَنَحْنُ صافُّون قُعود، وَأَبُو سُفْيَانَ ومَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَحْزَابِ فَوْقَنَا، وَقُرَيْظَةُ الْيَهُودُ أَسْفَلَ مِنَّا نَخَافُهُمْ عَلَى ذَرَارِينَا، وَمَا أَتَت عَلَيْنَا قَطُّ أَشَدُّ ظُلْمَةً وَلَا أَشَدُّ رِيحًا، فِي أَصْوَاتِ رِيحِهَا أَمْثَالُ الصَّوَاعِقِ، وَهِيَ ظُلْمَةٌ مَا يَرَى أَحَدُنَا إِصْبَعَهُ، فَجَعَلَ الْمُنَافِقُونَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيَّ ﷺ، وَيَقُولُونَ: **"إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ"**. فَمَا يَسْتَأْذِنُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَذِنَ لَهُ، وَيَأْذَنُ لَهُمْ فَيَتَسَلَّلُونَ »

ج ـ شدة ألسنتهم على المؤمنين وشحهم بالمطالبة بحقوقهم

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾[الأحزاب: ١٩].

فإن الله تعالى وصف المنافقين حال الخوف واشتداد الأمور بالجبن والهلع والاضطراب والتذبذب حتى كأنهم يغشى عليهم الموت، فإذا جاء الأمن اشتدت ألسنتهم على المؤمنين يطالبون بحقوقهم وحظوظهم من الغنيمة والفيء

فهم أجبن الناس عند لقاء العدو وطلب الآخرة، وأسرعهم عند الأمن والغنيمة وعرض الدنيا !

« قال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأه مقاسمة: أعطونا، أعطونا، قد شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق.

وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم »[١]

٧ ـ حادثة الإفك والدور الخبيث للمنافقين[٢]

وكانت هذه الحادثة قد وقعت في « غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع (في شعبان سنة ٦ هـ) وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف، من حيث الوجهة العسكرية، إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والإضطراب في المجتمع الإسلامي، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس »[٣]

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك، وملخصها أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفته، لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها، وأيضا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذي حمله واحدا أو اثنين لم يخف عليهما الحال، فرجعت عائشة إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٣٩١)
(٢) الرحيق المختوم [ص ٣٠٣]
(٣) الرحيق المختوم [ص ٢٩٨]

منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، والله غالب على أمره، يدبر الأمر، فوق عرشه كما يشاء، فغلبتها عيناها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل:

إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؛ وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم، فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته، وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفسا، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويشيعه، ويذيعه، ويجمعه، ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم حتى أنزل براءة عائشة رضي الله عنها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور: ١١] العشر الآيات.

تأثير حادثة الإفك على المجتمع المسلم

لاشك أن إثارة المنافقين للقلاقل والفتن وكثرة التشويش يحرك نفوساً ضعيفة في الإيمان، حين يسمع لهؤلاء وحين يثق في كلامهم، فالمنافقون أصحاب فتنة وشر ونشر للفواحش، مع كمال تربصهم للمؤمنين وحسدهم لهم تغظيهم عليهم، وللأسف فإن بعض المؤمنين قد يصغي لهم ويتابع كلامهم

وأخبارهم كما قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

وهؤلاء المنافقون غالبا ما يأتون بكلام معسول يستذل الآذان، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: ٤] والمقصود أن طائفة من المؤمنين قد وقعوا فيما وقع فيه المنافقون في الوقوع في عرض عائشة أم المؤمنين ورموها بالفاحشة ظانين أن هذا شيئا يسيرا، لا يضرهم أن خاضوا فيه، متقولين له فيما بينهم فعاتبهم الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور: ١٥].

أتدري من رميت وكيف تدري فما أعماك عن شمس وبدر
رميت الفجر بالبهتان كيداً ونور الحق محفوف بفجر

وجلد من أهل الإفك مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، جلدوا ثمانين، ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك، والذي تولى كبره، إما لأن الحدود تخفيف لأهلها، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، وإما للمصلحة التي ترك لأجلها قتله.

وأما المؤمنين الذين عصمهم الله تعالى من هذه الفتنة فإنهم ردوا كيد المنافقين من أول وهلة، ولم يستمعوا لتلك الأراجيف والخدع ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور: ١٢].

٨ ـ خيانة المنافقين للنبي ﷺ وإفشاء تحركه إلى خيبر(١)

أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر: أن محمدا قصد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزّل لا سلاح معهم إلا قليل. فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين. وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين.

٩ ـ مسجد الضرار(٢)

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

وهذه الآيات نزلت في سبعة عشر نفسًا من بني عمرو بن عوف بنوا قريبًا من مسجد قباء مسجدًا لأجل أبي عامر الفاسق(٣) وكانوا يسمونه الراهب، وكان

---

(١) انظر : الرحيق المختوم [ص ٣٣٤]، المنهج الحركي للسيرة النبوية [٣ / ٦٢] سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام [١ / ٤٦٣]

(٢) انظر : ادرج الدرر في تفسير الآي والسور ط الحكمة [٢ / ٩١٨] تفسير البغوي - إحياء التراث [٢ / ٣٨٦] تفسير القرطبي [٨ / ٢٥٣]

(٣) قال ابن كثير : « "أبو عامر الراهبُ"، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قَدم رسولُ الله =

بالشام، فبنوا هذا المسجد لأجله ينتظرون قدومه عليهم في ذلك المسجد، وكان يؤمهم مُجَمَّع بن جارية كالنائب عن أبي عامر الفاسق وكان منافقًا قارئًا للقرآن، فطلبوا من رسول الله قبل خروجه إلى غزوة تبوك أن يحضرهم فيصلِّي بهم في مسجدهم يبتغون بذلك عذرًا لأنفسهم، فقال -عليه السلام-: "حتى أنصرف من هذه الغزوة" فأنزل الله في منصرفه.

=

ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش فألَّبهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرت ربَاعِيتُه اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شَر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة.

وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويُمنِّيهم أنه سيقدمُ بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه ويكونَ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه » تفسير ابن كثير [٤ / ٢١١]

وإنما بنوا هذا المسجد مضارّة للمؤمنين "وَكُفْراً، باللّه ورسوله، وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ"، لأنهم كانوا جميعا يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلّي فيه بعضهم فيؤدّي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، وكذلك بنوه: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: انتظارا وإعدادا لمن حارب اللّه ورسوله.

فماذا فعل النبي ﷺ ؟

لما انصرف رسول اللّه ﷺ من تبوك ونزل بذي أوان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره اللّه تعالى خبر مسجد الضرار وما همّوا به، فدعا رسول اللّه ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشيا قاتل حمزة، وقال لهم: «**انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه**»، فخرجوا سريعا حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي فدخل أهله فأخذ سعافا [٣] من النخل وأشعل فيه نارا، ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرّق عنه أهله، وأمر النبيّ ﷺ أن يتّخذ ذلك كناسة تلقى فيه الجيف والنتن والقمامة.

١٠ ـ محاولة اغتيال المنافقين للنبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾ [التوبة: ٧٤].

فقوله سبحانه: ﴿ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾ إشارة إلى تلك الحادثة المدبرة التي أرادها المنافقون بقتل النبي ﷺ وهو في عودته من غزوة تبوك، فقد اجتمع

فقد أخرج أحمد في مسنده بسند صحيح عن عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: لَمَّا أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى: إِنَّ رَسُولَ اللهِ أَخَذَ الْعَقَبَةَ، فَلَا يَأْخُذْهَا أَحَدٌ، فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُودُهُ حُذَيْفَةُ وَيَسُوقُ بِهِ عَمَّارٌ إِذْ أَقْبَلَ رَهْطٌ مُتَلَثِّمُونَ عَلَى الرَّوَاحِلِ، غَشَوْا عَمَّارًا وَهُوَ يَسُوقُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ عَمَّارٌ يَضْرِبُ وُجُوهَ الرَّوَاحِلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحُذَيْفَةَ: " قَدْ، قَدْ " حَتَّى هَبَطَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا هَبَطَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَزَلَ وَرَجَعَ عَمَّارٌ، فَقَالَ: " يَا عَمَّارُ، هَلْ عَرَفْتَ الْقَوْمَ ؟ " فَقَالَ: قَدْ عَرَفْتُ عَامَّةَ الرَّوَاحِلِ وَالْقَوْمُ مُتَلَثِّمُونَ قَالَ: " هَلْ تَدْرِي مَا أَرَادُوا ؟ " قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَطْرَحُوهُ " قَالَ: فَسَأَلَ عَمَّارٌ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: نَشَدْتُكَ بِاللهِ، كَمْ تَعْلَمُ كَانَ أَصْحَابُ الْعَقَبَةِ فَقَالَ: أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ فِيهِمْ فَقَدْ كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ، فَعَذَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُمْ ثَلَاثَةً قَالُوا: وَاللهِ مَا سَمِعْنَا مُنَادِيَ رَسُولِ اللهِ، وَمَا عَلِمْنَا مَا أَرَادَ الْقَوْمُ، فَقَالَ عَمَّارٌ: أَشْهَدُ أَنَّ الِاثْنَيْ عَشَرَ الْبَاقِينَ حَرْبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ »(١)

وفي رواية البيهقي: وَقَالَ لِصَاحِبَيْهِ يَعْنِى حُذَيْفَةَ وَعَمَّارًا:« هَلْ تَدْرُونَ مَا أَرَادَ الْقَوْمُ؟ » قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرَادُوا أَنْ يَزْحَمُونِى فِى الثَّنِيَّةِ فَيَطْرَحُونِى مِنْهَا فَقَالاَ أَفَلاَ تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْكَ النَّاسُ فَقَالَ أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَضَعَ يَدَهُ فِى أَصْحَابِهِ يَقْتُلُهُمْ.»(٢)

---

(١) أحمد [٣٩ / ٢١٠]

(٢) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي [٨ / ١٩٨]

وفي الدلائل للبيقهي قلنا: يا رسول الله، أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم، قال: " لا، أكره أن تحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم "، ثم قال: " اللهم ارمهم بالدبيلة ". قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة قال: " شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك »(١)

١١ ـ موت النبي ﷺ وظهور النفاق واستعلانه في المدينة وظهور مدعي النبوة

لما مات النبي ﷺ حصل للمسلمين عامة وللصحابة خاصة هزة عظيمة، وزلزلة رهيبة حزنا وكمداً على نبيهم ﷺ، وحين ذاك سنحت الفرصة للمنافقين أن تشرئب أعناقهم وأن يعلنوا نفاقهم، ولذلك

« لما توفي ارتدت احياء كثيرة من الاعراب، ونجم النفاق بالمدينة وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة، والتفت على طليحة الاسدي بنو أسد وطيء، وبشر كثير أيضا، وادعى النبوة أيضا كما أدعاها مسيلمة الكذاب، وعظم الخطب واشتدت الحال، ونفذ الصديق جيش أسامة، فقل الجند عند الصديق، فطمعت كثير من الاعراب في المدينة وراموا أن يهجموا عليها، فجعل الصديق على أنقاب المدينة حراسا يبيتون بالجيوش حولها »(٢)

١٢ ـ امتناع قبائل العرب عن أداء الزكاة وارتداد قبائل العرب

لما مات النبي ﷺ « جعلت وفود العرب تقدم المدينة.

---

(١)دلائل النبوة للبيهقي [٥ / ٢٦١]
(٢) البداية والنهاية [٦ / ٣٤٢]

يقرون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة، ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصديق، وذكر أن منهم من احتج بقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا، وأنشد بعضهم:

أطعنـــا رســـول الله إذ كـــان بيننـــا فواعجبـا مـا بـال ملـك أبـي بكـر»(١)

قال محمد بن إسحاق: ارتدت العرب عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ما خلا أهل المسجدين، مكة، والمدينة، وارتدت أسد وغطفان وعليهم طليحة بن خويلد الاسدي الكاهن، وارتدت كندة ومن يليها، وعليهم الاشعث بن قيس الكندي، وارتدت مذحج ومن يليها، وعليهم الاسود بن كعب العنسي الكاهن، وارتدت ربيعة مع المعرور بن النعمان بن المنذر، وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب، وارتدت سليم مع الفجأة، واسمه أنس بن عبد يا ليل، وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة »(٢)

١٣ ـ فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه

وهذه الفتنة ما صنعها ولا أججَ نارها إلا المنافقون في الكوفة، حيث «وزورت كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة، وعلى لسان علي وطلحة والزبير، يدعون الناس إلى قتال عثمان ونصر الدين، وأنه أكبر الجهاد اليوم».(٣)

---

(١) البداية والنهاية [٦ / ٣٤٢]
(٢) البداية والنهاية [٦ / ٣٤٤]
(٣) البداية والنهاية [٧ / ١٩٤]

وخرجوا من مصر في أربعة آلاف رجل ومعهم ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودي، وخرج أهل الكوفة في عدتهم، وخرج أهل الكوفة في عدتهم،

« وأهل مصر مصرون على ولاية علي بن أبي طالب، وأهل الكوفة عازمون على تأمير الزبير، وأهل البصرة مصممون على تولية طلحة.

لا تشك كل فرقة أن أمرها سيتم، فسار كل طائفة من بلدهم حتى توافوا حول المدينة »(١)

واجتمع هؤلاء وغيرهم حول دار عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى قتلوه، يقول: عن مسلم أبي سعيد مولى عثمان بن عفان: «أن عثمان أعتق عشرين مملوكا ودعا بسراويل فشدها ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبا بكر وعمر، وأنهم قالوا لي: اصبر فإنك تفطر عندنا الليلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه، فقتل وهو بين يديه.

قلت: إنما لبس السراويل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا اليوم لئلا تبدو عورته إذا قتل، فإنه كان شديد الحياء، كانت تستحي منه ملائكة السماء، كما نطق بذلك النبي ﷺ، ووضع يديه المصحف يتلو فيه، واستسلم لقضاء الله عز وجل، وكف يده عن القتال، وأمر الناس و عزم عليهم أن لا يقاتلوا دونه، ولولا عزيمته عليهم لنصروه من أعدائه، ولكن كان أمر الله قدرا مقدورا »(٢).

١٤ ـ موقعة الجمل ودور المنافقين في إشعال فتيل القتال.

لما قتل السبيئون ثالث الخلفاء الراشدين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، طالب جماعة من المؤمنين أن يأخذوا بالثأر من قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الفور، ورأى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن

(١) البداية والنهاية [٧ / ١٩٤]
(٢) البداية والنهاية [٧ / ٢٠٥]

يتمهل حتى يتسم له أمر الخلافة، وجمع الناس والتمكن من أزمة الأمور ثم يأخذ بثأر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاختلف الجمعان، كل له حجته ومقصوده الطيب في قيام الحق ونصرته، فسار الفريق الأول وفيهم عائشة أم المؤمنين ومعاوية وطلحة وغيرهم مطالبين بالثأر من قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسار إليهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى ينظر مطالبهم ولم يكن في نية فريق منهم القتال ولا المنابذة، وكاد الفريقان أن يتوافقا ويصطلحا ويرجعوا كل إلى داره؛ لولا قيام المنافقين من السبئين ومارقة هذه الأمة في إشعال نار الحرب، وتأجيج نار الفتنة بين الفريقين، يصور لنا ابن كثير هذا الموقف فيقول:

«والمقصود أن الاحنف لما انحاز إلى علي ومعه ستة آلاف قوس، فقال لعلي: إن شئت قاتلت معك، وإن شئت كففت عنك عشرة آلاف سيف، فقال: اكفف عنا عشرة آلاف سيف، ثم بعث علي إلى طلحة والزبير يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الامر، فأرسلا إليه في جواب رسالته: إنا على ما فارقنا القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس.

فاطمأنت النفوس وسكنت، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث علي عبد الله بن عباس إليهم، وبعثوا إليه محمد بن طليحة السجاد وبات الناس بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشر ليلة، وباتوا يتشاورون وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغلس، **فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفي رجل فانصرف كل فريق إلى قراباتهم فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح**، فقالوا طرقتنا أهل الكوفة ليلا، وبيتونا وغدروا بنا، وظنوا أن هذا عن ملا من أصحاب علي فبلغ الامر عليا فقال: ما للناس ؟ فقالوا، بيتنا أهل البصرة، فثار كل فريق إلى

سلاحه ولبسوا اللامة وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد منهم بما وقع الامر عليه في نفس الامر، وكان أمر الله قدرا مقدورا وقامت الحرب على ساق وقدم، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان، فنشبت الحرب، وتواقف الفريقان وقد اجتمع مع علي عشرون ألفا، والتف على عائشة ومن معها نحوا من ثلاثين ألفا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والسابئة أصحاب ابن السوداء قبحه الله لا يفترون عن القتل »(١)

١٥ ـ فتنة التتار في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية والدور المخزي للمنافقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده. ودأب الأمم وعاداتهم لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها ، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه ، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه ، وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتث ويخترم. وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم. وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار ، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار.

وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورا ، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك في قلوبهم وظنوا ظن السوء وكانوا قوما بورا ، ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران ، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان ، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان.

---

(١) البداية والنهاية [٧ / ٢٦٧]

وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان ، من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمان ، ورفع بها أقواما إلى الدرجات العالية، كما خفض بها أقواما إلى المنازل الهاوية ، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة ، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى.

فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقي وسعيد كما يتفرقون كذلك...

حتى قال: **حيث تحزبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين. وآخر خاذل له. وآخر خارج عن شريعة الإسلام.**

وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور. وآخر قد غره بالله الغرور. وكان هذا الامتحان تمييزا من الله وتقسيما، ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٤]»(١)

١٦ ـ خيانة شاور للمسلمين واستغاثته بأمير الفرنجة

و شاور بن مجير الدين أبو شجاع السعدي الملقب بأمير الجيوش ، لما قتل الناصر رزيك بن طلائع، وقام في الوزارة بعده، واستفحل أمره فيها، فإنه لم فر ذهب إلى نور الدين محمود زنكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فاستنجد به فأنجده وأكره ضيافته، لكنه خانه بعد ذلك واستغاث بالفرنجة

حيث تحالف الوزير الفاطمي «شاور» مع الفرنجة الصليبيين الذين سماهم «الفرج»! وعقد معهم معاهدة دفعت بموجبها مصر الجزية للجيوش الصليبية، التي عسكرت حامية منها على أبواب القاهرة، وبيدها مفاتيح أبواب العاصمة!

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢٧)

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فخرج شاور من الديار المصرية هاربا من العاضد ومن ضرغام، **ملتجئا إلى نور الدين محمود**، وهو نازل بجوسق الميدان الاخضر، فأحسن ضيافته وأنزله بالجوسق المذكور، وطلب شاور منه عسكرا ليكونوا معه ليفتح بهم الديار المصرية، وليكون لنور الدين ثلث مغلها، فأرسل معه جيشا عليه أسد الدين شيركوه بن شادي، فلما دخلوا بلاد مصر خرج إليهم الجيش الذين بها فاقتتلوا أشد القتال، فهزمهم أسد الدين وقتل منهم خلقا، وقتل ضرغام بن سوار وطيف برأسه في البلاد، واستقر أمر شاور في الوزارة، وتمهد حاله، ثم اصطلح العاضد وشاور على أسد الدين، ورجع عما كان عاهد عليه نور الدين، وأمر أسد الدين بالرجوع فلم يقبل منه، وعاث في البلاد، وأخذ أموالا كثيرة، وافتتح بلدانا كثيرة من الشرقية وغيرها، **فاستغاث شاور عليهم بملك الفرنج الذي بعسقلان، واسمه مري**، فأقبل في خلق كثير فتحول أسد الدين إلى بلبيس وقد حصنها وشحنها بالعدد والآلات وغير ذلك، فحصروه فيها ثمانية أشهر»(١)

١٧ ـ بيع الصالح إسماعيل السلاح للصليبيين

وعندما انحاز سلطان دمشق الصالح، وأباح للصليبيين شراء السلاح من أسواق دمشق، غضب سلطان العلماء العز بن عبدالسلام لهذه الخيانات، ولما سأل تجار السلاح بدمشق: هل تبيعون السلاح للصليبيين؟ وليس لهم مورد غير تجارة السلاح، صعد العز منبر الجامع الأموي يوم الجمعة، وأفتى بتحريم بيع السلاح للأعداء، ولم يدعُ للسلطان يومها، كما هي العادة، بل دعا عليه في عبارة

(١) البداية والنهاية [١٢ / ٣٠٨]

واضحة قال فيها: «اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، يعز فيه أولياؤك، ويذل فيه أعداؤك، ويعمل فيها بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك»، والمصلون - بمن فيهم تجار السلاح - يهدرون خلف سلطان العلماء بقولهم: آمين »(١)

١٨ ـ ابن العلقمي الخبيث وخيانته للمسلمين

وفي عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٦م أدت خيانة الوزير ابن العلقمي الرافضي المحترق وشيعته الدور الأكبر في تمكين التتار من دمار بغداد والمشرق الإسلامي والعربي، على النحو الذي ذهب مثلاً في تاريخ الإبادة والدماء، فسقطت الخلافة العباسية، ودمرت الكنوز الفكرية والحضارية ببغداد، وقتل من أهلها أكثر من ثمانمائة ألف - بمن فيهم الخليفة وأركان دولته - حتى وصف ابن كثير حال الناس الذين نجوا من المذبحة وخرجوا من الأقبية «كأنهم الموتى؛ إذ نبشوا قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً؛ فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا ولحقوا بمن سبقهم من القتلى»(٢)!

• كان ابن العلقمي الرافضي الخائن شديد الحنق على العلماء من أهل السنة حتى أنه كان يتشفى بقتلهم ومن أبرزهم في ذلك الوقت الشيخ محي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي وهو وأولاده الثلاثة "عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم" وأكابر الدولة واحدًا واحدًا وكان الرجل يستدعي به من دار الخلافة فيذهب به إلى مقبرة الغلال فيذبح كما تذبح الشاة ويؤسر من

(١) السبكي، «طبقات الشافعية الكبرى»، ج ٥، ص ١٠٠، ١٠١، طبعة القاهرة الأولى.
(٢) «تهذيب البداية والنهاية»، ج٤، ص ٣٠٥، ٣٠٧، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

يختارون من بناته وجواريه وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي بن النيار وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد وأراد الوزير ابن العلقمي قبحه الله ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعَلَمهم بها وعليها(١).

اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة فقيل ثمانمائة ألف وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس فإنا لله وإنا إليه راجعون(٢).

• القتلى في الطرقات كالتلال سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد وتغير الهواء حصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون(٣).

١٩ ـ منافقو الدولة الصفوية للأمة الإسلامية

وكانت الدولة العثمانية قد شرعت في الزحف على البلقان ووسط أوروبا؛ لتخفيف الضغط على المسلمين في غربي أوروبا، فخرجت الدولة الصفوية الفارسية، بقيادة الشاة «إسماعيل الصفوي» عن الولاء للأمة، وتحالفت مع الصليبيين البرتغاليين، فغزت العراق والحدود الشرقية للدولة العثمانية؛ الأمر

(١) (البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٣).
(٢) (السابق (١٣/ ٢٠٢.)
(٣) (السابق (١٣/ ٢٠٣).

الذي اضطر الجيوش العثمانية إلى الانسحاب من أسوار فيينا (٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م)، وتكررت هذه الخيانة الصفوية على عهد الشاه الصفوي «نار شاه» الأمر الذي اضطر الجيوش العثمانية إلى الانسحاب مرة ثانية من على أسوار فيينا !

٢٠ ـ وجرائم الشيعة النصيرية وغيرها من طوائف الشيعة لأهل السنة كثيرة لا تحصى

فمن ذلك:

قتلهم لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد حصار طويل ثم تآمرهم في يوم الجمل حتى نشبت الحرب واحتدم القتال بين الصحابة الكرام.

خيانة البوهيين للخلافة الإسلامية:

البويهيون ينتسبون إلى رجل من الديلم يقال له بويه كنيته أبو شجاع كان أولاده ثلاثة:

١. أبو الحسن علي ولقب عماد الدولة.

٢. و أبو علي الحسن ولقب بركن الدولة.

٣. و أبو الحسين أحمد ولقب بمعز الدولة.

• كانوا قوادًا في جيش ابن كالي صاحب إقليم الديلم عندما خرج على الخلافة العباسية فاستولى على عدة أقاليم كأصبهان وأرَّجان وشيراز وغيرها فعظم شأن بني بويه حتى صارت لهم أمور الديلم وما والاه من الأقاليم.

• كان خليفة الوقت الراضي بالله محمد بن المقتدر العباسي وزيره شيعي أبو علي محمد بن علي بن مقلة أخذ يخطط ويدبر لإزالته والتمكين لبني بويه المتشيعين.

• أخذ يكتب للبويهيين يطمعهم في بغداد ويصف لهم الحال الذي عليه الخليفة من الضعف حتى قدم معز الدولة إلى بغداد واستولى عليها سنة ٣٣٤هـ.

في سنة ٣٥٢هـ أمر البويهيون بإغلاق الأسواق في العاشر من المحرم وعطلوا البيع ونصبوا القباب في الأسواق وعلقت عليها المسوح وخرج النساء منتشرات الشعور يلطمن في الأسواق وأقيمت النائحة على الحسين وتكرر طيلة حكم الديالمة ببغداد والتي استمرت نحو مائة وثلاث سنين وأصبحت تقليدًا دينيًا عند الجعفرية الإمامية الاثنى عشرية ولم يمكن لأهل السنة منعه لكثرة الشيعة وظهورهم والسلطان معهم.

• في سنة ٣٥٣هـ عملت الرافضة عزاء الحسين فاقتتل الروافض وأهل السنة قتالاً شديدًا وانتهبت الأموال في نفس العام جاء ملك الروم نقفور إلى طرطوس وأذنة والمصيصة وقتل من أهلها نحو خمسة عشر ألفا وعاث فيها الفساد.

• في سنة ٣٥٤هـ في عاشر محرم عملت الشيعة مأتمهم وبدعتهم وخرجت النساء نائحات سافرات واقتتلوا مع أهل السنة قتالاً شديدًا.

• المجرم: النصير الطوسي الرافضي الخبيث

وقال الشيخ محب الدين الخطيب: " النصير الطوسي، جاء في طليعة موكب السفاح هولاكو وأشرف معه على إباحة الذبح العام في رقاب المسلمين والمسلمات أطفالاً وشيوخًا ورضي بتغريق كتب العلم الإسلامية في دجلة حتى بقيت مياهها تجري سوداء أيامًا وليالي من مداد الكتب المخطوطة التي ذهب بها نفائس التراث الإسلامي من تاريخ وأدب ولغة وشعر وحكمة، فضلاً عن

العلوم الشرعية ومصنفات أئمة السلف من الرعيل الأول التي كانت لا تزال موجودة بكثرة إلى ذلك الحين، وقد تلف مع ما تلف من أمثالها في تلك الكارثة الثقافية التي لم يسبق لها نظير».

❐ خاتمة

وهذ النزر اليسير من خيانات وجرائم المنافقين والمارقين لهذه الأمة لا يمثل شيئا من هذا الكم الزاخر من سجلات الخسة والنذالة التي مُنيت به هذه الأمة على يد هذه الثلة الخبيثة، فهم خنجر مسموم تطعن به هذه الأمة في كل عصر ومصر، وتتبع جرائم هؤلاء يحتاج إلى مؤلف مستقل بذاته، وما ذكرته فيه إشارة إلى ذلك

وإخـــوانٍ تخـــذتهمُ دروعـــًا فكانوهـــا ولكـــنْ للأعـــادي
وخلـــتهم ســـهامًا صـــائباتٍ فكانوهـــا ولكـــنْ في فـــؤادي
وقـــالوا: قـــدْ صـــفتْ منـــا قلـــوبٌ لقـــد صـــدقوا ولكـــنْ مـــن ودادي

وإلا فحدثني من الذي أضاع الإسلام في الأندلس، وأحرق زهرة الجهاد الناضرة في أفغانستان، ودمر حاضرة الخلافة في العراق، وأقام نائحة الثكلى في الشام، وأجاع بطون أهل السنة في اليمن، وشرذم أهل ليبيا، وجاهد في طمس هوية الإسلام في تونس والجزائر، وأكل ثروات المسلمين في الصومال وجيبوتي وغيرها، وأما القضية الفلسطنية وقضية القدس فلن تجد قضية كثرت فيها الخيانات وتكشف فيها وجه المنافقين الكالح كمثل هذه القضية، فإلى الله المشتكى وإليه المرجع والمآب.



الباب الرابع
عقوبات المنافقين

الفصل الأول: العقوبات الإلهية للمنافق في الدنيا.

الفصل الثاني: العقوبات الشرعية في الدنيا.

الفصل الثالث: العقوبات الأخروية للمنافق

عقوبات المنافقين

جاءت عقوبات المنافقين متعددة ومتنوعة تتناسب مع إثم معصيتهم و حجم إفسادهم للمجتمع المسلم، وهذا الكم الرهيب من العقوبات في الدنيا والآخرة لهذه الطائفة الخبيثة يعكس ما هم فيه من الخطر والإثم.

ويمكن تقسيم العقوبات التي تقع على المنافقين إلى ثلاثة أنواع:

الأول: العقوبات الإلهية للمنافق في الدنيا.

الثاني: العقوبات الشرعية للمنافق في الدنيا.

الثالث: العقوبات الأخروية للمنافق.

وإليك تفصيل هذه العقوبات بالأدلة:

أولاً: العقوبات الإلهية للمنافق في الدنيا

العقوبة الأولى: معاقبة المنافق بجنس معصيته:

وهذا أصل عظيم لا بد من ذكره وهو من كمال عدله سبحانه: أن يعاقب المنافق بجنس معصيته، وأن يسقيه من نفس الكأس التي عصى بها، وأن يعامله بنقيض قصده؛ إمعاناً في التغليظ والتضييق عليه والاحتقار له، وليُعلم أن الله لأ قد قابل معصية المنافق بجنس لفظها وإن اختلف المعنيان والحكمان، فخداع المنافق واستهزاؤه ومكره غير خداع الله واستهزاؤه ومكره به، كما أن فعل المنافق ظلم وفعل الله به عدل ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ ﴾ [البقرة: ١٥]

فخداع المنافقين بإظهار الإسلام وإضمار الكفر، يحسبون بذلك أنهم يخدعون الله تعالى، وأما خداع الله لهم بأن يمدهم في غفلتهم وغيهم حتى يلقوا ربهم فلا يجدون لهم عندهم حسنة واحدة

الثانية: مضاعفة العقوبة عليهم بالزيادة في ضلالهم وغيِّهم:

وهذا أصل ثان في عقوبة المنافق أن تضاعف عليه العقوبة في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ ﴾ [البقرة: ١٠]

والمرض هو: الشك والتردد، فيزيدهم الله تشككاً وتردداً في دينهم، عقوبةً

لهم بسبب كفرهم بالله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة: ١٠١].

فقوله تعالى: [سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ].

اختلف أهل العلم في تأويله على أقوال(١):

الأول: القتل والسباء، قاله مجاهد وفي رواية عنه: الجوع وعذاب القبر

الثاني: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار. قاله ابن جريج.

الثالث: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر، قاله الحسن البصري وقتادة.

الرابع: عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾[التوبة: ٨٥] فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ قال: النار.

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير [٤ / ٢٠٥]، تفسير القرطبي [٨ / ٢٤١]، تفسير السعدي [ص ٣٥٠].

قال عبد الرحمن بن زيد:

الخامس: غيظ قلوبهم وتحسرها ثم عذابهم في القبور

وقال محمد بن إسحاق: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ قال: هو -فيما بلغني -ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه.

السادس: الأول أخذ الزكاة من أموالهم وإجراء الحدود عليهم والثاني عذاب القبر

السابع: قيل: أحد العذابين ما قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾ - إلى قوله- ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [التوبة: ٥٥]. والغرض من الآية اتباع العذاب، أو تضعيف العذاب عليهم.

ولا شك أن كل هذه الأنواع متحققة في المنافقين، ثابتة عليهم من نصوص أخرى

الثالثة: التثبيط عن الطاعة، وجعلها ثقيلة عليهم:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة: ٤٦].

والتثبيط: رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله، قال ابن عباس: يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج.

وقال في رواية أخرى: حبسهم، قال مقاتل: وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع

القاعدين.

وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان فقال قبلها : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة: ٤٥] فلما تركوا الإيمان به بلقائه، وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله، ولم يستعدوا له، ولا أخذوا أُهبة ذلك = كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه فإن من لم يرفع به وبرسوله ﷺ أو كتابه رأسا، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفرا؛ فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله ﷺ يكرهه الله سبحانه فثبطه؛ لئلا يقع ما يكره من خروجه ﷺ وأوحى إلى قلبه قدراً وكونـًا أن يقعد مع القاعدين "

وهذا التثاقل والتباطؤ والتكاسل من المنافقين ليس خاصـًا بالجهاد فقط؛ بل هو عام في كل طاعة وقربة؛ ففي الصلاة والذكر قال الله عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢].

في الصحيح عن أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلاَةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلاَةُ الْعِشَاءِ وَصَلاَةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**».

وفي الزكاة والصدقة قال عنهم: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [التوبة: ٥٤].

الرابعة : ذهاب الإيمان وحبوط العمل:

فأما ذهاب الإيمان فقد قال تعالى في شأنهم: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨].

فقد بين سبحانه وتعالى أن المنافقين باعوا هدى الله لهم بأبخس الأثمان؛ فلذا كانت صفقتهم مغبونةً خاسرةً، ثم شبَّه بيعتهم تلك وذهاب أجرهم وربحهم بالكلية بذاك المستوقد نارا في صحراء مظلمة قاحلة، أضاءت له بعد ظلمة رهيبة قد غشيته وعرف شرها وظلمها وهلكتها؛ وكان من الواجب عليه أن يستحضر نعمة النار والنور؛ إذ أبصر كل ما حوله فعرف طريقه، ورأى ما يضره، وعلم ما ينفعه؛ لكنه لسخافة عقله وقلة حظه من التوفيق أطفأ النار، وعاد يتخبط في ظلمة الصحراء، هكذا المنافق قد استلب منه الإيمان بسرعة رهيبة بلا رجعة ولا تؤدة كالنار يخبو لهيبها وتعود رماداً بارداً كأن لم تكن شيئـًا.

الخامسة : عدم تمكين المنافق من التوبة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٠].

" يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفرا إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾ [الصف: ٥].

فالسيئات ينتج بعضها بعضا، وخصوصا لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء

السادسة : الطبع على القلب

قال تعالى: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٨٧ ﴾ [التوبة: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٩٣ ﴾ [التوبة: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ۝١٦ ﴾ [محمد: ١٦].

وقال جل ذكره: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٣ ﴾ [المنافقون: ٣].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤ ﴾ [محمد: ٢٤].

وهذا الطبع على القلب بسبب كثرة الفتن التي تعرض عليه فيشربها ولا ينكرها فتنكت فيه نكتة سوداء، فتتابع الفتن على القلب فيسود ويخرج منه النور حتى يستحكم سواده وظلمته فينتكس عياذاً بالله تعالى.

فعن حذيفة قال قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عَرْضَ الْحَصِيرِ فَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَبْشَرَ بِهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ أَبْيَضُ مِثْلُ الصَّفَا لَا يَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَدٌّ كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا وَأَمَالَ كَفَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»

السابعة: فضح سريرته في الدنيا

من أشد أنواع العقوبات التي تصيب المنافق في الدنيا أن الله يفضح سريرته في الدنيا، ويخرج خبائث نفسه التي يخفيها

أنزل الله تعالى سورة براءة والتي تسمى الفاضحة لأنها فضحت أسرارهم

كما قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة: ٦٤]، فهتك الله أستارهم.

الثامنة: كثرة تردي المنافق في الفتن المهلكة:

قال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٦].

وقال تعالى آيضـًا: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا

رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ ﴾ [النساء: ٩١].

وقال تعالى: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣ ﴾ [النساء: ١٤٣].

وعند مسلم وأحمد عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، لَا تَدْرِي أَهَذِهِ تَتْبَعُ، أَمْ هَذِه**»

وعند أحمد آيضا الْهُذَيْلُ بْنُ بِلَالٍ، عَنِ ابْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ بِمَكَّةَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ مَعَهُ، فَقَالَ أَبِي: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " **إِنَّ مَثَلَ الْمُنَافِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالشَّاةِ بَيْنَ الرَّبِيضَيْنِ مِنَ الْغَنَمِ، إِنْ أَتَتْ هَؤُلَاءِ نَطَحَتْهَا، وَإِنْ أَتَتْ هَؤُلَاءِ نَطَحَتْهَا** "، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: كَذَبْتَ فَأَثْنَى الْقَوْمُ عَلَى أَبِي خَيْرًا أَوْ مَعْرُوفًا فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا أَظُنُّ صَاحِبَكُمْ إِلَّا كَمَا تَقُولُونَ، وَلَكِنِّي شَاهِدٌ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، إِذْ قَالَ: " **كَالشَّاةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ** "، فَقَالَ: هُوَ سَوَاءٌ، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتُهُ».(١)

تجد المؤمن قد حفظه الله بحفظه فنجاه من الفتن التي تموج كموج البحر، فيخرج من كل فتنة نقياً لم تعلق بأذياله شائبة نفاق أو تغير أو انتكاسة أو تقهقر أو تذبذب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ ﴾ [يونس: ٩].

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]

وأما المنافق فقد تشرَّف للفتن فتشرَّفت له، وخاض غمارها من غير توفيق من الله له، فخلَّى الله بينه وبين الفتن، فأكلت على قلبه وشربت، وتربعت

(١) أحمد [٩ / ٢٦٢]

الشياطين على فؤاده فزينت له ما بين يديه، وغرَّه بالله الغرور، فأتى المدلهمات يريد اجتيازها؛ فإذا برجلاه تغوص في أوحال الشبهات والشهوات حتى الترقوة، ومع كثرة الفتن وتتابعها وتواترها تكثر منه العثرات والزلات، حتى يقسو قلبه، ويعلوه الران والظلمة، فلا يشعر بمرارة الفتن، ولا ينوي منها توبة ولا أوبة، ثم لا يلبث أن يألفها ويدمنها، نعوذ بالله من فوات توفيقه وعصمته ورحمته.

التاسعة: انتقام الله منه وتعجيل العقوبة له في الدنيا

إذا اشتد أذى المنافق لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين أوشك الله أن يعاجله بعقوبته في الدنيا قبل الآخرة ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[التوبة: ١٢٦].

ففي الصحيح عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، هَاجَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ تَكَادُ أَنْ تَدْفِنَ الرَّاكِبَ، فَزَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: بُعِثَتْ هَذِهِ الرِّيحُ لِمَوْتِ مُنَافِقٍ فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا مُنَافِقٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ مَاتَ»(١)

وفيه آيضا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: " كَانَ مِنَّا رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ قَدْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَكَانَ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ هَارِبًا حَتَّى لَحِقَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: فَرَفَعُوهُ، قَالُوا: هَذَا قَدْ كَانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ فَأُعْجِبُوا بِهِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَصَمَ اللهُ عُنُقَهُ فِيهِمْ، فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ، فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ، فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا،

(١) مسلم (٧/ ١٧١رقم ٧١٤٢)، و أحمد (٢٢/ ٢٧٦رقم ١٤٣٧٨)

ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ، فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا، فَتَرَكُوهُ مَنْبُوذًا ».(١)

(١) مسلم (٤/ ٢١٤٥ رقم ٢٧٨١)

الفصل الثاني
العقوبات الشرعية في الدنيا

المقصود بهذا النوع من العقوبات المقرر على المنافقين: العقوبات الشرعية على المكلفين، على الحاكم المسلم وعلى الرعية والمجتمع المسلم كله تجاه هذه الطائفة الخبيثة المخربة المفسدة للمجتمعات المسلمة، الساعية في إضراره والفتك به وخيانته وتخذيله، فهذه العقوبات ينبغي على الحكومات المسلمة تطبيقها على هذه الثلة الخبيثة، كل على حسب قدرته وعجزه، وعلى حسب رعاية المصالح الشرعية، أو تطبيق بعضها دون بعض.

فمن هذه العقوبات:

الأولى: الحذر منهم والتحذير من خطرهم ومخططاتهم وفضحهم بأسوأ أعمالهم:

قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤].

عَـــدِمْتَ حَمِيَّـــةً، وسَـــقِمْتَ وُدًّا فَلَـــمْ تُـــدْرِكْ لِمَكْرُمَـــة نَصِـــيبَا
فَمَـــا أَحزنـــت فى حـــربِ عَـــدوًّا وَلا أفرحـــتَ فى ســـلم حبيبـــا

وقد أنزل الله " سورة براءة " التي تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين.
أخرجاه في الصحيحين عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ سُورَةُ التَّوْبَةِ قَالَ: « التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ

أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا»(١)

وعن المقداد بن الأسود قال: هي " سورة البحوث " لأنها بحثت عن سرائر المنافقين.

وعن قتادة قال: هي المثيرة؛ لأنها أثارت مخازي المنافقين.

الثانية: الغلظة عليهم وسد الطرق عليهم

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة: ٧٣].

والغلظة متضمنة لعدم تمكينهم من الوظائف المرموقة والمناصب القيادية، وذلك لخيانتهم وعدم أمانتهم وإفسادهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة: ١١].

فالمنافق ليس فيه خير لمجتمعه، إنما ولاؤه وانتماؤه لأعداء المسلمين، وهل ثمة وصف يفوق وصف الله لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾[آل عمران: ١١٩].

فهل تستحق هذه الفئة والشفقة والرحمة والعفو والصفح ؟

كلا والله لا يصلح معهم ولا يشفيهم إلا قول الخبير العليم الحكيم: ﴿ وَٱغْلُظْ

(١) البخاري [٦ / ١٤٧ رقم ٤٨٨٢]

عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ فهذه الثلة لا يصلح معها عفو، ولا يؤثر فيها إحسان؛ بل متى تمكنت وصارت أزمة الأمور لها فعلت كل شيء !

وإنما تأتي الكوارث والنكبات وخراب الديار والبلاد وإفساد المجتمعات وتضييع مقدراتها وثرواتها إذا تولت هذه الفئة المناصب القياديةعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ " قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: " السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**».(١)

الثالثة: مجاهدتهم بالسنان والحجة والبيان

فقد أمر الله سبحانه بمجاهدتهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ ﴾ [التحريم: ٩].

وهذا يشمل مجاهدتهم باللسان والحجة والبيان وكشف مخططاتهم، وفضحهم وشنِّ الغارات عليهم؛ حتى يظهر للناس مكرهم وتدبيرهم؛ فإنهم كخفافيش الظلام لا تعمل إلا بليلٍ، فإذا غشيَ أبصارَها نور؛ خنست وانكمشت ودخلت أعشاشها.

فإذا عُلم هذا صار واجبًا على المجتمع المسلم فرز الثلة المؤمنة الصادقة من أصحاب التخصص في جميع المجالات الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية والطبية وغيرها لينافحوا ويصدوا غارات المنافقين والمرجفين والجاهلين، وهذا باب عظيم جداً ما ينبغي أن يغفل يكون للمجتمع حرس

(١) أحمد [١٣ / ٢٩١ رقم ٧٩١٢]

حـدود، يحمـون حـدوده ويقفـون علـى ثغـوره ويصـدون هجمـات هـؤلاء المفسدين.

سؤال: لماذا سماه الله جهادا ؟ هل الأمر خطير لهذا الدرجة ؟

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: ٤].

هذه الفئة قد أوتيت من قوة الحجة ونعومة الكلام وحسن اللسان ما يجعل آذان المؤمنين خاضعة لهم إذا ما تكلموا وجادلوا؛ فلذا نرى أن الله تعالى تولى بنفسه فضحهم وهتك أستارهم؛ لتتجلى حقيقتهم للمؤمنين، وترك لنا سبحانه سجلاً حافلاً من مخازٍ وصفات وأسرار هؤلاء.

فمعرفة خبايا وخبائث هؤلاء ضرب من الجهاد، ثم ترصدهم وكشف مخططاتهم ضرب آخر، ثم الإيقاع بهم وإفساد الخطط عليهم آخر، ثم جدالهم وإبطالهم شبهاتهم ضرب آخر !

سؤال: كيف أعرف المنافقين حتى أجاهدهم ؟

اسمع: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١١٨].

ففي هذه الآية يبين سبحانه أن قلوب المجرمين تتشابه في الفكر والتدبير والمكر والخديعة والكفر والشقاق والنفاق، فتخرج الأفعال والأقوال والكلمات بل والهمسات واللمزات والهمزات متوافقة متشابهة مواتية متواطئة

مع ما امتلأت به قلوبهم، فإذا عرف المؤمن الصادق هذا وسمع من هؤلاء شيئًا = ألحق الآواخر بالأوائل، والأوابد بالقوانص، ووضع للمبتدأ خبره، وللعامل معموله، فحين ذاك تتم له العبارة، ويتضح له المعنى، وتتكشف له المخططات، وتتضح له الحقائق، وتتبهرج له الخبايا، وتشرق له شمس الفِراسة، فيرى ويسمع ما لا يدركه غيره، فإن خفي ودقَّ عليه شيء من مكرهم أعمل فكره ورتَّب أفكاره، وسبر القرائن ونظر في المآلات؛ فيلحظ في لحن قولهم خداعهم، وهذه علامة ثانية لمعرفة هؤلاء، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد: ٣٠].

الرابعة: دوام حسرتهم وحزنهم:

قال الله: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فالمنافقون قد امتلأت قلوبهم بغضًا وحسداً وغلاً على المؤمنين فتجدها دائمة الحسرة والحزن إذا أصاب المؤمنين حسنة من نصر وفرج وغنى وعافية ونحو ذلك؛ فيعضوا أناملهم غيظًا وبغضًا.

وقال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة ١٠١].

«**قال محمد بن إسحاق**: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ قال: هو -فيما بلغني -ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه.»(١)

وفي الحقيقة فإن هذا الألم القلبي الذي يجده المنافق من أشد أنواع العقوبات له؛ وهل ثمة حسرة كهذه التي تملأ الصدر وتحرق الأحشاء حتى يعضَّ صاحبها على أنامله.

الخامسة: نفيهم وطردهم وتطهير المجتمع منهم:

قال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾[الأحزاب:٦٠- ٦١]

فالمنافق الذي ازداد شره وكثر خبثُه، وتتابعت غوائله وخصومته للمجتمع المسلم، وتضرر المسلمون بوجوده بينهم فهذا ينبغي أن يطرد منه، ولا يستحق اللبث فيه، ولا العيش في كنفه؛ كل ذلك حسماً لمادة الشر.

فقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ ﴾

أي: في المدينة، فيطردوا ويبعدوا ويهجروا منها، كل ذلك نكالاً لهم.

فهذه الأصناف الثلاثة يفعل بهم الحاكم المسلم النفي أو القتل على حسب إفسادهم ونكايتهم في أهل الإسلام؛ فإن الله سبحانه " توعدهم بقوله: ﴿ لَّئِن لَّمْ

(١) تفسير ابن كثير [٤ / ٢٠٥]

يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: مرض شك أو شهوة ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين.

﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلا بأن تقتلهم أو تنفيهم.

وهذا فيه دليل، لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر، وأبعد منه، ويكونون ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ أي: مبعدين، أين وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يحبسوا، أو يعاقبوا.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ أن من تمادى في العصيان، وتجرأ على الأذى، ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة. ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ أي تغييرًا، بل سنته تعالى وعادته، جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها"

السادسة: قتل المستهزئ منهم المحارب لله ورسوله ﷺ

وهذا حكم الله تعالى فيمن استهزئ بالله أو أحد صفاته أو أسمائه أو شيء من أفعاله، أو شرعه، أو استهزئ برسوله، أو بأحد من رسله عليهم الصلاة والسلام، أو اتهم النبي بأنه ما عدل في قضية ما أو أنه كذب أو ظلم أحداً حقه، أو كتم شيئا من الوحي، أو خان أمانة، أو نقض عهداً، أو بغى على أحدٍ أو اضطهد أحداً إلى غير ذلك مما هو معروف في بابه.

دليل هذا قوله تعالى: ﴿ مَّلْعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦١]

قد يقال: إن النبي ﷺ لم يقتل أحدا من المنافقين، فالجواب: أن النبي ﷺ كان يفعل هذا لأنهم كانوا يضمرون ويخفون نفاقهم، ولأن خشي أن يقال: إن محمدا يقتل أصحابه، ولأن هؤلاء المنافقين كان لهم قبائل تثور وتنتصر لهم. ولأن الدولة الإسلامية كان لها أعداء كثير وكان في فترة بناء فعفى عنهم لهذا، ثم جواب أخير أن هذا كان في أول الأمر وبعد هذا أنزل الله: ﴿ مَّلْعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ فعلموا أنهم إن أظهروه كما كانوا يظهرونه قتلوا فكتموه.

هل هناك دليل على جواز قتل المنافق ؟

الجواب نعم: من القرآن ذكرته لك

أما من السنة: ففي قصة حاطب بن أبي بلتعة، وقول عمر: «يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ» فسماه عمر منافقا والنفاق هنا نفاق اعتقادي أي ردة عن دين الإسلام، فعذر النبي حاطبا لأنه كان متأولا خاصة لأنه قال " وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِى وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ "، والتأول ما نع من موانع القتل، والشاهد: رضا النبي على حكم عمر بأنه منافق يستحق القتل.

ولما قال عبد الله بن أبي سلول:«فَعَلُوهَا أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

وأيضا لما قال أحدهم فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ. قَالَ «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ». فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضى الله عنه دَعْنِى يَا رَسُولَ اللهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ. فَقَالَ «مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّى أَقْتُلُ أَصْحَابِى إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

فالمنافق إذا أظهر نفاقه، وزندقته، وخداعه فإنه يقتل ولا كرامة، إلا إذا ترتب على قتله مفسدة عظيمة؛ فإنه لا يقتل دراء لأعلى المفسدتين كما ترك النبي ﷺ قتل عبدالله بن أبي بن سلول للسبب ذاته.

السابعة: ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة: ٨٤].

وفي الصحيح عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ لَمَّا تُوُفِّيَ جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أُكَفِّنْهُ فِيهِ وَصَلِّ عَلَيْهِ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ فَقَالَ: «آذِنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ» فَآذَنَهُ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ جَذَبَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: « أَلَيْسَ اللهُ نَهَاكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فَقَالَ أَنَا بَيْنَ خِيرَتَيْنِ قَالَ ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ فَصَلَّى عَلَيْهِ فَنَزَلَتْ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾».(١)

(١) البخاري [٢ / ٧٦ رقم ١٢٦٩] باب مَا يُكْرَهُ مِنْ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ.

فقد « أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَبْرَأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين».(١)

الثامنة: ترك الدعاء والاستغفار لهم

قال تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المنافقون: ٦].

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

(١) تفسير ابن كثير [٤ / ١٩٢]

الفصل الثالث
العقوبات الأخروية للمنافق

عقوبات الآخرة التي تقع على المنافقين لا تقل عن عقوبات المشركين والمرتدين، بل المنافق أسوأ حالا، وأخبث مآلاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥].

فمن هذه العقوبات الأخروية:

العقوبة الأولى: سوء الخاتمة

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: « **بُعِثَتْ هَذِهِ الرِّيحُ لِمَوْتِ مُنَافِقٍ** »، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا مُنَافِقٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ مَاتَ.

ومعنى " بُعِثَتْ هَذِهِ الرِّيحُ لِمَوْتِ مُنَافِقٍ "، أي: عقوبة له، وعلامة لموته، وراحة للبلاد والعباد منه.

وهذا يدل على شؤم النِّفاق وخطورته حتى أُمرت الريح والعواصف أن تهبَّ لأخذ المنافق ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١].

" فاللهم يا من أرسلت تلك الريح على هذا المنافق، أرسل ريحًا عقيمًا على منافقي زماننا، تقطع دابرهم، أو تلقي بهم في وادٍ سحيق، فيكونوا نهبًا للطير والسباع، فلا أرض تبكيهم، ولا سماء تندبهم،... فأنت ولى ذلك والقادر عليه».

عن عمار بن ياسرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أخبرني حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: **"فِي أُمَّتِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا، حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ، ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ(١)، سِرَاجٌ مِنَ النَّارِ يَظْهَرُ فِي أَكْتَافِهِمْ، حَتَّى يَنْجُمَ مِنْ صُدُورِهِمْ»** رواه مسلم.

الثانية: تشديد العذاب على المنافق وزلزلته عند حضور سكرات الموت

قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فإن المنافق يدركه من هول الموت وغصصه وفتنته ما يفتنه عن شهادة التوحيد، فلا يهتدي إليها، ولا يتذكر النطق بشيء من الخير، عياذا بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وفي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: " وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ

---

(١) "الدبيلة" في الأصل: « تصغير دبل وهي الداهية، فأطلقت على قرحة رديئة تحدث في باطن الإنسان ويقال لها: الدبلة -بالفتح والضم-، وفسرها في الحديث بنار تخرج في أكتافهم حتى تنجم من صدورهم، أي: تظهر منها، من نجم ينجم -بالضم-: إذا ظهر وطلع، ولعله أراد بها: ورما حارا يحدث في أكتافهم بحيث يظهر أثر تلك الحرارة وشدة لهبها في صدورهم، فمثله بسراج من نار، وهو شعلة المصباح.
وقد روي عن حذيفة أنه عليه السلام عرفه آباءهم وأنهم هلكوا كما أخبره الرسول صلوات الله عليه » انظر : تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة [٣ / ٥٢٢].

الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ ". قَالَ: " فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ "، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: " اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ". ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج: ٣١] » الحديث(١).

الثالثة: اضطراب المنافق في قبره

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل: «قَالَ: فَيُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَا هَا لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَا هَا لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَا هَا لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ حَرِّهَا

(١) أحمد [٣٠ / ٤٩٩]

وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ "، قَالَ: " وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئُ، فَيَقُولُ: رَبِّي لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

الرابعة: عذاب المنافق في القبر

من حديث أَنَس بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ..... وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي. كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً فَيَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ "، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: " يَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ**».(١)

الخامسة ـ موقف المنافق في أرض المحشر

أما موقف المنافقين يوم القيامة فموقف عسير جدا، نعوذ بالله من سوء حالهم، وم يقوم الناس لرب العالمين. قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم:٤٢، ٤٣].

حينها يسجد المؤمنون لربهم يوم القيامة، ويبقى المنافقون فلا يستطيعون السجود، وهذا من أعظم الفتن والابتلاء والحسرة للمنافقين، ليخزيهم الله على

(١) أحمد (١٩/ ٢٨٩رقم ١٢٢٧١)

رؤوس الأشهاد.

ويظهر نفاقهم في الآخرة، فضيحة لهم في الدنيا والآخرة.

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ وَالْبَلَاءِ، وَالِامْتِحَانِ وَالْأُمُورِ العظام.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا**».

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوَهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ**» أحمد [١١ / ٢٦٠]

السادسة: انظفاء نور المنافق يوم القيامة

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد: ١٣]

السادسة ـ حجب المنافق عن حوض النبي ﷺ

من أشد عقوبات المنافق في أرض المحشر أنه لن يرد حوض النبي ﷺ

ففي البخاري عن سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا،**

لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ» فَأَقُولُ: **«إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»**(١)

السابعة : عدم المغفرة للمنافق

من أشأم عقوبات الله للمنافق أن تحجب عنه المغفرة والرحمة عياذا بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾ [النساء: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المنافقون: ٦].

الثامنة : أن المنافق لا تناله شفاعة الشافعين

قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر: ٤٨].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ

(١)البخاري (٩/ ٤٦رقم ٧٠٥٠)

رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً، وَسَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ " قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤]».(١)

التاسعة : حبوط عمله بالكلية

وكما يذهب إيمان المنافق بالكلية فإنه يحبط عمله بالكلية أيضاً إذا تلبس بشعبة من شعب النفاق الأكبر، سواء علم بذلك أو لم يعلم؛ لذلك بوب الإمام البخاري " بَاب خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ".

" أي: خوفه من أن يكون منافقاً، فيحبط لذلك عمله وهو لا يعلم بنفاقه لكمال غفلته أو خوفه من أن يحبط عمله بشؤم معاصيه كما رفع علم ليلة القدر من قلبه ﷺ بشؤم الاختصام ".(٢)

قال تعالى في شأنهم : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المائدة: ٥٣].

وقال تعالى في حقهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى

(١) مسلم (٤/ ٢١٤١رقم ٢٧٧٤)
(٢) حاشية السندى على صحيح البخارى (١/ ٢٢)

بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [محمد: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثٌ فِي الْمُنَافِقِ وَإِنْ صَلَّى وَإِنْ صَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ**».

العاشرة: استهزاء الله بالمنافق

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٤ – ١٥]

فاستهزاء المنافقين بقولهم لأوليائهم من شياطين الإنس والجن: إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ.

وأما حقيقة استهزاء الله بالمنافقين فقد اختلف أهل العلم على أقوال:

الأول: أنه يفعل بهم ذلك على الحقيقة: ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد: ١٣].

ف" هذه الطبقة أشقى الأشقياء ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة وتعطى نورا يتوسطون به على الصراط ثم يطفىء الله نورهم ويقال لهم: ﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ ﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ ﴾ وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة ! نعوذ بالله من غضبه وعقابه"

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ ﴾ [آل عمران: ١٧٨]

وقوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ﴾ [النساء: ١٣٨]

والبشارة تكون بالخير والفلاح لا بالعذاب والنكال والوعيد الغليظ؛ لكن قال ذلك على سبيل الاستهزاء والاستخفاف بهم؛ فكما خبأوا الشر وأظهروا الخير للنبي ﷺ وللمؤمنين؛ أمره أن يبشرهم بما ظاهره الخير وباطنه الشر الغليظ.

القول الثاني: قالوا: بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه، والكفر به.

القول الثالث: قالوا: هذا وأمثاله على سبيل الجواب، كقول الرّجل لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك. ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه

فيكون المعنى: أن مكرهم واستهزاءهم وخديعتهم قد حاقت بهم، لا أنه فعل بهم ذلك على الحقيقة.

القول الرابع: قالوا: قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ [البقرة: ١٥]

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ [النساء: ١٤٢]وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم جَزَاءَ الاستهزاء، ويعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مُخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما.

قال: وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك.

القول الخامس: قالوا: إن معنى ذلك: أنّ الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خَلَوا إلى مَرَدَتِهم قالوا: إنا معكم على دينكم، في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم -من قولنا لهم: صدقنا بمحمد، عليه السلام، وما جاء به مستهزئون؛ فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة، يعني من العذاب والنكال.

وقد اختار هذا القول الأخير ابن جرير؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، عز وجل بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

الحادية عشرة: تشديد العذاب على المنافق في النار

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وإنما استحق المنافق تغليظ العذاب؛ لشدة نكاية بأهل الإسلام، ولإنه ذاق طعم الإيمان ثم رجع، ولكفره بعد إسلامه، وخيانته لله ولرسوله وللمؤمنين، وسعيه الدؤوب في هدم الإسلام ومناراته.

الباب الخامس
طرق الوقاية والعلاج من النفاق

الفصل الأول: طرق الوقاية من النفاق

الفصل الثاني: علاج النفاق

الفصل الأول
طرق الوقاية من النفاق

وهذا الفصل في غاية الأهمية، فإن الوقاية مطلوبة، وضرورة حتمية لتجنب الشر، وعدم الانزلاق والوقوع فيه، وثمة فائدة لابد من التنبيه والتنويه عليها، **وهي ضرورة معرفة الشر، وهذا أصل في شريعة رب العالمين، ويترتب عليه مصالح كثيرة**، منها:

١ ـ حصول العلم

الذي هو ذروة سنام الخير؛ فإن السلامة كلها في العلم النافع، الذي يحفظ به العبد من الفتن ظاهرها وباطنها؛ قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢]

وعن حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي** »(١)

من باب قول أبي فراس الحمداني:

عَرَفْتُ الشَرَّ لا لِلشَرِ ... رِ لَكِن لِتَوَقّيهِ
وَمَن لَم يَعرِفِ الشَرَّ ... مِنَ الخَيرِ يَقَع فيهِ

(١) البخاري [٤ / ١٩٩ رقم ٣٦٠٦]

٢ ـ بيان حال المجرمين

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥]

٣ ـ الرجوع والتوبة لمن تعثر فيما تعثر فيه المجرمون

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٤]

٣ ـ حصول النظر والاعتبار والتفكر ببيان حال المجرمين وجزاء المتقين

قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤]

٤ ـ ما يحصل للعبد من كمال العقل والفطنة بمعرفة الشر والخير

قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم: ٢٨]

٥ ـ سلامة القلب

قال قال ابن تيمية: "فالقلب السَّليم المحمود، هو الذي يريد الخير لا الشَّر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشَّر، فأمَّا من لا يعرف الشَّر، فذاك نقص فيه لا يُمدح به" (الفتاوى الكبرى: [٥/ ٢٦٤]).

هذا ويمكن الإشارة إلى طرق الوقاية في النقاط التالية:

١ ـ تحقيق الإيمان مع الدراسة الواعية لأركانه

فإن تحقيق الإيمان بالله تعالى والإيمان بالرسل وبالكتب وبالقدر وباليوم الآخر فيه شفاء وكفاية ووقاية وحصن حصين للعبد من الدخول في النفاق، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١]

٢ ـ معرفة صفات المنافقين حتى لا يتلبس بشيء منها

فإن العلم يقي صاحبه الفتن، ويجعله في حصن حصين من التلبس بها، والانزلاق في آتون نارها، عافانا الله وإياكم من النفاق وأهله.

٣ ـ الإخلاص في الأعمال، ومجاهدة النفس في دفع الرياء والعجب والغرور

ومجاهدة النفس آيضا في استواء الظاهر والباطن، والسر والعلانية؛ قال تعالى في توبتهم : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٤٦]

وإذا علمت أن آفة المنافق رياؤه، وتجمله في الظاهر بما ليس عليه في الباطن، وطلب المنزلة عند الخلق فقط، مع ضياع أمانته ودينه في الباطن عياذا بالله تعالى

فعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ حديثين، وقد رأيتُ أحدَهما، وأنا أنْتَظِرُ الآخر، حَدَّثنا أنَّ الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرِّجال، ثم نزل القرآن، فَعلِمُوا من القرآن، وعلموا من السُّنَّة. ثم حدَّثنا عن رفْع الأمانة، فقال: «ينامُ الرجُلُ النومَةَ، فتُقْبَضُ الأمانةُ من قلبه، فيظَلُّ أثَرُها مِثْلُ أثَرِ الْوَكْتِ، ثمَّ ينامُ النَّومةَ، فَتُقْبَض الأمانةُ من قبله، فيظلُّ أثَرهُا مثْلُ أثَرِ الْمجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتراه مُنْتبِرًا، وليس فيه شيءٌ - ثم أخَذَ حصى

فدحْرَجَهُ على رجْلِهِ – فيُصْبِحُ النَّاسُ يتبايَعون، فلا يكاد أحدٌ يُؤدِّيَ الأمانةَ، حتَّى يُقالُ: إنَّ في بني فلانٍ رَجُلاً أمينًا، حتى يقال للرجل: ما أجْلَدَهُ، ما أظْرَفَهُ، ما أعْقَلَهُ، وما في قلبه مِثْقَالُ حبَّةٍ من خَردلٍ من إيمانٍ، ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيّكُم بايعْتُ، لئِن كان مُسلمًا ليَرُدَّنَّه عليَّ دينُهُ، وإنْ كان نَصْرانيًا أو يَهوديًا ليَرُدَّنه عليَّ ساعيه، وأما اليوم فما كنتُ أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

٤ ـ البعد عن خصال النفاق العمل:

من كذب وخيانة، وخلف للوعد، وكراهية للجهاد، وموالاة للكفار، وتعطيل لشرع الله تعالى.

والذي يُعين العبد على ذلك هو استشعار عظمة الله تعالى، والحرص على سلامة قلبه من الآفات والأمراض.

وينبغي للعبد ألا يستهين بمثل هذا، وألا يتغافل عن هذه الصغائر ويحتقرها ولا يعدها شيئا، فإنها تؤثر على حقيقة الإيمان، وتزعزع حقيقته ، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور: ١٥]

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [التوبة: ٦٥]

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ**» وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ

بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ »(١)

٥ ـ الإكثار من الاستغفار، والمسارعة إلى التوبة كلما أحدثت ذنبًا.

قال رجل لحذيفة:إني أخشى أن أكون منافقا

فقال له: تصلي إذا خلوت، وتستغفر إذا أذنبت؟

قال: نعم

قال: اذهب فما جعلك الله منافقا »(٢)

٦ ـ **تجنب البدع ومرافقة المبتدعين**، والحرص على اتباع السنة ومرافقة الصالحين.

فإن البدعة بريد النفاق، و المبتدع مبغض للسنة وأهلها، وأكثر منافقي هذه الأمة مبتدعة، عشقوا البدع حتى أبغضوا السنة وأبغضوا أهلها والمحافظين عليها، وعادوهم وحاربوهم وضيقوا عليهم، بل وسارعوا في صد الناس عن اتباع السنن، حتى وقع بعضهم في الشرك الأكبر بدعوى نصرة البدعة، ومحاربة التطرف والتشدد وغير ذلك مما هو معروف مشتهر.

٧ ـ كثرة الذكر، وخاصة تلاوة القرآن

والمحافظة على الأوراد والأذكار الموظفة في اليوم والليلة، ومدارسة القرآن حفظا وتفسيرا وتفكرا وعملا وتدبرا؛ فإن هذا من أنجع وأنفع طرق الوقاية من النفاق وأهله.

---

(١) أحمد [٦ / ٣٦٧ رقم ٣٨١٨]

(٢) الترغيب ١٦٧

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾ [الإسراء: ٩]

والقرآن شفاء لما في الصدور من أمراضها

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ [يونس: ٥٧]

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ ﴾ [الإسراء: ٨٢] والأظهر أن من ههنا لبيان الجنس فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤ ﴾ [فصلت: ٤٤]

« وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين؛ ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل.

فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة = مثل القرآن؛ فإنه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها ، وأقربها إلى العقول ، وأفصحها بيانا ، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك.

ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقة بها وإنما هي آراء وتقليد وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها، فهي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل »(١)

٨ ـ المواظبة على صلاة الجماعة في المسجد، والإتيان إليها مبكرًا،

والمحافظة على خشوعها وسننها، وخاصة قيام الليل، فهو دأب الصالحين وهو يسير عليهم، بينما هو شاقٌّ على المنافقين.

قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور:٣٦، ٣٧]

وعند مسلم وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا فَيُقِيمَ الصَّلَاةَ، ثُمَّ آمُرَ فِتْيَانِي فَيُخَالِفُونَ إِلَى قَوْمٍ لَا يَأْتُونَهَا، فَيُحَرِّقُونَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِحُزَمِ الْحَطَبِ، وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْمًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ**»

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ**

(١) إغاثة اللهفان [١ / ٤٤]

الْمُؤَذِّنَ فَيُقِيمَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا يَؤُمُّ النَّاسَ ثُمَّ آخُذَ شُعَلًا مِنْ نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لا يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ بَعْدُ»(١)

٩ ـ حبُّ الإنفاق في سبيل الله تعالى، وإخراج الصدقات وأداء الزكوات، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

١٠ ـ الجهاد في سبيل الله.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**». مسلم وأبوداود

قال النووي: المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلّفين عن الجهاد في هذا الوصف؛ فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق. وفي هذا الحديث أن من نوى فعل عبادة فمات قبل فعلها لا يتوجّه عليه من الذم ما يتوجّه على من مات ولم ينوها.

١١ ـ كثرة الدعاء بالعافية من النفاق وغيره من أمراض القلوب

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٧]

فتوحيد الله تعالى مطلب عظيم ينبغي للعبد أن يطلبه دائما من ربه، وأن ينكسر له، وأن يعلم قدره وقد حكى الله تعالى لنا دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وفي سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥].

---

(١) البخاري- طوق النجاة [١ / ١٣٢ رقم ٦٥٧]

وقد كان نبينا ﷺ يكثر من الدعاء والتعوذ من الأخلاق الدنيئة وعلى رأسها النفاق، قال ﷺ: «**وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**»(١) والخلق الحسن يشمل الخلق مع الله، وذلك بعبادته وتوحيده، وأسوأ الأخلاق هو الكفر بالله تعالى والنفاق.

وكان يدعو آيضا قائلا: «**اللهم إني أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْكُفْرِ، وَالْفُسُوقِ، وَالشِّقَاقِ، وَالنِّفَاقِ، وَالسُّمْعَةِ، وَالرِّيَاء**»(٢)

- أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ ؟ قَالَ: قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لما لا أعلم**»(٣)

- عن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن أَبِي بَكْرَةَ، أَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنِّي أَسْمَعُكَ تَدْعُو كُلَّ غَدَاةٍ وَتَقُولُ: " اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ " تُعِيدُهَا حِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا، وَثَلَاثًا حِينَ تُمْسِي. قَالَ: نَعَمْ يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو بِهِنَّ، فَأُحِبُّ أَنْ أَسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ ».(٤)

١٢ ـ الخوف الدائم من النفاق

فإنه لا يأمنه إلا منافقه، ولا يخافه إلا مؤمن، كما مر معنا بالتفصيل

---

(١) رواه مسلم (١٢٩٠) .
(٢) رواه الحاكم (١٩٤٤)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع.
(٣) وروى البخاري في " الأدب المفرد " (٧١٦).
(٤) وروى أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠).

الفصل الثاني
علاج النفاق

من الأهمية بمكان أن نختم فصول هذه الكتاب بعلاج النفاق، وكيفية التوبة منه، وإصلاح التوبة وتجويدها منه، حتى يسلم للعبد إيمانه، وتصح له عبادته؛ فينتفع بها في الآخرة.

والمنافق له توبة، سواء كان نفاقه أكبر أو أصغر؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء:١٤٥، ١٤٦]

وهذه جملة من علاج النفاق:

١ ـ تصحيح الإيمان بأركانه الستة

ومن ذلك الرجوع عما كان سببًا في نفاقه وتصحيح ما تخرب من شعب الإيمان في قلبه؛ فإن كان نفاقه بسبب عدم إيمانه بالقدر = بادر بتصحيح إيمانه بالقدر مع الدراسة الواعية لهذا الركن، وإن كان نفاقه بسبب ذوبان عقيدة الولاء والبراء في قلبه بحيث يوالي أعداء الله تعالى وينصرهم ويفرح لنصرتهم، ويبغض المؤمنين ويفرح لهزيمتهم ويبغض نصرتهم = بادر بتصحيح هذا مع تجريد عقيدة الولاء والبراء، وتنقيتها من كل شائبة.

وإن كان نفاقه بسبب بغض دين الرسول ﷺ ومعاداته لسنته وحربه لأهلها = بادر بتصحيح ذلك، مع الدارسة الواعية للسنة وحبها ونصرتها وملازمتها ظاهراً وباطناً، وهكذا.

٢ ـ تصحيح العمل الظاهر

من أعمال العبادات كالصلاة والزكاة والحج وغيرها؛ فإن المنافق لا يكاد يحسن عبادة الله تعالى؛ بل متعجل فيها، لثقلها عليه كما في الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [التوبة: ٥٤] فالمنافقون لعدم رغبتهم في الآخرة لم يحسنوا عبادتهم لله تعالى، فإذا أراد أحدهم أن يتوب فلابد من تحسين العبادة.

وفي الصحيح: « **تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا** ».

٣ ـ علاج النفاق العملي

ويكون ذلك بصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وعدم الفجر في الخصومة، وأداء الأمانة إلى من ائتمنه، وحب الأنصار، وحب علي رضي الله عنه، إلى غير ذلك

٤ ـ التوبة النصوح

الشاملة لجميع الذنوب؛ قال تعالى في توبتهم: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء: ١٤٦]

ومن شروط التوبة: الرجوع عن كل خصال النفاق وتعيين التوبة منها، وبذل

المجهود في الثبات على دين الله تعالى، مع الاستقامة، وأن يبذل للإسلام ونصرة السنة وأهلها ما كان يبذله للنفاق وأهله.

٥ ـ تبديل السيئات حسنات، وإصلاح ما أفسد

بحيث يتحول من العداء لله ولرسوله ﷺ إلى نصرة دين الله تعالى، وموالاة المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢]

٦ ـ الاعتصام بالكتاب والسنة

قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٧ ـ إخلاص العمل لله تعالى

إن من أهم شرائط توبة المنافق: إخلاص العمل وتجريده لله تعالى وحده لا شريك له؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة: ٥]

وكان يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ يقول في دعائه: «كَيْفَ يُنْجِينِي عَمَلِي، وَأَنَا بَيْنَ حَسَنَةٍ، وَسَيِّئَةٍ فَسَيِّئَاتِي لَا حَسَنَاتِ فِيهَا، وَحَسَنَاتِي مَخْلُوطَةٌ بِالسَّيِّئَاتِ، وَأَنْتَ لَا تُقْبَلُ إِلَّا الْإِخْلَاصَ مِنَ الْعَمَلِ فَمَا بَقِيَ بَعْدَ هَذَا إِلَّا جُودُكَ ».(١)

(١) شعب الإيمان [٢ / ٢٥٦ رقم ٨٢٤]

٨ ـ كثرة الدعاء بالمعافاة من النفاق

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ مَنْزِلَهُ بِحِمْصَ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مَسْجِدِهِ فَلَمَّا جَلَسَ يَتَشَهَّدُ جَعَلَ يَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنَ النِّفَاقِ فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ مَا أَنْتَ وَالنِّفَاقُ ؟ قَالَ: «اللهُمَّ غَفْرًا - ثَلَاثًا - مَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ ؟ مَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ ؟ وَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَتَنُ فِي سَاعَةٍ فَيَنْقَلِبُ عَنْ دِينِهِ».(١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ عُمْرِهِ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَزْنِيَ، أَوْ أَعْمَلَ بِكَبِيرَةٍ فِي الْإِسْلَامِ يَقُولُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَمِثْلُكَ يَقُولُ: هَذَا وَيَخَافُهُ وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ السِّنِّ مَا بَلَغْتَ وَانْقَطَعَتْ عَنْكَ الشَّهَوَاتِ، وَقَدْ شَافَهْتَ النَّبِيَّ صَلَّى لِلَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَايَعْتَهُ، وَأَخَذْتَ عَنْهُ ؟ قَالَ: وَيْحَكَ وَمَا يُؤَمِّنُنِي وَإِبْلِيسَ حَيٌّ »

٩ ـ طلب العلم وكثرة ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ومدارسته

وتعاهده، والمحافظة على أوراده والعمل به، وتدبره وتعلمه، والمعاونة على نشره وتعليمه لمن لا يعلمه

١٠ ـ الصحبة الطيبة الصالحة

التي تدل على الخير وتعين عليه، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ

(١) شعب الإيمان [٢ / ٢٥٨ رقم ٨٣١]

أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ [التوبة: ٧١].



فهرس الموضوعات

مقدمة ٥
الباب الأول ١١
تعريف النفاق ١٢
أساس النفاق ١٤
خطورة النفاق ١٧
أعداء المسلم ٢٦
كثرة المنافقين ٢٩
أنواع النفاق ٣١
النوع الأول: النفاق الأكبر ٣١
النوع الثاني: النفاق الأصغر: ٣٧
النوع الثالث: نفاق المعاصي والذنوب: ٤٠
الفروق بين النفاق الأصغر والنفاق الأكبر ٥٥
أنواع المنافقين في المجتمع الإسلامي ٥٩
النوع الأول: أئمة النفاق: ٥٩
النوع الثاني: الأتباع والخدام: ٦١
النوع الثالث: نفاق الأمراء والقادة: ٦٢
النوع الرابع: نفاق العلماء والدعاة: ٦٤
من قلد العلماء في زلاتهم اجتمع فيه الشر كله ٧٢

علماء السوء أخطر على الإسلام من اليهود والنصارى.. لماذا ؟! ٧٣
من صفات علماء السوء ٧٤
الخوف من النفاق ٧٦
خوف المؤمن من أن يحبط عمله ٧٦
حقيقة النفاق الذي خافه السلف الكرام: ٧٧
أين ظهر النفاق أولاً ؟ وما هو سبب ظهور النفاق ؟ ٨٧
الباب الثاني صفات المنافقين ٩٣
صفات المنافقين ٩٤
وصف جامع للمنافقين ٩٧
سرد صفات المنافقين مرتبة حسب وردوها في القرآن ١٠٣
١ ـ إدعاء الإيمان ظاهراً. ١٠٣
٢ ـ مخادعة الله ورسوله ﷺ والمؤمنين: ١٠٤
٣ ـ التشكك والتذبذب ١٠٨
٤ـ كثرة الكذب ١١٢
٥ ـ الإفساد في الأرض: ١١٦
٦، ٧ ـ الكبر والتعالي وازدراء المؤمنين: ١١٨
٨ ـ الاستهزاء بدين الله ورسوله ﷺ والمؤمنين: ١٢١
٩ ـ هوان الآخرة على المنافق، واحتقاره للهدى: ١٢٧
١٠ و١١و١٢ ـ الصمم والبكم والعمى ١٢٨
١٣ ـ الاعتراض على أحكام الله وشرعه وعدم القبول لها: ١٣٠
١٤ ـ عدم الانقياد للأوامر الشرعية وترك العمل بها: ١٣٢
١٥ ـ المنافقُ ألدُّ خصمٌ ١٣٣

١٦ ـ شدة عداوتهم وبغضهم للمؤمنين ١٣٦
١٧ ـ بغض الجهاد والتباطؤ عنه وتخذيل المؤمنين عنه ١٣٩
أعذار المنافقين في التخلف عن الجهاد : ١٤٤
١٧ ـ التحاكم إلى الطاغوت ومحاربة ونبذ شريعة الله تعالى: ١٤٧
١٨ ـ استخفاف المنافق بشأن التوبة والاستغفار ١٤٨
١٩ ـ إظهار الطاعة والموافقة مع إبطان المعصية والمخالفة: ١٥١
٢٠، ٢١، ٢٣ ـ الاختلاف في القرآن و هجره وعدم تدبره: ١٥٢
٢١ ، ٢٢ - عدم تدبر القرآن وهجره: ١٦٦
٢٤ ـ مظاهرة الكافرين ومعاونتهم والانحياز لهم ضد المؤمنين: ١٧٠
٢٣ ـ المهانة والابتذال والاستضعاف في الأرض: ١٧٦
٢٤ ـ الخيانة والخداع: ١٨٤
٢٥ ـ رمي المؤمنين بالعظائم والبهتان: ١٨٨
٢٦- اتخاذ الكافرين أولياء وابتغاء العزة والرفعة والشرف في غير دين الله. ١٩٢
٢٧ ـ التربص بالمؤمنين وتمني الأذى لهم، وانتظار ذهاب دولتهم : ١٩٦
٢٨ـ التكاسل عن الصلاة والتهاون في حقها: ١٩٨
٢٩ ـ المسارعة في الكفر والرضخ له: ٢٠٥
٢٨و٢٩و٣٠ ـ عدم التوكل وضعف اليقين وسوء ظنهم بالله تعالى: ٢٠٦
٣١ ـ استثقال الطاعة والتباطؤ عنها وعدم الاستئناس بها: ٢١٠
٣٢ ـ ابتغاء الفتنة وإلقاء الخلاف ونشر الشائعات في المجتمع المسلم. ٢١٥
المنافق يبتغي الفتنة ٢١٧
٣٣ ـ الشح وبغض الصدقة: ٢٢٠
٣٤ ـ المنافق انتهازي فوضوي ٢٢١

٣٥ ـ إيذاء النبي والمؤمنين: ٢٢٢
٣٦ـ الجبن والهلع: ٢٢٤
٣٧، ٣٨ ـ الرياء بالأعمال الصالحة وحب الظهور بها : ٢٢٦
٣٩ ـ قلة ذكر الله تعالى ٢٢٩
٤٠ ـ ضياع عقيدة الولاء والبراء عند المنافق ٢٣٠
٤١ ـ تكلف المنافق وإلحاحه وكثرة سؤاله ٢٣١
٤٢ ـ جدال المنافق وشدة خصومته بالباطل ٢٣٣
٤٣ ـ الخيانة ٢٣٤
٤٤ ـ عدم الثقة في موعود الله تعالى ٢٣٥
٤٥ ـ الغدر: ٢٣٧
٤٦ ـ نشر الفاحشة في المجتمع المسلم. ٢٣٩
٤٧ـ حب الزنا واتباع الشهوات المحرمة ٢٤٠
٤٧ـ التفريق بين المؤمنين. ٢٤٣
٤٨ ـ بغضهم الشديد للرسول وللمؤمنين: ٢٤٤
٤٩ ـ المنافق كثير الأكل غالبًا ٢٤٦
٥٠ ـ خلف الوعد: ٢٥٠
٥١ ـ بغض الأنصار: ٢٥٢
٥٢ ـ بغض علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٢٥٤
٥٣ ـ المنافقون غششة: ٢٥٤
٥٤ـ الاحتفاء برأيهم والغضب له وشق عصا الجماعة ٢٥٧
الباب الثالث جرائم المنافقين وخياناتهم ٢٧١
جرائم المنافقين ٢٧٢

مسلسل خيانات وجرائم المنافقين: ٢٧٤
١ ـ خيانة أبي رغال ٢٧٤
٢ ـ شفاعة عبدالله بن أبي بن سلول ليهود بني قيناع: ٢٧٥
٣ ـ انخذال عبد الله بن أبي بن سلول ورجوعه بثلث الجيش يوم أحد: ٢٧٦
٤ ـ فضح الصحابة لكبير المنافقين في مسجد النبي ﷺ ٢٧٩
٥ ـ مناصرتهم لليهود في المدينة وتحريضهم على قتال وخيانة المسلمين .. ٢٨٠
٦ ـ خيانة المنافقين في يوم الأحزاب ٢٨١
٧ ـ حادثة الإفك والدور الخبيث للمنافقين ٢٨٥
٨ ـ خيانة المنافقين للنبي ﷺ وإفشاء تحركه إلى خيبر ٢٨٨
٩ ـ مسجد الضرار ٢٨٨
١٠ ـ محاولة اغتيال المنافقين للنبي ﷺ ٢٩٠
١١ ـ موت النبي ﷺ وظهور النفاق واستعلانه في المدينة وظهور مدعي النبوة.. ٢٩٢
١٢ ـ امتناع قبائل العرب عن أداء الزكاة وارتداد قبائل العرب ٢٩٢
١٣ ـ فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ٢٩٣
١٤ ـ موقعة الجمل ودور المنافقين في إشعال فتيل القتال. ٢٩٤
١٥ ـ فتنة التتار في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية والدور المخزي للمنافقين. ٢٩٦
١٦ ـ خيانة شاور للمسلمين واستغاثته بأمير الفرنجة ٢٩٧
١٧ ـ بيع الصالح إسماعيل السلاح للصليبيين ٢٩٨
١٨ ـ ابن العلقمي الخبيث وخيانته للمسلمين ٢٩٩
١٩ ـ منافقو الدولة الصفوية للأمة الإسلامية ٣٠٠
٢٠ ـ وجرائم الشيعة النصيرية وغيرها من طوائف الشيعة لأهل السنة كثيرة لا تحصى ٣٠١

الباب الرابع عقوبات المنافقين ٣٠٥
عقوبات المنافقين ٣٠٦
أولاً: العقوبات الإلهية للمنافق في الدنيا ٣٠٧
العقوبة الأولى: معاقبة المنافق بجنس معصيته: ٣٠٧
الثانية: مضاعفة العقوبة عليهم بالزيادة في ضلالهم وغيِّهم: ٣٠٧
الثالثة: التثبيط عن الطاعة، وجعلها ثقيلة عليهم: ٣٠٩
الرابعة : ذهاب الإيمان وحبوط العمل: ٣١١
الخامسة : عدم تمكين المنافق من التوبة ٣١١
السادسة : الطبع على القلب ٣١٢
السابعة: فضح سريرته في الدنيا ٣١٣
الثامنة: كثرة تردي المنافق في الفتن المهلكة: ٣١٣
التاسعة: انتقام الله منه وتعجيل العقوبة له في الدنيا ٣١٥
الفصل الثاني العقوبات الشرعية في الدنيا ٣١٧
الأولى: الحذر منهم والتحذير من خطرهم ومخططاتهم وفضحهم بأسوأ أعمالهم: ٣١٧
الثانية: الغلظة عليهم وسد الطرق عليهم ٣١٨
الثالثة: مجاهدتهم بالسنان والحجة والبيان ٣١٩
الرابعة: دوام حسرتهم وحزنهم: ٣٢١
الخامسة: نفيهم وطردهم وتطهير المجتمع منهم: ٣٢٢
السادسة: قتل المستهزئ منهم المحارب لله ورسوله ﷺ ٣٢٣
السابعة: ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا ٣٢٥
الثامنة: ترك الدعاء والاستغفار لهم ٣٢٦

الفصل الثالث العقوبات الأخروية للمنافق ٣٢٧
العقوبة الأولى: سوء الخاتمة ٣٢٧
الثانية: تشديد العذاب على المنافق وزلزلته عند حضور سكرات الموت .. ٣٢٨
الثالثة: اضطراب المنافق في قبره ٣٢٩
الرابعة: عذاب المنافق في القبر ٣٣٠
الخامسة ـ موقف المنافق في أرض المحشر ٣٣٠
السادسة: انظفاء نور المنافق يوم القيامة ٣٣١
السادسة ـ حجب المنافق عن حوض النبي ﷺ ٣٣١
السابعة : عدم المغفرة للمنافق ٣٣٢
الثامنة : أن المنافق لا تناله شفاعة الشافعين ٣٣٢
التاسعة : حبوط عمله بالكلية ٣٣٣
العاشرة: استهزاء الله بالمنافق ٣٣٤
الحادية عشرة: تشديد العذاب على المنافق في النار ٣٣٦
الباب الخامس طرق الوقاية والعلاج من النفاق ٣٣٩
الفصل الأول طرق الوقاية من النفاق ٣٤٠
١ ـ حصول العلم ٣٤٠
٢ ـ بيان حال المجرمين ٣٤١
٣ ـ الرجوع والتوبة لمن تعثر فيما تعثر فيه المجرمون ٣٤١
٣ ـ حصول النظر والاعتبار والتفكر ببيان حال المجرمين وجزاء المتقين .. ٣٤١
٤ ـ ما يحصل للعبد من كمال العقل والفطنة بمعرفة الشر والخير ٣٤١
٥ ـ سلامة القلب ٣٤١
الفصل الثاني علاج النفاق ٣٤٩

١ ـ تصحيح الإيمان بأركانه الستة ٣٤٩
٢ ـ تصحيح العمل الظاهر ٣٥٠
٣ ـ علاج النفاق العملي ٣٥٠
٤ ـ التوبة النصوح ٣٥٠
٥ ـ تبديل السيئات حسنات، وإصلاح ما أفسد ٣٥١
٦ ـ الاعتصام بالكتاب والسنة ٣٥١
٧ ـ إخلاص العمل لله تعالى ٣٥١
٨ ـ كثرة الدعاء بالمعافاة من النفاق ٣٥٢
٩ ـ طلب العلم وكثرة ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ومدارسته ٣٥٢
١٠ ـ الصحبة الطيبة الصالحة ٣٥٢
فهرس الموضوعات ٣٥٥



لخدمات الطباعة
بإشراف مكتب اللؤلؤة لخدمات الطباعة
01007868983 - 01033336232